

رواية

اللويس

رشا عدلي



دار نهضة الأهرام

١٩٩٥

العنوان
الوشم
(رواية)

قائفة
رشاعائي

إشراف عام
ءاليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لءار نهضة مصر للنشر
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأفة وسفة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 8-4893-14-977-978
رقم الإبداع: 9726 / 2014
الطبعة الأولى: مايو 2014

تليفون: 33466434 - 02 33472864
فاكس: 02 33462576

خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmistr.com
E-mail: publishing@nahdetmistr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عربي -
المهندسين - الجيزة

جميع المعلومات الحربية والسياسية الخاصة بالعمل صحيحة وموثقة في الدراسات والكتب التي تناولت فترة الحرب العالمية الثانية .

جميع ما يخص معسكرات النازية في هذا العمل صحيحة وموثقة عن دراسات وكتب تخص هذا الجانب وبخاصة سلسلة كتب وابحاث دكتور " رمسيس عوض " الباحث والمفكر السياسي التي تناولت هذا الجانب بالكثير من الحيادية والشفافية .

بطلة الرواية وجميع الأحداث التي مرت بها من وحي خيال الكاتبة مستوحاة من الأحداث التي مرت في تلك الفترة الزمنية وهي شخصية لا تمت للواقع بصلة .

عن الرواية

هذه الرواية لا تظهر تعاطفاً مع أحد ، فلا أحد يستطيع إنكار حدث تاريخي قد حدث بالفعل و على مرأى ومسمع من الجميع , وأنا ككاتبة و باحثة أرى أن الفلسطينيين لا ذنب لهم في حدوث ما حدث لليهود على ايدي القوات النازية بل إنهم دفعوا ثمن جريمة ارتكبت في الغرب، كما أن جرائم الهولوكوست لا تبرر استخدام إسرائيل القوة المفرطة ضد الفلسطينيين، خصوصاً النساء والأطفال، اردت ايضاً أن اوضح الفرق ما بين الهوية والأنتماء وكيف أن في أماكن أى شخص أن لا ينتمى بالضرورة للبلد التي تعلن خيانة الجنسية في اوراق اثبات شخصيته أسمها , اليهود في مصر كانوا جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع ولا نستطيع أن نغفل ذلك أو نكره وهناك خلط كبير ما بين الصهيونية كحركة سياسية ودولة اسرائيل والديانة اليهودية , كثيراً من يهود مصر اقاموا حركات سياسية ضد الصهيونية نفسها وعلى رأسهم المحامي اليهودي الشهير (شحاتة منير) الذى ظل يناضل ضد السياسة الصهيونية حتي موته في مصر التي رفض أن يغادرها بالرغم من اصابة ابنته في مطلع الخمسينات بمرض لوكييميا الدم وطلب منه الطبيب سفرها لفرنسا لعلاجها وكان عليه في ذلك الوقت حتي يسافر أن يحصل علي استمارة الخروج بلا عودة فرفض ذلك وأختار التضحية بفقده لابنته عن أن يفقد عودته لمصر مجدداً, أتمني أن ذلك العمل قد يلقي بعضاً من الضوء على فترة واحداث مهمة و مهمة في التاريخ ...

رشا عدلي

الإهداء

إلى عمر خالد

إلى أحمد خالد

أحبكما

رشا عدلي

صباح يوم جديد علي وشك القدوم ، ولا يزال الظلام يجسم علي السماء بعد ليلة شتوية حالكة . الخامسة فجراً عندما كانت كقطة شريفة متمهلة السير باتجاه قدر ما . الكل يغط في نوم عميق ولا من صوت سوى دموع القناديل تحت المطر و وقع خطوات عسكرية تتفقد الأمن ليلاً بأحد الشوارع الضيقة المتفرعة من شارع الملكة نازلي . وجدت نفسها تدخل مسرعة للمبني المحاذي لها وتتوارى خلف جداره حتي مر الرجل بسلام دون أن يراها ثم خرجت مرة أخرى للطريق . كانت لا تزال في الخامسة عشر من عمرها عندما غادرت هي وأهلها لفرنسا بنية اللارجوء . تتذكر جيداً هذا اليوم الذي مر عليه أكثر من عشر سنوات كما تتذكر تماماً البناية التي كانت تقطن بها فهي قد لاحت من بعيد بلونها الذي غدا أشد قاتمة . هل لأن الأحداث التي عاشتها هنا لا تُنسى تظل دوماً مترعة علي عرش الذاكرة أم لأنها الطفولة بكل ما تحمله معها من جبال وبراءة ، أم ككتبتها معاً ؟

أنها البناية تماماً كما تركتها منذ زمن مضى وقد أصبحت أكثر بؤساً و تلك الرائحة التي تتسرب من شققها المغلقة علي نعاسها ، روائح للطعام مختلطة بأفئاس البشر . وبدلاً من أن تصعد الدرج وجدت نفسها تهبط مسرعة تحت "بئر السلم" وعلي الدكة الخشبية المفروشة بغطاء ممزق من الصوف الحشن ألقّت بجسدها النحيل .

مجموعة من الجرذان الصغيرة أنتشرت هنا وهناك بعدما تفرقت خوفاً من وقع الريكة التي صنعتها واحتلالها لفراسهم . أنكمشت علي نفسها أكثر وقد سندت جسدها علي الجدار وضمت ركبتيها علي بطنها وعقدت ذراعيها حولها مُنكسة الرأس لأسفل . تساءلت منذ العام بالتحديد كان مجرد أسم الجرذ يصيبها بالخوف والأشمئزاز الآن وها هي تراهم أمامها مباشرة يذهبون ويجثون حولها ولم ترتجف حتي . ربما لأنها كانت منذ عدة أشهر تشبههم تحيا حياتهم ، تركض مثلهم وتحشي وتنبهل وتنتحب لينيجها الله من هذا الكائن البشري العملاق ضخم الجثة والذي كلما مر جلب الضوضاء بوقع خطوات حدائه القوية . تأوي ليلاً لحجرها وتفتت علي فتات الطعام . حتى ملامحها الجميلة تحولت لتشبه ملامح جرد مذعور . العيون جاحظة ، زائغة ، ملمس رأسها الحليقة يشبه ملمس جسده . ولكن هل الجرذ يملك وشماً هل يحظي بشرف أن ينحت له وشماً حول ذراعه هذا الوشم هو هويتها الجديدة في عالم الجرذان هناك حيث لا توجد أسماء بلا أرقام .

تذكرت كيف كانت أنيقة وجميلة وهي تهبط الدرج في ذلك اليوم البعيد كانت لا تزال تخطو خطواتها الأولى في عالم الأنوثة ولكنها كانت تخطوها بثقة يحتمها عليها جبالها . ها هي مريبتها الايطالية تقبض علي يدها بكف وبالكف الأخرى تشد وثاقها علي أخيها الأصغر سناً . بينما قبيلات جارتهم ديمونة تُطرق وهي تنهال علي خد أحمأ الشاحب . يسبقهم المحالون بالحقائب والصناديق الكبيرة المحملة بسنوات عمرهم . جاء قرار أبيها بترك البلد والسفر لفرنسا بعدما اغراه أحد أصدقائه برغد العيش هناك وبأنه كخبير في تجارة القماش يمكنه هناك الحصول علي حرير "ديجون" بأسعار رخيصة وتوزيعه في أنحاء العالم بأسعار باهظة . ودعت صديقاتها بمدرسة ليسييه فرانسيس باب اللوق بالكثير من الدموع وعلي وعد بأنها ستكتب لهن غادرت مدرستها . وطوال الطريق من القاهرة للإسكندرية لاستقلال الباخرة لم يتفوه أحد بكلمة ، كان الصمت والحزن يجمان على السيارة . أنتبهت من ذكرياتها على صوت لوقع اقدام على الدرج . اقدم أعتادت الذهاب للمسجد لأداء فروضها ، والأُن هي ذاهبة لأداء صلاة الفجر وتأكدت انها للجار في الدور الأخير من البناية فهي لم تراه يوماً سوى وهو في طريقه لهنالك ومسبحته الخشبية الطويلة بيده . أنكمشت علي نفسها أكثر وأكثر حتي غادر .

أستسلمت لغفوة سريعة لتستيقظ على الجلبة التي أحدثها بائع الحليب الذي يأتي يوميًا في السادسة صباحًا ومعه دلو وسطل معدني ليزن به الحليب كان صوته أجش وهو يصيح " حليب يا لبن " ابتسمت عندما تذكرت كيف كانت طفلة صغيرة تقف من خلف النافذة لتراقب بائع الحليب وهو يصطحب معه جاموسته وماعز صغيرة ويقف في الشارع الخلفي الذي تطل عليه نافذة بيتها ويقوم بجلبها أمام عيون زبائنه الذين يلتفتون حوله بدوراقهم المعدنية . لفحة هواء باردة عبرت مسرعة فزدادتها أنكاشًا على نفسها وأخذت تشد من جونلتها الصوفية القصيرة التي كانت ترتديها لتخفي بها ركبتيها المرتجفتين من البرد ، فكرت لحظة أن تضع الغطاء الصوفي فوقها وتدثر به ولكن رأته العفنة منعتها من ذلك .

تساءلت إلى متي ستمكث هنا ؟ لقد حان موعد أستيقاظ الحالة ديدمونة ، مجرد التفكير في طرق باب تلك السيدة كان يصيبها بالخوف والحزن معًا فهي لم تحبها يوماً بل في المرات القليلة التي كانت تطرق بابها لأمر ملح تبعثها أمها فيه كانت ترفض أن تدخل الشقة وتصر أن تنتظرها على عتبة البيت ، العتمة التي تتسرب من الداخل وبؤس فقره ومظهر السيدة كل ذلك كان كفيلاً بأن يجعلها تخشى المرور للداخل وبخاصة عندما تسمع ديبب قباقيها الخشبي وهي تصيح بصوت أجش لتسأل " من بالباب ؟ " ولكن كيف الهروب من قدر كان قد قُدر لها مسبقاً ؟

أخيراً كانت قد قررت الصعود ووقت تهندم من مظهرها ولكن أى مظهر هذا ؟ ذلك المعطف الصوفي بكاروهات الأحمر القائمة مع الأخضر ومن أسفل أرتدت جونلة صوفية مقلمة ، كما أن جواربها البيضاء كان قد أكلح لونها وتحول للرمادي .

__ يا الله ها أنا أشبه البهلوان في هذه الملابس !!!

ويدون أن تدري وجدت نفسها تربت على شعرها في محاولة منها لترتيبه ولكن أين هو شعرها ؟ فلم يكن سوى شعر نبتت جذوره فقط وتأبي أن تطول وكأنها ترفض أن تلمسها مرة أخرى يد تلك السيدة المتوحشة التي جمعتن في طابور طويل ذلك اليوم وجردت من شعورهن الواحدة تلو الأخرى بدون حتي أن تتفوه بكلمة وتبتلك النظرة الباردة والجامدة ، ثم قامت بأزاحتن بمنتهي التسوة حارسة بمحاذاتها والتي تمسك شفرة حلاقة حادة وتقضي على البقية الباقية من شعورهن ليصبحن كُهن ذوات رعوس حلقة .

حدثت نفسها قائلة :

__ ولكن هل ستتعرف على خالة ديدمونة وهل ستوافق على إقامتي عندها وماذا على أن أقول لها ؟

كانت تحدث نفسها وهي تصعد الدرج :

__ ديدمونة ياله من أسم قبيح يشبهها كثيراً .

الطابق الثاني وجدت نفسها تقف متمسرة أمام باب الشقة الخشبي، بشراسته الزجاجية، كان باب أمن ينغلق على أسرارهم لم يش يوماً بأحزانهم أو بأفراحهم. كم مرة خطت عنتبه وهي متوهجة متعطرة متأنقة؟ كم مرة وجدت نفسها تنزلق إلى الداخل وينغلق سريعاً وراءها ليقوم بحمايتها من غدر الزمان؟

كيف فكر أبوها ذات يوم أن يبيع الشقة ولم يسمع لتوسلات أمها عندما أثنته عن فعلته تلك، ولكنه أصرَّ على ذلك فقد كان يريد أن يقطع كل شيء يربطه بهذه البلاد عكس أمها التي كانت حقيبتها دوماً معدة للرجوع لمصر مجدداً، وإذا بها وهي متمسرة في أفكارها أمام الباب، يُفتح على رجل طويل القامة عريض المنكبين يرتدى بذلة بنية وطربوشاً أحمر، فوجيء الرجل بها وأنتابه خوف وقلق لدرجة أنه أغلق الباب سريعاً في حركة لا إرداية منه ثم قام بفتحه مرة أخرى وأخذ يتأملها ثم تتم قائلًا

__ أستغفر الله العظيم ما هذه الحلقة في الصباح هل أنتِ رجل أم امرأة ثم لماذا تقفين أمام الباب هكذا؟

لاحقها الرجل بالأسئلة ولشدة ارتباكها أجابت بصوت مرتجف:

__ طاب صباحك سيدي. لا لا أنا لست رجل أنا فتاة، وأحضر في زيارة لخالتي ديدمونة ولكن مر الكثير من الزمن لم أحضر إلي هنا لذلك، لم أتأكد جيداً من الطابق.

أجابها الرجل وهو لا يزال يتأملها:

__ ديدمونة... هكذا إذاً لا أستغرب. أنها في الشقة التي تعلونا تماماً.

__ شكراً سيدي.

قالتها وركضت على الدرج بينما علقت عينه بالطرف الأخير من ثيابها.

في الطابق الأعلى وقفت أمام شقة ديدمونة وطرقت على الشراعة الزجاجية طرقة ثم أخرى. لم يمر الكثير من الوقت حتى جاءها صوت أحش وبخطوات كانت تقترب حتى توقفت أمام الباب مباشرة:

__ من بالباب؟

__ أنا خالتي ديدمونة.

__ أنتِ من؟

__ أنا إيفا.

__ إيفا من؟

__ إيفا خالتي "إيفلين" ابنة جارتك إيديث التي كانت تسكن في الطابق الأسفل .

كررت السيدة الأسماء بصوت يشوبه الحذر:

__ إيفلين و إيديث !

__ نعم .

ثم فتحت الشراعة الزجاجية ويعيون لم تنزل ناعسة ظلت تتأملها من خلف قضبان الحديد المشغول .

__ من أنتِ أيتها اللصة الكاذبة ؟

__ أنا لست بلصة بحق الرب ،أنا إيفلين .

__ ولكن تلك ليست هيئة إيفلين الفتاة الجميلة الأنيقة من أنتِ وماذا تريدین ؟

هل أخطأت عندما فكرت في أن تلك السيدة هي الأكثر أماناً في مصر لتلجأ إليها , فعلاقتها محدودة بل تكاد تكون منعدمة ولست بكثيرة الثثرة .

يسكن في مصر أكثر من ثمانين ألف يهودي من جميع الطبقات بدءاً من الطبقة الأرستقراطية التي تقطن فيلات وقصور الزمالك وجاردن سيتي ، والطبقة الأكثر فقراً التي تقطن حارة اليهود وفيما بينها كانت تلك الطبقة المتوسطة التي تنحدر منها . كانت تعلم أن الكثير من الأصدقاء والأصدقاء بإمكانهم أستقبالها والترحيب بها ولكنها كانت تخشى من الثروة والفضول والأسئلة التي لا ولن تنتهي ، كان من الصعب أن تخبرهم بأنها هاربة من معسكر نازي ستقادم منه بعد حين محرقة أعدت خصيصاً للتخلص من اليهود، ذلك الجنس البشري الذي يرى هتلر أنه يجب التخلص منه على الفور وهي بعد لم تفهم لماذا ؟ هل تلك الخدعة التي سكبها في أذن العالم قد أنطلت عليه بأن ذلك الجنس لا يرتقي لجنس بشري ويجب التخلص منه فوراً .

وهل كان بإمكانها أن تصرح بذلك لأحد من المعارف ، فهي قد نفذت بأعجوبة وتعلم جيداً أن هرب يهودي من معسكر نازي 3* سيقدم الدنيا ويقعدها خوفاً على الأسرار التي قد تعرف .

1: كان يسكن بمصر عشرين الف يهودى فى النصف الأول من القرن العشرين

تلك الأسرار التي قد تقود ذلك الرجل للمشتقة وتقديمه كجرم حرب ولكن كيف وبمجرد ذكر اسمه كان كافي بأن ترتجف الأجساد خوفاً ورعباً ؟ لذلك كان هناك الكثير من الاحتمالات عند اكتشاف هروبها والبحث في ملفها أن يعرفوا أنها من مواليد القاهرة وغادرتها عن عمر الخمسة عشر عاماً لفرنسا ومن السهل التخمين بأنها قد فرت لمصر . لم تكن هي اليهودية الوحيدة التي فرت لمصر فكان أكثر يهود أوروبا يفرون لمصر لما تتمتع به بسمعة طيبة في معيشة اليهود بها . هذا بالإضافة أنها الأرض التي مستها أقدام أنبياء اليهود فهي بالنسبة لهم أرضاً آمنة ، وكان الأكثر منهم رعباً من تعقب الجيش النازي لهم يفرون للجنوب الأفريقي .

لم تكن مصر بمنأى عن الحرب فصر تحت الحكم الإنجليزي أحد دول التحالف ضد هتلر والأسطول الإنجليزي بالبحر المتوسط متمركز في مدينة الإسكندرية ، ومؤكد يوجد الكثير من التنظيمات السرية النازية بمصر ، خاصة أن مصر يقطن بها الكثير من اليهود الذين أمر " هتلر " بتعقبهم للقضاء عليهم ، كما لو أنهم مجموعة ضالة من الجردان نفذت من أحد الحجور لهذا العالم في غفلة منهم .

أجابتها السيدة بعيون متشككة :

__ ولكن هذه ليست هيئة إيفلين تلك الفتاة الأنيقة الجميلة !

__ لقد حدثت أمور كبيرة مؤخراً بفرنسا ألم تسمعي بأمر الحرب ؟

__ إذن أقتري حتى أري عيونك . فأننا أتذكر اللون الرمادي لعيون إيفلين الذي كان يشبه كثيراً لون عيون مشمش قطي .

أقتريت إيفا من القضبان الحديدية للشراعة ونظرت لها السيدة بكثير من التمعن ، وأخيراً خلعت من عنقها ذلك المفتاح المعدني الكبير الذي يتدلي من حبل مجدول ويقف تماماً على مقدمة صدرها ثم أدراته في الكالون وتكة ثم اثنتين أعقبتهما أخرى وقامت بفتح الباب بقدر يسمح بجسد نحيل للفتاة ليبر .

تأملتها لفترة من الوقت ثم توقفت عند حذاءها الذى يشبه الأحذية العسكرية وأبتسمت فى خبث وكأن هذا الشيء هو الوحيد الذى أستوقفها من مظهر الفتاة .

أخذت تتجول بعينها فى أنحاء المكان لتكتشف فقر الأثاث ورداءة ذوقه ، كان عبارة عن طاولة مستطيلة أصطفت حولها عدد من الكراسي الخرزانية ، وسجاد أحمر أندثرت نقوشه منذ الزمن ، فى الجانب الآخر وضع طقم للجلوس أكل الدهر عليه وشرب ولا يصلح سوى أن يمنح لبائع الروباكيا هذا إذا قبل الهدية .السقف عالى بما فيه الكفاية يتدلي منه خيط من السلك ينتهى بلمبة توزع إضاءة خافتة فى أرجاء المكان . الغبار كما أنحاء البيت ورائحة عطنة تفوح منه، فمن الواضح أن النوافذ لم تفتح منذ الأمد . ونجمة دواد تعلق كالعادة على مرأى البصر .

أشارت السيدة لها بالجلوس على أحد المقاعد و ما أن جلست حتى سقط بها للأسفل .ألقت إيفا نظرة سريعة على هيئة السيدة التى يصعب معها تحديد عمرها . ينسدل شعرها الأبيض المختلط بالأسود على ظهرها بينما تربط مقدمته بمنديل من البقطة البيضاء ، ترتدي قميص نوها من الكستور وتضع فى قدميها زوجين من الجوارب الصوفية . تدل بكرة الكرة الصوفية وأبرة الحياكة التى وضعتها فوق المنضدة أنها هي التى قامت بغزلها فى زمن ما.

— أحكي لي ما الذى حدث لك وإين هم أهلك هل حضروا معك ؟

عُقد لسانها عن الكلام بماذا كان عليها أن تجربها !!

انتظرت السيدة برهة من الوقت ثم قالت :

— ربما قد تعرضتِ لأمر مؤسف حقاً ليبدل مظهرك من تلك الفتاة الجميلة لما أنتِ عليه الآن ولكن يجب أن أعرف الحقيقة حتى أستطيع

مساعدتك أنا للحين لم أتأكد بعد أنكِ إيفلين !

ثم صمتت ودخلت فى تفكير عميق لتتطرق بعدها قائلة :

— إذا كنتِ حقاً إيفلين أخبريني عن لون المعطف الصوفي الذى قمت بغزله لأملك لترتيديه فى أحد الشتاءات الباردة ؟

بينما الفتاة أخذت تحدث نفسها قائلة :

— ما أمر تلك المرأة وأى معطف صوفي هذا الذى تتحدث عنه ، لقد مر أكثر من عشر سنوات على مغادرتنا البلاد فكيف لى بالتذكر!

ولكن أمها كانت مصابة بالحساسية من الصوف فهى تتذكر جيداً أنها لم ترتده سوى مرة واحدة فى ذلك اليوم العاصف، عندما ذهبت

للتبضع وما أن دخلت للبيت كانت قد خلعتة وألقت به أرضاً وبشرتها قد أكنست باللون الأحمر .

— كان بلون السماء الصافية .

— تماماً هذا لونه ، ربما لا تستطيعين الحديث الآن سأمنحك فرصة لبعض الوقت.

ثم بحركة بطيئة قامت من المقعد وأتجهت للمطبخ وهي تقول :

__ سأعد طعام الإفطار .

هي التي كانت تتجاهل النظر في المرآة حتى لا تقع صاعقة المفاجأة عليها, كيف لها أن تمتع نفسها من النظر في المرآة الكبيرة للوقوف الخشبي الذي يشغل الصالة ، لذلك وجدت نفسها تقف متسمرة أمام ما ألت إليه نفسها ، رأس حليقة وعيون يحدها السواد وجسد نحيل . حاولت أن تبتسم كما عادت دائماً كلما نظرت في مرآة لتضيف مظهر أكثر جلالاً ولكن من أين للجبال أن يأتي !! ؟

وضعت السيدة طبقين بكل منهما قطعة من الجبن الأبيض وزيتونة وكويين من الفخار ؟ ، سكبت فيها الحليب المغلي ودعتها للفطور .

ضحكت إيفلين عندما تذكرت أنها كانت تقضي على أكثر من عشر زيتونات دفعة واحدة الآن لا بأس بزيتونة!! وضعت الزيتونة في فمها واخذت في عصرها لأمتصاص سائلها ثم أخذت في قضمها واخيراً لم يتبق غير البذرة فأخذت تلوكها بفمها ببطء ذهاباً وإياباً, فنظرت لها السيدة يا شمئزاز .

__ عفواً فأنا أحب الزيتون كثيراً .

__ نعم كان من السهل ملاحظة ذلك . ولكن لا تنسى أن البلد تمر بأزمة تموينية والحصول على التموين يحدث بأعجوبة لذلك من الجيد أن نقلل كميات الطعام .

ثم وبلهجة جادة :

__ أشربي الحليب لقد برد الآن .

__ عذراً ، لا أحبه .

__ ولكني سكبته وحليته بالسكر ومن المستحيل أن أسكبه في الإناء مرة أخرى .

وعلى مضض أخذت ترشف من الحليب .

بعد انتهاء الإفطار طلبت منها السيدة أن تنظف المائدة . إيفلين التي لم تزح طبقة من مكانه ولم تجلب لنفسها كوب من الماء يوماً فقد كانت دوماً محاطة بفريق من الخدم لخدمتها ليل نهار ولكن الآن الأمور قد تبدلت وعليها أن تعلم ذلك جيداً لذلك أمتثلت لأوامر السيدة بكل أدب .

__ أنا بحاجة للأغتسال فمئذ أكثر من ثلاثة أسابيع لم أتحمم .

رددت السيدة الكلمات في ذهول :

__ ثلاثة أسابيع !

__ نعم ...كيف كان لي لأحصل على ترف الأستحمام وأنا أختبيء بقبو الخلفات بالسفينة مع مجموعة كبيرة من اليهود الفارين .

__ حسناً يمكنك نقل "وابور الجاز" من المطبخ للحمام وأشعاليه و وضع السطل النحاسي فوقه حتى يسخن الماء ولكن أحرصى على غلقه مباشرة بعد أن يسخن الماء لأن هناك أزمة فى الكيروسين هذه الأيام.

وكأنه لم تسمع شيئاً مما تفوهت به السيدة سوى :

__ وابوار الجاز وسطل معدنى !!!

__ نعم وما فى ذلك ؟

__ ولكنى أجمل أشعالي وابور الجاز .

__ حسناً... تعالى معى لأريك طريقة أشعاليه حتى يتسى لك بعد ذلك أشعاليه بمفردك.

بعد أن أشعلت السيدة الوابور ماركة "بريموس" تأكدت إيفاً أنها لن تستطيع يوماً أشعاليه فطريقة أشعاليه صعبة وخاصة رائحة الكيروسين التى كانت تكرهها بالأضافة لصوت الفرقة التى يحدثها .

وضعت السيدة الموقد بالحمام وفوقه السطل النحاسي ودلو صغير معدنى وأمرتها أن تجفف الحمام بعد الأستحمام . أستغربت إيفاً لعدم وجود مغطس فى الحمام وليس هناك مواسير تحمل إليها الماء الساخن كحمامها الباريسي الفاخر . كان سقف الحمام متهاك يكاد يسقط فوق رأسها , والأرضية من بلاطات أكلحت لونها . نظرت حولها تبحث عن تواليت لتقضى حاجتها فلم تجد سوى حفرة محاطة ببلاطات عريضة على الجانبين.

__ يا الله هل مازال أحداً يقضى حاجته فى مثل تلك المراحيض ما أمر تلك السيدة ! ؟

وفى هذا الحمام المتواضع وجدت إيفاً نفسها تتأقلم مع كل الظروف الجديدة . ربما لم يكن هذا هو الحمام الذى كانت تحلم بأن تأخذه بعد كل تلك الأيام الصعبة التى مرت بها وكل تلك الروائح الكريهة التى علققت بجسدها ولكن على أى حال كان أرحم من حمام المعسكر النازي ورايت السيدة الباب وناولتها منشفة نظيفة وجلباب من الكستور خاص بها وطلبت منها أن تقوم بغسيل ملابسها المتسخة .

فى المساء وبينما هما تجلسان فى مقابلة بعضها الأخرى.كانت السيدة ديدو كما طلبت من إيفاً أن تطلق عليها- تغزل شالاً من الصوف تحرك الإبرتين بيد عصبية وتتدلى البكرة الصوفية على الأرض مستقرة بين قدميها ، بينما كانت إيفالين تبدو ضئيلة الحجم داخل الجلباب الكستور الخاص بالسيدة ديدو تخفى أكمامه الطويلة يديها وتجلس متألمة فى السقف تفكر فى مصير أهلها الذى كانت تعلمه تماماً ولكنها كانت تطمع فى معجزة من السماء تنقذهم من ذلك المصير المرعب .

__ هل من عادتك قلة الحديث أم أنك لا تردىن الحديث معى ؟

__ أبداً خالة ديدومونة أقصد ديدو ولكنك لم توجهين لى آياً من الأسئلة كما أنى وجدتكم مشغولة بالحياكة.

__ هيا أحضري السبرتاية والكنكة لنصنع لنا فنجانين من القهوة وتقصي على قصتك ؟

لم يكن من عادة إيفلين شرب القهوة في المساء ، ولكنها خشيت أن ترفض فتصب تلك السيدة جام غضبها عليها .

لُقِّمَت السيدة القهوة وأخذت في تقليب المحتويات بالمعلقة الذهبية الطويلة وكسل شديد نضج البن وقامت بصبه في فنجانين من الصيني المنقوش عليها مشهد غرامى لرميو وجبوليت . فاحت رائحة جميلة في أنحاء المكان .

__ هيا قصي لى قصتك .

قالتها ديدو وهى ترشف من القهوة .

وكان رائحة القهوة قد أنعشت الذاكرة فربعت إيفا ساقبها على المقعد الوثير ، وحضنت فى يدها فنجان قهوتها وأستعدت لسرد حديث قد يطول .

جاء سفرنا لفرنسا لرغبة أبي لتحقيق طموحاته في الثراء السريع ، كثيراً كنت أسمع أمي تتنهد عن هذا القرار ولكنه كان متشبث الرأي كطفل صغير ، وخاصة بعدما تفرقوا أخواته في شتى الدول الأوروبية ، بل والأكثر من ذلك أنه سافر نازعاً وراءه أي أثر له في تلك البلاد فكل أملاكه كان قد باعها حتى الشقة التي طلبت منه أمي أن يبقى عليها تحسباً لأي ظروف وحتى تكون مأوى لها إذا فكرت يوماً القدوم لمصر لقضاء عطلة مع الأهل والأصدقاء ولكنه رفض وبشدة وسخر منها قائلاً :

__ سيكون معك من الأموال وقتها ، ما يتيح لك بالإقامة بفندق شبرد أو الهيلتون .

غادرنا البلاد أنا وأمي بالكثير من الدموع والذكريات بينما كنا أخي فيان وأبي يملؤهما أمل وتفاؤل ولم يعيرا للماضي أنتباهاً ، قطعنا المسافة من القاهرة للإسكندرية دون أن يتفوه أحد بكلمة كان الحزن يحث على السيارة الأجرة التي أستقللناها. أتذكر كيف كنت أدير رأسي في مقابلة الزجاج الخلفي للنافذة ، أودع الشارع والصبية الصغار من اطفال الحي الذين كانوا يركضون وراء السيارة يلوحون لنا بكفوفهم الصغيرة . توقفت عن الحديث عندما تذكرت قامة فارعة للشباب الذي يقطن في المنزل المواجه لها والذي كان يبادلها النظرات بدون التفوه بكلمة ، خرج هو أيضاً في وداعها لكنه وقف بمحاذاة الرصيف يلوح لها في حزن ، تراه أين هو الآن ؟

وأخيراً أستقللنا الباخرة التي سوف تنقلنا لباريس . لم يغادر الحزن أمي بل ظل مرابطاً لها حتى أنها طوال الرحلة لم تغادر قهرتها إلا لتناول وجبات الطعام ، بينما تخلت أنا عن حزني وذكرياتي وبدأت في التخيل للحياة الجديدة التي في طريقي إليها كنت كثيراً ما سمعت عن باريس من رحلات صديقاتي المتكررة لها وكيف أنها مدينة الفن والجمال ، لذلك عقدت الذكريات الحزينة المحتشدة في ربطة وخزنتها بعيداً في زاوية ما من الذاكرة وأفرغت مساحة كافية لبلد ساحرة في طريقي إليه . أما عن أبي وأخي فكان الأمل يملؤهما بما فيه الكفاية .

غادرنا الباخرة وأستقللنا القطار لمدينة باريس وهناك لم تكن قد أستقررنا ، بعض لذلك كانت أقامتنا في فندق متواضع في شارع "فابورج بواسونيار " وهي منطقة يكثر بها اليهود . دُبر صديق لأبي محل ليتاجر فيه ببيع الأقمشة في زقاق ضيق وشهير ببيع الأقمشة والأزوار وتحتشد فيه البوتيكات الصغيرة لبيع الفراء بجميع أشكاله وأنواعه . نجحت تجارة أبي و أنتقلنا بعدها للإقامة في العيش بشقة في المنطقة السادسة عشر وهي من أرقى مناطق باريس و قبل أن تمر أقامتنا بها على العام ، كنا قد أنتقلنا للسكن في فيلا خاصة في حي سان جيرمان الأكثر رفئاً و يجاورنا في السكن أعلى طبقات باريس أرسنقراطية .

مع الوقت سطع نجم أبي في تجارة الأقمشة وخاصة أنه كان على علاقات جيدة بتجار الأقمشة في الشرق الأوسط ، فكان يستورد منهم الديباج والخمّل والأقمشة الغريبة والغير معروفة والتي سال لها لعاب الفرنسيين . سريعاً قام بشراء أكثر من متجر في أنحاء باريس التجارية الشهيرة وذاع صيت محاله ولم يكنف بذلك بل أدخل في هذه المجال كل ما يلزم الحياكة من خلى و مشغولات . وكان المورد الأول لأكثر مصممي أزياء باريس شهرة " لوماندى " و " كوكو شانيل *1 التي أرتبطت مع أبي بصداقة عميقة وكانت من أحد أسباب شهرته في تلك البلاد . لم يتوقف طموح أبي على ذلك ، بل أفتتح مصنع لصناعة أوفريول العاملين في المصانع الحكومية ومع الوقت أحتكر صناعة هذا النوع من الملابس . وبذلك كان من السهل أن يتغلغل داخل الأوساط الفرنسية الراقية ، ومنها للمجتمع السياسي والجلسات السرية التي تعقد بين كبار رجال الدولة والصناعة والتجارة ، لذلك وبعد فترة قصيرة ونظراً لأنشغال أبي بأعماله كنت قليلاً ما المحه ، وقد كان يحدث ذلك أثناء مروره

في الردهة مساءً أو تلويحي له صباحاً من خلف النافذة الزجاجية وهو يركوب السيارة السوداء الكبيرة التي يقف سائقها في بذلته الرسمية ويقوم بفتح بابها له بالكثير من الاحترام .

أما أي فلم تتبدل ، لم يغيرها المجتمع الفرنسي بحضارته وأناقته فظلت كما هي منغلقة على نفسها . ترتدى الملابس الأكثر بساطة والأقل أناقة حتى أن مدام كوكو شانيل كانت قد أخبرتها بأنه من غير اللائق أن تكون زوجة أشهر تاجر للأقمشة ببلد الأناقة وترتدي مثل تلك الملابس ، ودعتها لزيارة متجرها الجديد لأختيار ما يعجبها من أزياء ولكن أي كعادتها هزت رأسها موافقة ثم تركتها وذهبت . ولم أذكر أنها زارت متجرها قُط ، حتى الفساتين التي أرسلها متجر كوكو شانيل في صباح أحد الأيام الباردة لم أذكر أني رأيتها وقد ارتدت أياً منها يوماً . ربما اكتفت بوضع العطر الذي ينتجه بيت أزياء كوكو شانيل ، سكبت بعضاً من قطراته على عنقها ورسغيا .

أخذت نفس عميقاً ثم أكملت حديثها :

كانت حزينة وحيدة وإنشغال أبي عنها زاد من أحساسها بالوحدة كل ما كانت تصنعه هناك في باريس هو التجول في أنحاء المدينة سيراً على قدميها تحت المطر حتى تصل للمكتبة الوطنية الفرنسية والجلوس هناك بالساعات للقراءة فقد كانت معلمة اللغة الفرنسية بمدرسة قطاوى الخاصة قبل أن ترتبط بالزواج من أبي ، وكانت تعشق القراءة كثيراً . نصحتها أبي بالانضمام لرابطة اليهود التي تعقد ندواتها في أيام السبت بعد الصلاة ، حيث تناقش هناك مشاكل اليهود في أنحاء العالم وخاصة فرنسا والعمل على وحدتهم واتحادهم ، ربما أنصاعت لكلامه وذهبت مرة أو اثنتين ولكنها لم تذهب مجدداً . كانت ترى أن يهود أوروبا الاشكناز*1 يختلفوا اختلاف كلي عن يهود الشرق من السفارديم*2 في كل شيء فلم يكونوا على هذا القدر من التدين والتمسك باعتقادهم الدينية . كل همهم أن يتوحد اليهود ويكونوا أكثر تماسكاً أم تلك الاختلافات الجوهريّة من يهودي قادم من مصر أو من سوريا أو المانيا فلا يهتم وقتها . وكان أكثر شيء يدعو لغيظ أبي منهم تلك النظرة المحترقة لليهود الشرق فدوماً كانوا يعتقدون بأننا أقل شأناً منهم .

ديدمونة لم يعينها من حديث إيفا شيء ولم يستوقفها منه سوى تلك العبارة الأخيرة " اقل شأناً منهم " لذلك قطعت حديثها قائلة :

__ لذلك سنظل دوماً مشتتين في أنحاء الأرض ولن نجتمع أبداً .

كانت أي كثيراً ما تزوي في ركن ما من حياتها السابقة ، حيث تستعيد ذكريات الماضي ولم تكن لتمل من مشاهدة اليوم الصور لها هي وأهلها في مصر .

__ مسكينة أمك فهي كانت دوماً مطيعة وهادئة حتى بالكاد كنت أستطيع أن أسمع صوتها وهي تتحدث بينما صوت أبيك كان يَصُم الأذان .

__ نعم كانت أي مختلفة عنه تماماً وربما لم تحبه يوماً . كان هذا واضح في نظرة الحزن التي بعينها ولكنها لم تستطع يوماً أن تعبر عن ذلك أو حتي تعترض على شيء .

دمعة ساخنة تسللت من عين إيفا وببطء شقت طريقها على وجنتيها ، عندما تذكرت أي قدر مؤلم عاشته أمها ، وأي نهاية أكثر المآ كانت من نصيبها .

في محاولة من ديديو لتخرج إيفا من الذكرى المريرة أبتسمت قائلة :

__ وأنت ماذا عنكِ أعتقد أنكِ جعلت كل شباب باريس يقعون في غرامك ؟

ربما كانت تحاول أن تخرجها من أحزانها ولكن كان لسؤالها وقع غير ذلك تماماً عليها ، لأنها فتحت أبواب لذكريات أكثر ألماً فأخذها ذلك السؤال هناك على شاطئ الريفيرا ، ذات صيف عندما كانت تعتلى المنصة بعدما أذاعوا أسمها في المذياع لحصولها على لقب ملكة جمال الشاطيء حيث كانت الفتاة الأكثر أناقة وجمالاً في المجتمع الباريسي . في صيف 1940 كانت تعتلى المنصة بكثير من علياء وهي ترتدي مايوه الجيرسيه المطاطي وضعت عليه علامة الصنع الخاصة بمتجر أزياء كوكو شانيل . كانت ملامحها مختلفة كثيراً عن الفرنسيات بشرتها ذهبية اللون وعيناها مزيج من الرمادي والأخضر ، بينما شعرها فاحم السواد ، وفي قوامها الممتليء شيء من أنوثة تشي بها شرقيتها التي تضج بتضاريس وحرارة هذه البلاد ، لذلك كان من السهل ملاحظة أنها غير فرنسية ومن الصعب أيضاً التكهن بهويتها ولكن ألم يكتب في خانة الجنسية " بلا هوية " ؟!

عندما توقفت أمام تلك الخانة ذات يوم ألتها الكلمة، بالرغم أنها لم تكن بسن كافية لتدرك بعد ماذا تعنى بلا هوية، ولكنها وهي شديدة الذكاء والاهتمام بالتفاصيل لم تمر عليها هذه الجملة مرور الكرام لذلك عندما وزع أيتها على كل فرد من أفراد أسرتها جواز السفر الخاص به في ذلك اليوم قبيل سفرهم لفرنسا بعدة أيام هي الوحيدة التي سألته .

__ ولكن أي... ما الذي تعنيه (بلا هوية) أولسنا مصريين ؟ ألم اولد في ذلك البلد وأعيش وأحي بها !! ؟

عقدت المفاجأة لسان أيتها الذي لم يكن ليتصور أن تلك الكلمة ربما تسوقف أحد من أبنائه، ولكنه تدارك الموقف سريعاً قائلاً :

__ لا عليك ... سنذهب إلى فرنسا وهناك سنتدبر أمرنا وسنحصل على الهوية الفرنسية و وقتها سننتصر على من رفض أن يمنحنا أتباءنا لهذه الأرض ، ها قد رأيتِ بنفسك لماذا أصر علي أن أترك هذه البلاد بلا رجعة .

أخرجتها ديدو من أفكارها عندما سألتها :

__ هل فلحتِ في أن تجعلهم يقعون في غرامك ؟

__ لم أكن أسعى لأجعل أحد يقع في غرامي وحتى لم أكن أبالي ، في الوقت الذي ذهب كل من أفراد عائلتي للدرجة القصوي في كل شيء سواء في الحزن أو الفرح في التمتع بالحياة الجديدة أو العيش في أجتزار ذكريات الماضي . كنت على عكس الجميع معتدلة في كل شيء، لم أذهب لمنتهي أي حالة من الحالات ، لم أحزن وأنغلق على نفسي كما أمي ، ولم أطلق في طرقات الحياة الجديدة كأخي فايان الذي كان يقضي وقته صباحاً في الذهاب للشواطيء والفنادق لاحتساء قهوته واللهو ، ومساءً في علب الليل والحانات وأصبحت طاولة القمار هي كل ما يطمح إليه بدءاً من العجلة الدوارة إلى الطاولة الكبيرة الخضراء ، وساعده في ذلك طبعاً الأموال التي كان أبي يغدق بها عليه ولا يسأله أبداً فيما كان ينفقها ، بينما أصبح أبي شاغله الشاغل هو الواجحة الاجتماعية المشرفة والتي لم يكن ليوفرها له سوى الثراء السريع . تفككت أسرتنا الصغيرة المترابطة ولم تعد تجمعنا طاولة طعام واحدة حتى مائدة السبت التي كانت أمي تتفنن في صنع أصنافها الخاصة، وتنتظر رجوع أبي وأخي من المعبد بعد أداء صلاة السبت ونحن نجلس لندعو الله أن ينهى أبي صلاة الطعام بسرعة حتى يتثنى لنا أن نلتهم الطعام الشههي اصبحنا لا نجتمع على مائدة الطعام سوى في هذه الأحتفالات التي ندعو إليها أو تلك التي يقيمها أبي ويدعو فيها الكثير من الشخصيات

البارزة في المجتمع . كنت عندما أهبط درجات السلم الرخامي وأجد الخدم يعملون على قدم وساق في نظافة وتنظيم المكان ، ترص إيزابيل الكاسات الكرسالية أمامها على المائدة الخشبية المستديرة وتحصر على تلميعها بمنشفة خاصة بها الواحدة تلو الأخرى . إيزابيل اختارتها كبيرة الخدم في المنزل مخصوص للعمل هذا الشيء بعدما أختبرت نحافة ورشاقة أصابعها التي تولوج داخل الكاسات بسهولة وخفة لنظافتها .

__ دعينا من إيزابيل وأحكي لي ماذا كنت تفعلين بحياتك؟

__ فور استقرارنا بمسكننا الجديد التحقت بمدرسة ليسييه فرانسيه، وأنهيت تعليمي الثانوي بها وحصلت على أعلى الدرجات. قدمت أوراقى هناك فى السوربون لدراسة القانون . كان حلمي الألتحاق بهذه الجامعة التي تعد من أعرق جامعات باريس ،لذلك عملت جاهدة لأصل لذلك الشرف ورغم صعوبة المواد التي تُدرس بها فأني أنهيت تعليمي بتقدير جيد ، وفي الوقت الذي كان نادراً ما تلتحق فتاة لتتلمع القانون كنت أحوز على أعجاب أساتذتي وغيره زملائي الذين كانوا أبأؤهم يعملون فى السلك القانوني فى البلاد ولكني كنت أفوقهم تقدماً ونجاحاً . بالرغم من ذلك كنت أحرص على التمتع بحياتي فكنت أخرج لأحساء القهوة بالحليب والرغوة على وجه فنجانها فى مقاهي "الشانزليه" فى الأيام الباردة أو التجول مع الصديقات والتمتع بأكل الأيس كريم المتلج اللذيذ فى الأمسيات الصيفية . كنت أتبضع من متجر كوكو شانيل وأذهب لاشهر مصففي شعر باريس لذلك كنت محط أنظار الجميع لأني أملك قدر كبير من النجاح الدراسي والثقافي و قدر موازياً له فى الأناقة والجمال .

مرت الأيام سريعاً وتخرجت من الجامعة بتفوق، بينما أخي كان متعثراً فى صفوفه الدراسية بالكاد ينهي عاماً دراسياً ،بعدها يدخل إعادة للمادة المرة تلو الأخرى . كان كل شيء يمر بهدوء ويسر . حتى جاء نأ الحرب وأقلبت حياتنا رأساً على عقب . كل شيء تبدل وخاصة مع الأخبار المؤلمة التي كانت تظالعنا بها الصحف . كان سكان باريس يتروكون شققهم ويذهبون للريف الفرنسي والمناطق النائية التي لن تطولها الحرب وأصبحت بيوتهم موصدة كقبور موتاهم ،بعدها أصبح جراء غارة ليلة واحدة أن تخنفي فيه من الوجود معالم حي وشوارع وطرقات بأكلها ، أصبح الكل يملك ما يكفيه من دعر على حياته وممتلكاته كنا نخطط للنزوح للريف الفرنسي وطلبت أي من أي غلق محلاته ومصانعه مؤقتاً ،ولكنه رفض وبشدة فصانع أبي وقبل الحرب بفترة زمنية قصيرة وأزاء صفقة كان قد أتمها مع رجل حرب فرنسي أوكل له مهمة خياطة ملابس الحرب للجنود الفرنسيين من نوع مختلف من الأقمشة نوع قوي ومتين ، على أن يحصل على أموال طائلة مقابل ذلك . كان "هوجو بوس" هو مصمم الزي الخاص لجنود النازية ، ذلك الزي الذى أشتهر بكأبة مظهره وطلب رجل الحرب من أي شيء شبيه بذلك على أن تقوم بتصميمه مصممة الأزياء الأكثر شهرة فى فرنسا كوكو شانيل .

تورط أبي فى ذلك العمل ،لأنه ببساطة كانت قد وصلت أخباره لقادة النازية وفى الوقت الذى كان يحرص اليهود على أخفاء هويتهم ، فالنازية أعلنت التخلص من ذلك العرق الذى لا يمت للبشرية بصله بل هو أساس خراب العالم. وفى الوقت الذى كنا نخطط فيه للفرار من طريق الحدود الفرنسية السويسرية للذهاب لأبعد بقعة فى العالم وأن كانت جزر واق الواق ، وجدنا أنفسنا فى أحد الصباحات الضبابية يقبض علينا وتقيد ونقلنا فى شاحنة مظلمة مخصصة لنقل الماشية بها عدد كبير من اليهود الفرنسيين الذى لم يمكنهم حظهم العسر من الفرار ، ومن الشاحنة للقطار وبعد أن هبطنا منه ، كان علينا أن نسير لمسافة طويلة حتى نصل للمعسكر الواقع فى الريف البولندي ، وكان من يمرض أو يسقط تعباً و وهناً من تلك الرحلة يضرب فوراً بالرصاص للتخلص منه دون السماح لأحد من أقاربه بمساعدته أو حتى بوداعه الأخير وإلا قد يلتقى نفس المصير . أتذكر مشهد تلك السيدة التي ركعت أرضاً لتطوق جسد أحد أطفالها الذى أنهكه التعب فما كان منهم ألا أن افضوا

في جسدها الضعيف رصاصة اردتها قتيلا ، حذروها بأن تواصل السير ولكنها كانت تجهش بالبكاء وسط بركة دماء أنها ولم تدعن لأوامرهم فالتقوا عدد لا بأس به من الرصاصات لتثقب الجسد وتفضي بالروح وتنتقل للعالم الآخر وهي راكعة فوق جسد طفلها تتوسده.

بعد زفرة ألم :

ونهاية تلك الرحلة المؤلمة معسكر " اوشويتز " النازى الذى يعد من أكبر معسكرات إبادة اليهود

عند معسكر " اوشويتز " توقفت عن الكلام وكان غصة في الحلق منعها أن تستكمل . وأعتذرت للسيدة بأنها غلب عليها النعاس قادتها السيدة للغرفة التى سوف تبيت فيها ليالها . كانت غرفة واسعة بفراشين مرتبين وكأنها على انتظار جسد متعب و روح منهكة لتلقى على أياً منها , كانت الستارة من الحريرية مسدلة على النافذة الخشبية وهناك منضدة للزينة وضعت عليها فرشاة للشعر وبرواز لصورة فتاة جميلة . وفي ليلتها الأولى على هذا الفراش طارد إيفلين الكثير من الكوابيس التى منعها لتتعم بنوم هادىء ومريح .

كان صباحاً شتوياً مشمساً . عندما كانت الحياة تستيقظ في هذا الشارع ، نسوة يفتحن شرفاتهم ويضعن اغطية الفراش في الشمس لتنال قسطاً من التهوية ، وأخريات تقمن بنظافة منازلهن .. اطفال يركضون باتجاه مدراسهم يرتدون المرايل التي فصلت من القماش (الدمور) ويحملون حقائبهم الجلدية فوق ظهورهم ، يقف عم أحمد امام سطل الزيت المغلي يلقي فيه بكرات الفلافل ليقلها في الزيت فتنبعث منها رائحة شهية ، بينما بائع الجرائد ينادي (أقرأ الخبر) ولكن أى خبر هذا وكل الأخبار تشابهت !

ألقت بتحية الصباح على ديدو التي كانت تجلس على مقربة من المذيع الذي يشبه صندوقاً خشبياً كبيراً وتبث منه أخبار الحرب . وغالبا كانت هذه السيدة من الصعب أن تجلس دون أن تشغل يديها بفعل شيئاً ما . فها هي تضع سطل كبير من الخضار أمامها وتقوم بتنظيفه وأعداده للطهي ، ألقت عليها أيقا تحية الصباح .

__ الأظفار مُعد على الطاولة يمكنك صنع كُوب من الشاي لكِ اذا أردت .

جلست لتتناول الطعام الذي كان يشبه أظفار الأمس تقريباً عدا كُوب الحليب المغلي .

__ هل فكرت فيما سوف تفعليه في حياتك ؟

__ لا ليس بعد.. لا أملك أى خطط .

كانت هيئة الفتاة كفيلاً بأن تشي بأى فقر هي ، وبأنها ربما لا تملك الكثير من الأموال بل لا تملك أموال من الأساس ، لذلك لم تجل ديدو وهي السيدة الأكثر حرصاً على أن تجربها :

__ كما تعلمين أنا لا أعمل وليس هناك من معاش أو أرث لى لأعيش منه ، ولولا تلك المنحة التي تمنحني أياها جمعية أوفياء الوصايا العشر الخيرية ، لما كنت أستطيع العيش ، وللأسف تلك المنحة بالكاد تكفي مطلبي ، لذا أنا أسفة أن أخبرتك أنه يجب أن تحصلي على عمل لتتكفلي بإعاشتك ، أما عن إقامتك هنا فاهلاً وسهلاً بك .

__ نعم .. هذا ما أفكر به ، ولكن أحتاج بعضاً من الوقت لأتدبر أمري ، لعلك تتساءلين لماذا أنتِ دون عن الأقرباء والأصدقاء واسعي الثراء التي لجأت اليها ؟

__ نعم... هذا تماماً ما كان يشغل بالي ، ولكني أمتنعت أن أسالك حتي لا تعتقدي أنني لا أرحب بك هنا .

__ أنا فارة من معكسر نازي ومعني الكثير من الأسرار التي تحرص النازية على عدم البوح بها ، وللأسف يتمتع معارفي بجهم للثرثرة بجانب أنهم أول من سستفتش بيوتهم بحثاً عنى هناك ، لذلك فكرت كثيراً ، وأخيراً كان قد وقع أختياري عليك حقاً نحن لا تربطنا علاقة قوية ، ولكنني كنت أتق في ترحيبك بي ، وأتمني أن لا تخبري أحداً بأمرى ايّاً كان ، حتى أسمى يجب أن نستبدله بأخر ، أما عن شكلي فكما ترين لقد تبدل بما فيه الكفاية عن إيفلين التي تركت مصر وهي مازالت في الخامسة عشر والأن هي في الخامسة والعشرين .

فجأة وبدون سابق أنذار سألتها:

__ متى حلقت رأسك ؟

__ منذ ما يزيد عن ثلاثة اشهر .

__ ولماذا لم ينمو شعرك ؟ فقد مر وقت كافٍ لينمو الشعر مجددًا ؟

__ لا أعلم ولكن هل يضايك منظري هكذا ؟

__ لا .. لا يضايقي ، ولكن مظهره هكذا سيكون مدعاة للشك والفضول ، فيجب أن تطوحي رأسك بإيشارب أو ترتدي قبعة أو شعراً مستعار .

مر الأسبوع الأول سريعاً في هذه البلاد ولم تخطُ قدم إيفا الطريق ، ولكن على أى حال كانت قد أستعدت بعض عافيتها، فالهالات السوداء التى كانت حول عينيها قد أختفت، ولون بشرتها الشاحب قد تورد مجدداً .

لم تكن السيدة ديدو بمثل ذلك السوء الذى كانت تعتقده عنها ، فهى تملك من الحنان الكثير . كانت تهتم بها وترعاها لولا حرصها الشديد في الأفق كان لا يعيها شيء ، ولكن الحرص الشديد أنه من عادة اليهود جميعهم وخاصة يهود الشرق فما العيب إذن ؟

كان هناك سر ما وراء تلك السيدة التى كانت من عاداتها يوميًا في الساعة مساءً ، أن تتألق وتتعطر وتصف شعرها وتجلس على البيانو الأسود الموجود بجرة الصالون تلك الحجرة التى وضع بها طقم صالون مذهب ، وفي إحد الزوايا وضع بيانو أنيق الماني الصنع هو أخم ما يوجد في المنزل ، لكأن وجوده هنا بين كل ما يحتويه المنزل من كراكيب مماناة له . تعزف ديدو على البيانو مقطوعات موسيقية كحترفة وليست كهواية تمتد المقطوعة الواحدة لوقت طويل وتندمج ديدو مع الأنغام تعزف بكل ما أوتيت من حب ومن حنان ومن أحتياج وفقد . تجلس إيفا تستمع لعزفها وتراقب أحناء ظهرها المنحني فوق البيانو وتتابع حركات يديها العصبية تارة والهادئة في أخرى ، تاخذها الموسيقى لهناك لمسافات بعيدة عبر الزمن وعبر القارات عندما كانت تضع الأسطوانة في الجرامفون وتستمع (لشوبان)|عازفها المفضل هل هناك شبه بين عزف شوبان وعزف ديدو ؟ لماذا تشعر أن هناك شيئاً ما يربط فيما بين عزف كلاً منها ؟ ذلك الشجن المشوب بالحزن والذى يجعلك رغماً عنك تبكي ، تبكي كما لم تبك من قبل .

بعد أن انتهت ديدو من عزف المقطوعة سألتها إيفا وهى تصفق بحماس بكلتا يديها وعيناها قد أغرقت بالدموع :

— برافو ولكن إين تعلمتي ذلك ؟

نابت أبتسامه حزينة عن جوابها ولم تجيب .

كانت ديدو طباحة ماهرة تتفنن في صنع أصناف كثيرة ولذيذة من الطعام ، وكان من عاداتها أن تضيف الأعشاب العطرية لكل أصناف الطعام فتكسبها طعمًا جميلًا . في يوم الجمعة حرصت على نظافة المنزل والاستحمام . وكانت قد أحضرت معها من السوق في اليوم السابق اللحوم والخضروات الطازجة وضعت الأنية النحاسية الكبيرة على نار هادئة لتسوية الدفينة وهى وجبة طعام دسمة مليئة بالتوابل ، وطلبت من إيفا مساعدتها في تنظيف المنزل ولأن إيفا لم تكن تتقن أن تضع السجاد على سور الشرفة ونفضه بالمنفضة الخشبية لأزالة الغبار عنه ولا حتي في أستطاعتها أن تضع الماء في الدلو المعدني وتقوم بدعك الأرضية بالفرشاة ثم تجفيفها بقطعة قماش من الخيش القاسي . لأنها لم تتقن هذا أو تلك أكتفت بأنها مسكت الريشة المخصصة لازالة الغبار من على الأثاث و قدمت يد المساعدة بذلك . بينما تكفلت ديدو بالمسح والكنس ثم توجهت للمطبخ للأعداد لمائدة طعام كبيرة تسع أكثر من عشر أفراد . سألتها إيفا مستغربة :

— ولكن هل سيزورنا ضيوف ؟

— نعم احياناً أخواتي الذكور بعد إنتهاء صلاة السبت يأتوا لتناول غداءنا جميعنا بينما تسبقهم زوجاتهم وبناتهم ، وقد اخبروني بقدمهم غداً .

ساعدت إيفا في إعداد المائدة مع ديدو أوكلت لها مهمة صنع الأصناف السهلة كطبق السلطة وتقسير البطاطس وقليلها بالزيت . رصت

الأطباق على الطاولة وتوسط المائدة صحن الدفينة والتي تتفنن ديدو في طهي هذا الطبق المتوارث عن أجيال بعيدة من الأمهات والجدات.

كانت إيفا تجلس في غرفتها عندما طرقت ديدو الباب عليها ودخلت دون أن يؤذن لها . تحمل بيدها شماعة علق عليها فستان حريري أزرق و قبعة مستديرة مزينة بفيونكات من الساتان وضعت الفستان على الفراش الآخر ونظرت لإيفا قائلة :

__ هذا لك . عليك أن ترتديه الآن قبل وصول الضيوف .

وخرجت من الغرفة مثلما دخلتها. بينما كانت إيفا تفكر ما أمر تلك السيدة التي ولكأنها لا تعرف سوى أن تلقي الأوامر ولا تملك فن المحادثة ولكن على كل حال قد أعجبتها الفستان كثيراً .وقفت أمام المرأة واخذت تلتفت يمينا ويسرة لتتأكد من حسن مظهرها . كان الفستان على قياسها تماماً وغالباً لم يلبس قطُّ بالرغم أنه غير جديد فتصميمه كان موضحة منذ عدة سنوات مضت تتذكر جيداً عندما كانت أمها ترتدي هذا الموديل . أخيراً احكمت وضع الشابو فأخفى رأسها الصلعاء فعاتت جميلة كما كانت في السابق ، فقط كان ينقصها حذاء على الكعب لأن حذاءها العسكري كان لا يليق مع فستان يحمل كل تلك الأنوثة في طياته .

عندما خرجت للصالة كانت ديدو لا تزال منكبة على وجهها ترص الملاعق والشوك عندما نظرت إليها وأبتسمت بملء فمها وهي تقول:

__ إنظري ما أجملك أنه على قياسك تماماً .

__ نعم لمن كان هذا الفستان ؟

وكعادتها في تجاهل الرد على الأسئلة تجاهلت الرد على السؤال وبدلت مجري الحديث قائلة :

__ ابجي في خزانة الأحذية على حذاء على قياسك ربما تجدي أحدهم .

وفي خزانة الأحذية كان هناك الكثير منها بكعوب عالية وعلى أحدث صيحات موضحة سنوات مضت ،تساءلت إيفا :

__ ترى لمن كانت ؟

فديدو عند خروجها تحمل بيدها حقيبة من الكانفاه و ترتدي معطف صوفي وتعدق إيشارب فوق شعرها بينما لم تضع في قدمها يوماً سوى زوج من الأحذية من الجلد الأسود اللامع بدون كعب يشبه الأحذية المدرسية . أما عن كل تلك الأحذية النسائية ذات الكعب العالي فرمما كانت لأخت من أخواتها . لمحت حذاء مناسب للون الفستان وعلى قياسها تماماً فأبتسمت فرحة والتقطته سريعاً .

رئين الباب لا يتوقف ... حضرت أخوات ديدو وزوجات أخواتها وبناتهن ، بينما الرجال ذهبوا ل قضاء الصلاة في معبد بوابات السماء . كانت الأعمار مختلفة والوجوه متشابهة ، فيهود الشرق تجمعهم جميعاً سحنة واحدة ومن السهل التعرف عليهم وكأنهم نسلوا من أب واحد عكس يهود أوربا مخلطي الأعراق ، عرّفهم ديدو على إيفا قائلة :

__ ناديا ابنة إحدى صديقاتي من الأسكندرية ونظراً للظروف السيئة التي تمر بها الأسكندرية بعثت بها أمها للقاهرة لتبحث عن مسكن وعمل لها هنا فالأمور هناك تزداد سوء و لا تنبأ بخير .

تعالت همهماتهن :

__ اوووو ... نوووو ... يالأسف !

ثم أخذت كلاً منهن تصافحها و تتفحصها و هي تعرفها بنفسها . أسماء كثيرة مرت عليها :

__ ريبكا , كارلا , الكسندرا , ريتا , رافيل , لولا , لوليتا , و و و ... و

لم يعلق برأسها سوى كاتيا بنت أخو ديدو الفتاة الأكثر جمالاً وأناقة والتي تقريباً من نفس عمر إيفا وتعمل مدرسة بمعهد أيطالي للفنون ,

أخيراً ضج المكان بالصخب الأثوي بعد كل هذا السكون الذي كان يسكنه . تعالت الضحكات النسائية وشغلت المساحات الفارغة من الهواء بأرواحهن وانتشرت عطورهن ، طقطقت الأرضية الخشبية تحت وقع الكعوب العالية ، وتهاست الألسن بأحاديث إباحية خاصة جداً ، و صراخ الأطفال كان يرح جدران المكان .

و غناء توقف كل هذا الصخب عند قدوم أصوات ذكورية جاشة يسبقها سعالها الجاف رجال بأعمار مختلفة يحملون الكتاب المقدس بيد وبالأخرى العشبة العطرية من زهرة القرنفل التي يوزعها عليهم الحاخام بعد كل صلاة ، تلك العشبة البرية التي تفرك في اليد فتخلف ورائها رائحة جميلة فاحت في أرجاء المكان . توالى ريبكا اخت ديدو مهمة تعريف الضيفة الجديدة . شدوا جميعهم على يديها بجمرة اللقاء وحده العم شالوم والد كاتيا بساقه العرجاء وعينه الضيقة الحادة ، نظر لها بكثير من الريبة والشك وأخذ في ملاحظتها بالأسئلة ، أين كانت تعيش بالإسكندرية ؟ وماذا كانت تعمل ؟ و و ؟ أفذتها منه ديدو عندما طلبت من أيزاك الأخ الأكبر سناً أن يتلو الصلاة لأنهم يتضورون جوعاً .

تعالت أصوات أحتكاك الشوك والسكين بالأطباق ولم يمنعهم الغذاء الذي كانت يملأ أفواههم عن التثرثرة والكلام ثم توقف الحديث عندما طرق الباب عدة طرقات على الشراعية الزجاجية فأبتسمت ديدو قائلة

__ مؤكد هذا يوسف .

ركضت كاتيا إلى الباب لتفتحه طلت قامة طويلة لشاب وسيم في بداية عشرينات العمر تقريباً ؟ ، يرتدى بذلة رمادية أنيقة ويصف شعره للخلف مستعيناً بكم كبير من الفازلين ، بينما فاح عطره الرجالي القوي في أنحاء المكان . أبتسموا جميعهم عند رؤيته ورحبوا به كأن يرد تحيتهم وعيونهم متمسرة عند ايها ... فيما تولت ديدو مهمة تعريفها .

__ يوسف ابن اختي فايولا .

__ ناديا بنت أحد صديقاتي من الأسكندرية .

بادلته الأبتسامه التي حياها بها وذهبت كاتيا للمطبخ لتحضر له طبق وشوكة وسكين , سأله شالوم بنبرة حزينة:

__ هل من أخبار ؟

__ لا منذ تلك الرسالة التي قد تلقيتها من مؤسسة الصليب الأحمر ليس هناك من أخبار جديدة .

__ عليك بالألحاح عليهم في طلبك حتى يتابعون الأمر ولا يكفوا عن البحث .

كان عكس شالوم الذي يتحدث بينما يتناثر الطعام من فمه فضغ الطعام ببطء وانتظر حتى بلعه ثم أجاب:

__ وما الفائدة من ذلك لقد أخبرني الصليب الأحمر أنه تم القبض عليهم أثناء فرارهم من الحدود الإيطالية ونقلوا بقطار ليلى لمعسكر اوشويتز!

أنتاب إيها رعشة عند سماعها اسم المعسكر على أثرها ارتجفت الشوكة بقوة ولكن لم يلاحظها أحد .

ردت ريبكا بصوت واهن:

__ مسكينة أختي فايولا يا ترى ما هو مصيرها الآن ؟

بينما علق صوت من آخر الطاولة :

__ الآن أصبح كل يهود مساكين ويجب أن يتحرك المجتمع الدولي ومنظمات حقوق الإنسان والمؤسسات الخيرية للرعايا اليهود لوقف تلك

المهازل التي تحدث فما معني أن يساق اليهود كالحوانات الضالة إلى معسكرات وسجون وهناك يعلم الله وحده ماذا يحل بهم ؟

__ ليس الله وحده الذي يعلم ما يحل بهم فأنا أيضاً أعلم وبأمكناني أن أخلع القبعة من فوق رأسي لتزى نتيجة ذلك وإذا أصابتك الصاعقة من

جرا هذا سوف أخبرك أيضاً أن هناك عدد لا بأس به من النساء قطع لهن المشرفين أصابعهن وأرسلنهن حتى يتثنى لهم الحصول على

الخواتم الذهبية أو الأساور التي ضاقت للحد أن لا تخلع فيه سوي ببتز العضو .

نفوحت بتلك الكلمات في سرها فقط . غادر الجميع شهيته على أثر تلك الأخبار السيئة التي بدلت الطعام اللذيذ لطعم أكثر مرارة .

بعد الغذاء ساعد الجميع في تنظيف المائدة وأجتمع الرجال حول المذيع الكبير يستمعون لأخر أخبار الحرب والتي من الواضح بها أن هتلر

وموسليني حققا تقدماً ملحوظاً . وضعت ريبكا صينية القهوة في حين رصت لولا صواني الحلوي الشرقية والفواكه على مائدة الطعام . كان

من الواضح ان كاتيا مغرمة بأبن خالتها فكانت تجلس على ذراع المقعد الذى يجلس عليه وتنظر له بعيون تملؤها الحب، بينما تجاهلها هو ونظر للضيقة الجديدة ذات الفستان الأزرق وسألها :

__ ماذا تدرسين ؟

__ حصلت على شهادة البكالوريا من مدرسة ليسيه فرانسيسه بالاسكندرية والآن أنا ابحث عن عمل هنا بالقاهرة .

ردت الكسندرا التى لم تتفوه بكلمة طيلة الوقت :

__ العثور على عمل فى تلك الأوقات كالعثور على أبرة فى كوماً من القش .

رد شالوم :

__ أحتاج مساعدة فى محل الخردوات عندى فى الفترة الصباحية إذا أردت .

بينما جاء صوت ريكاء غليظ بسبب الحلوي التى تحشو بها فمها :

__ هناك عائلة يهودية تحتاج لمربية لطفلين تجيد الفرنسية والإنجليزية بمرتب كبير .

أبتسم يوسف وهز رأسه تعبيراً عن سخطه وعدم رضاه من تلك لعروض فكيف بها وهى خريجة الليسيه فرانسيسه أن تلتحق بالعمل فى محل خردوات أو كمرية !؟

__ اذن تجيدين الفرنسية ؟

__ نعم اجادة تامة تحدثاً وكتابة .

__ حسناً ... البنك الذى أعمل به يحتاج لموظفة تجيد الفرنسية لمراسلة العملاء الذى ينتمون للجنسية الفرنسية وهو بنك فرنسي إن لم تمنعني، يمكنني أن أحدد موعد لك للقاء مدير البنك أعتقد أنها وظيفة ملائمة وخاصة أنها بمرتب مغري ، كما أنه من الصعب الحصول على عمل اخر فى هذا التوقيت الصعب .

هزت رأسها بالإيجاب وتشابكت أعينها فى نظرة ما ، لها مغزي تفهمه هى جيداً ولكن هى المتخمة بكل تلك الوجبة الدسمة من الأمل هل كانت مستعدة حقاً لمثل تلك الأمور ؟ لذا فضت هذا التشابك بسرعة . كانت كاتيا تراقب الموقف ومسها بعضاً من الغيرة عندما وجدت يوسف مهمتم بضيقة الحالة ديدو .

كعادتها ديدو أحكمت غلق الباب بالفتاح بعدما ودعت الأقرباء حتى الطرف الأخير منهم وأطفأت الأنوار ودلفت لحجرتها. كانت أيضا سبقتها لغرفتها فكانت تشعر بصداع حاد من أثر الثثرة العائلية . أزاحت ديدو الباب ودخلت لتجد أيضا تجلس فى نصف الفراش وتمسك رأسها بيديها .

__ في درج المنضدة المجاورة لك أقراص من الأسبرين يمكنك أن تتناولها وأحدة حتى يزول الصداع . علينا في الغد الذهاب لسوق (الكاتو1) لشراء ملابس لك حتي يتثنى لك الذهاب للوظيفة الجديدة .

__ ولكن سوق الكاتو ؟

كانت تريد أن تخبرها أنها هي التي اعتادت أن تلبس لأكبر مصممي الأزياء الفرنسيين ومن أشهر المتاجر الفرنسية عار عليها أن تخطو حتي لذلك السوق . ولكنها أيقنت أنه من الغير الجائز لها أن تعترض فيكفي أن هذه السيدة فكرت حتي أن تشتري لها ملابس حتي وأن كانت من سوق الكاتو .

في أحد الصباحات الشتوية الباردة كانت سيدتان تسيران بمحاذاة بعضها الأخرى . إحداهما ترتدي معطفها الصوفي فوق جونلة صوفية زرقاء, والأخرى ترتدي معطفها من الكاروهات على جونلة من الثقليجات .كلُّ منها تعقد اسفل عنقها ربطة للأيشارب الحريري الذي تضعه فوق رأسها . كلاً منها تخفي شيئاً ما. ديدمونة تخفي شعرها الأشيب بفعل تراكمات الزمن على عمرها بينما تخفي إيفلين مرارته وتقلباته .

توقفنا أمام تاجر يعرض بضاعته في جوال كبير . ملابس مستعملة وأخري جديدة ولكنها بها عيوب تصنع ، والغريبة أنها ملابس فرنسية الصنع ومن نفس المتجر الذي كانت تشتري منه ملابسها . أمام أفريل من اللون الأزرق بمجرد أن وقع بصرها عليه علمت أنه من إنتاج مصنع إيبيا أجهشت عيونها بالدموع حينما وجدت العلامة التجارية الخاصة به على جانب الأفريل . ديدو التي كانت تراقبها كان من السهل عليها أن تتكهن بما ألم بها , بينما بائع الملابس نظر إليها في أستغراب .

غادرتا المكان ب (صُرّة) كبيرة سوداء حزم بها الرجل الملابس التي قامتا بشرائها , بينما كانت تفكر وهي في طريق الرجوع، أن كل ما تحتاجه تلك الملابس بعضاً من مسحوق الغسيل لإزالة الأتربة التي علقت بها ، ثم تذهب للمكوجي ليقوم بكيها وتصبح كالجديدة ، لا فرق بينها وبين تلك التي تشتريها من فرنسا سوى العلب الكرتونية الكبيرة و ورق لف الهدايا المزركش الذي يضفي على المشتريات الكثير من الفرح والأناقة .

في صباح اليوم الذي يليه ، كانت أيفا ترتدي كامل أناقته (تاير) من التويد الأزرق يزين ياقته واسواره الفرو الأسود بينما أحكمت شد جوربها من الفوال الأسود على ساقها ، وأضفي الكعب العالي على قوامها المزيد من الأناقة والرشاقة .أخفت صلعة رأسها بباروكة من خصلات ذهبية صفت على شكل الكاربه .

وعندما وقفت ذات الصباح تلقى نظرة أخيرة في المراة لتتأكد أنها حسنة المظهر بما يليق بموظفة في بنك فرنسي ,أبتسمت لنفسها بأعجاب فقد كانت في الأونة الأخيرة سيئة المظهر بشكل كبير وإن كان مظهرها الجديد على جماله إلا أنه لم يرتقٍ لمظهرها السابق سواء في الجمال أو الأناقة أما كان قد أعجبها هيئتها الجديدة في الخصلات الذهبية التي أضفت لها المزيد من الجاذبية .

وعلى ناصية شارع شامبليون بوسط البلد ، ألتقت يوسف .كان أيقاً بما ينبغي لشاب نصفه مصرى ونصفه إيطالي أن يكون . أبتسم عندما شاهدته كذلك ويعيون تملؤها الدهشة والأعجاب.

__ تشبهين الإيطاليات.

أبتسم بدون أن تجيبه ... أجتازا معاً البوابة الدوارة لمبنى البنك وقدمها للحارس مفتول العضلات الذي يقف مباشرة خلف البوابة :

__ ناديا الموظفة الجديدة .

كانت ستقول تقصد إيفا... عندما تذكرت أن أسمها الجديد هو ناديا . ردهة البنك فسيحة مزدهمة بمكاتب الموظفين . يفصل كل مكتب عن الآخر حاجز من الزجاج . صعدا الدرج الرخامي والتقت بمدير البنك مسيو ديلفنس الذى أثنى على أجادتها بالتحدث بالفرنسية ثم أختبر قدرتها الإملائية ، قدم لها ورقة بيضاء وطلب منها أن تكتب ما سمي له عليها بينما .

__ ترى بون .

كانت تلك الكلمة التي أجتازت بها (الأنتر فيو) مع مدير البنك و بنطقه لها أصبحت أحد الموظفات بهذا البنك الفرنسي الشهير تجلس في أحد الغرف امام الألة الكاتبة لتنسخ عليها ما يطلبه منها مديرها . و عندما سألتها عن أوراقها الشخصية وشهادتها الدراسية لكي يحتفظ بها في ملفها الخاص ، سبقها يوسف بالرد :

__ لقد تعرض مسكنهم بالاسكندرية للقصف أثر غارة قوية وللأسف أخفني كل شئ في ركام الهدم .

تبدلت ملامح المدير للحزن قائلاً :

__ حمد الله على نجاتك عندما تبدأ الأوضاع هناك يمكنك أستخراج أوراق أخرى ولن أجعل من هذا الشئ عائق أمامك .

هي خريجة الحقوق السوربون أعرق جامعات فرنسا وأشهر جامعات العالم ، لا بأس بأن تقبل العمل كموظفة للنسخ على الألة الناسخة لمجرد أنها تجيد الفرنسية تحدثاً وكتابة . عرّفها يوسف على زملائها في القسم وأطمأن حتي جلست على مكتبها الخاص بها وتركها وذهب ليباشر بمهام عمله من خلف الحاجز الزجاجي الذى يفصله عن عملائه فقط تلك النافذة الزجاجية الضيقة التي بإمكانه منها أن يستلم منهم الأموال أو يسلمها لهم .

مر اليوم سريعاً وكوظفة جديدة وجميلة أثارت فضول الزملاء والزميلات الذين يشاركونها المكان ، لذلك كانت تحاول أن تبدو لطيفة بالرغم من فضول لا حياء لأصحابه . فكانت تضع أبتسامه حانية على وجهها ونظرة عطوفاً وتستعمل إجابات مختصرة ، ولكنها عميقة كانت أخبار الحرب تشغل الجميع في هذا المكان الذى يعمل به الكثير من الفرنسيين والأنجليز وهي محتشدة الروح والجسد بكل تلك المشاهد الدموية وأصوات القنابل والصواريخ التي تنهال فوق الرؤوس تركت لهم نيشان الحديث وأكتفت هي ببريق الصمت .

عرض عليها يوسف أن تتناول الغذاء معه بمحل بجروى ، ولكنها اعتذرت مؤكدة أن الخالة ديدمونة تنتظرها على الغذاء ولكن هل حقاً كانت ديدو في أنتظارها ؟ كانت محاولة حتى تهرب من تلبية الدعوة فلم تكن مجال تسمح لها بالجلوس في أحد المطاعم لتتناول غذاء مع شاب لم تعرف عنه الكثير سوى أن عيونها كانت متخمة بالإعجاب بها . ولكن يوسف الذى لم يكن من هذا النوع سريع الإحباط فأخذ يصر على دعوته لها وعندما فشل أكتفى بالقول :

__ حسناً لنؤجل الغذاء يوماً آخر ولكن دعينا اليوم نتناول القهوة أو الشاي في جروى المكان قريب من هنا وأحتساء فنجان من القهوة لن يأخذ الكثير من الوقت.

ماذا كان عليها أن تفعل أمام الحاحه وبدون أن ينتظر منها أجابة كان قد سمحها من يديها وسار بمحاذاتها تماماً .

ما أن دخلت المكان الذى تنبعث منه روائح الحلوي والكراميل حتى أغمشت عيناها بالبكاء وكأنها كانت غيمة محلقة تنتظر أن يؤذن لها بالهطول . كانت كثيراً ما تأتي لهنأ بصحبة أمها ، بل ربما كان هو المكان الوحيد الذى كانت تشعر بالسعادة فى الذهاب اليه ، بالرغم من أن هناك الكثير من المحال على شاكلة جروبي كالأريزونا وجولى فيل وتراس فندق شبرد ومقهى الهيلتون ، ولكنها لم تكن تسعد إلا بذهابها لجروبي ، كانت تعشق المرور على فاترينات العرض لتشاهد قوالب الجاتوه المزينة بالكريم شانيتها الذى كانت تطلب من البائع دوماً المزيد منه . تتذكر أيضاً كيف أنها فى ذكرى عيد مولدها من كل عام يأتي عامل محل جروبي بعلبة كارتونية كبيرة وضعت فيها تورتة (البولد ناج) التى نُقش فوقها بالكريمة عبارة " عيد ميلاد سعيد إيفا " . عندما سافرت لفرنسا تأكدت أن جروبي لم يقل أناقة عن (الباتسيري) هناك علي العكس كان يتمتع بعبق خاص به يجعله فريداً ومتمرداً عن كل الأماكن .

كالعادة كان المكان يعج بالأجانب من شتى الجنسيات ، ولكنها كانت المرة الأولى التى تراه فيها مزدحماً بالجنود الأنجليز بزيمهم الأخضر الغامق الذى يبعث على الأكتئاب . أختار لها طاولة بعيدة عن الصخب .

__ هذا مكاني المفضل ربما تكون تلك زيارتك الأولى له ولكنها لن تكون الأخيرة أبداً ، أنه يشبه محل (ديليسييس) بالأسكندرية مؤكداً قمت بزيارته .

__ نعم .. نعم .

سحب سيجارة من علبة سيجاره وقدمها لها .

__ شكراً.. لا أدخن .

بينما أشعل سيجارته وأخذ فى النظر إليها من بين دوامات الدخان .

__ لماذا أشعر أنك تخفين أمراً ما وراءك ؟

أرتبكت عندما قال ذلك ولكنها سرعاً ما أخفت أرتباكها بأبتسامة قائلة :

__ كيف ؟

__ لا أعلم ولكن أشعر أنه هناك سرّاً كبيراً !

__ سر ... و كبير !!

حضر النادل فطلب الشاي وجاتوه الشكولا

__ أحياناً أشعر أن صمتك وراءه شيء ... تخشين أن تتحدثي فيفضحك لسانك به .

__ لا.. ليس هناك من شيء .

أدارت رأسها في الاتجاه الآخر تتابع المارة من خلف الوجهة الزجاجية .

__ ولكن إليس من الغريب أن إدارة البنك تكون فرنسية وتقبل بتعيين موظف إيطالي بها؟

__ وما في ذلك ؟

__ فرنسا إحد الدول الأعداء لإيطاليا , فهي تتحالف مع الإنجليز , بينما موسوليني مع هتلر .

__ ربما كان هذا الأمر في الدول الواقعة تحت الحرب إنما هنا بالقاهرة فالأمر أقل تعقيداً .

__ أعتقد أن مصر بعيدة عن الحرب ؟

__ هذا يتوقف على ما يعده " روميل" في العلمين* إذا فلاح في دخول البلاد مؤكداً ستدمر مصر وسوف يعمها الخراب تأكدي من ذلك .

__ وأنت إلى أي جهة تنتمي ؟

بعد أن رشف رشفة كبيرة من فنجانه :

__ أجدادي في الأساس يهود من اسبانيا عند احتياج أوروبا للأندلس منذ عهود تفرقوا في الأرض منهم من ذهب لإيطاليا ومنهم من جاء لمصر , ولد أبي وعاش في إيطاليا حتى مقتبل حياته ثم تركها وجاء للإسكندرية حيث كان يعمل في تجارة الدخان وكانت السوق رائجة في الإسكندرية لمثل هذا النوع من التجارة في أوائل القرن . أبي كمثل يهود إسبانيا من السفارديم الذي يعتنقون الربانية ومنذ وصولهم لمصر هناك عدواة بينهم وبين طائفة القرائيين التي تعيش في مصر منذ أقدم العصور و تحيد اللغة العربية ، بل منهم علماء في هذه اللغة ويمسكوا بأفكارهم المختلفة عن الربانية لذلك انغلقوا على صرامة عقيدتهم . لم يكن من المسموح ان يتم التزواج ما بين العائلات القرائية والربانية للاختلاف الكبير فيما بينهم ألتقت به أمي في أحد الحفلات وأحبته كثيراً في حين رفض أهلها المتعصبون دينياً من زواجها به .

__ نعم أعلم عن ذلك التعصب .

__ لذلك رفضه أبوها ولكنها أصرت على الزواج منه وتركت المنزل بحقيبة سوداء وضعت فيها أمتعتها الشخصية ، تم الزواج الذي لم يحضره أحداً من أهلها ، وعاشت معه في الإسكندرية لمدة خمس سنوات أنجبتني في السنة الأولى منه ثم سافرا معاً إلى إيطاليا وتركاني هنا مع جدتي لأبي لتتولي تربيته حتى ينثني تدبير أمرها هناك ، لا أعلم كم من الوقت تغيبا عني ؟ ربما الكثير ولكني لم اهتم لذلك , لأن جدتي كانت تمدني بالحنان اللازم . حتي في أحد الأيام وبدون سابق موعد تعثرت بها أمامي تماماً عند عتبة البيت ولم أتعرف عليها إلا عندما تذكرت أن تلك الوجوه قد رأيتها مسبقاً في أحد الصور الفوتوغرافية التي بعثت لي بها أمي ذات مرة عندما كان يقضون الصيف على أحد شواطئ روما . كانت أمي قد أنجبت أختي استر وأخي دافيد وبصعوبة كان علينا أن ندمج معاً . أرادا أن أغادر معها البلاد لميلانو حيث كانوا يقيمون ، ولكنني رفضت وأكتفيت بالتردد عليها في الأجازة الصيفية والمناسبات .

__ وهل ظلت علاقة أمك بأهلها مقطوعة إلى ذلك الحين ؟

__ عندما رجعت مرة أخرى للقاهرة كان جدي قد غادر الحياة وجدتي في نزعها الاخير وكثيراً ما كانت تردد أسمها أثناء نومها ، لذلك كانت زيارتها لهم مدعاة للفرح والسعادة ولم يلومها أحد أو يعاتبها.

حلقت ذكري حزينة على وجهه الذاكرة تبدلت معها نبرة صوته لأكثر حزناً :

__ مسكينة أمي و مسكين أبي تراهما أين هما الآن ؟

__ أوليس هناك من أخبار جديدة ؟

__ لا ليس هناك من جديد . أنه هتلمر ونزعته الدموية ، حقاً أتمنى لو أستطيع أن أفتح رأس هذا الرجل لأرى أي عقل طائش يحكمه وهل المحشور بين الضلوع هو قلب أم قطعة من الصخر ؟

__ كراهيته لليهود لا حدود لها حتي ولكأن هناك ثأراً بينه وبينهم !

__ الغريبة أن هناك الكثير من القادة يشاركونه الرأي ولا أعرف هل عن أقتناع أم عن خوف .

__ كموسولينى مثلاً !

__ نعم أنظري كيف سلم له يهود إيطاليا والنازيون إليها من الدول الأخرى ظناً منهم أنهم سيكونون في مأمن هناك .

__ تماماً مثلما حدث عند سقوط باريس وكأن اليهود هم غنيمة الحرب في تلك البلاد لقد تم الأستيلاء على أموالهم بالبنوك وأملاكهم الخاصة وجردوهم حتي من كل شيء حتي ملابسهم ، يستوي في ذلك الأطفال مع النساء والمرضى والعجائز !

__ وهل تصدقين خدعة معسكرات التأهيل تلك التي يخدعون بها العالم ؟

كانت تريد أن تخبره أنها آخر شخص في هذا العالم يمكنه أن يصدق تلك الخدعة لأنها كانت قد وقعت في فخها وبأعجوبة نفذت منها .

__ وهل سنكتفى بالملكوث عنها والكلام ونتركهم يقومون بإبادتنا ؟

__ إبادتنا ،أعتقد أن الأمر لم يصل لهذه المرحلة بعد .

أخذتها الحماسة قائلة :

__ بل وأكثر .

__ ولماذا انت متأكدة هكذا هل تملكين معلومات ؟

كان ماذا عليا أن تجيبه ربما كان من هذا النوع الذي يجبرك على الثقة فيه ، ولكنها خشيت أن تنفوه بشيء.

_ ابداً مجرد تخمين .

كانت نظرته إليها يملؤها الشك ولكنه في نفس الوقت لم يشأ أن يلح عليها بالاسئلة .

_ أريد أن أذهب الآن .

طلب من الجرسون بأن يأتي بالحساب وأخيراً وهما يستعدان للذهاب :

_ هناك جلسات خاصة تعقد للنظر في امور الحرب و مشاكل العالم إذا أحببت أن تنضمين إلينا ؟

أخذت تلاحقه بالأسئلة :

_ أين ومتي ؟

_ أتركي لي تهيئة الأمر وعرض طلبك بأن تنضمين لتكوني عضوًا بالمجموعة على الرئيس .

_ أتمنى ذلك حقًا .

_ حسناً أعدك سأحاول .

لم تكن تكذب إذأ، عندما أخبرت يوسف أن ديدو تنتظرها على الغذاء، فها هي أعدت حساء الأرناب الشهوي والأرز والملوخية، وتجلس في أنتظار حضور ايفلين، التي كان من المقرر لها أن تكون في المنزل عند الثالثة، ولكنها أوشكت على الرابعة في الساعة الجدارية التي كانت تراقب دقائقها بالكثير من الصبر لذلك بلهجة يملؤها العتاب قالت :

__ لقد تأخرت كثيراً.

__ أسفة لم أشأ أن أجعلك تنتظرين ولكن أصر يوسف على دعوتي لأحتساء فنجان من القهوة معه .

أبتسمت ديدو بجنبش. كانت ايفا ستشرح لها أن الأمر ليس بمثل ما تعتقده، ولكنها كانت قد شبكت يديها وبدأت في الصلاة، رددت أيفا الكلمات ورائها ثم أكلتا بشهية .

__ أشكرك خالتي ديدو على اهتمامك بي وأعدك بأني سوف أقوم بوضع ثلاثة أرباع مرتبي تحت تصرفك هذا الشهر بينما سأحتفظ لنفسي بالباقي.

أبتسمت ديدو بدون أن تنطق . نظفت إيفا المائدة ثم استسلمت لغفوة بعد الظهر ، لتستيقظ على عزف ديدو على البيانو وتتأكد أن الساعة قد حانت السابعة كعادة ديدو في العزف على البيانو في ذلك التوقيت كل يوم .

أنتظرت حتى أنهت عزفها ثم قامت بالتصفيق لها وهي تقف عند عتبة الباب ، فتدير ديدو رأسها للخلف وتكتشف إيفا أن عينها أغرقتنا بالدموع , بخطوات بطيئة تذهب إليها وترت على ظهرها كانت الدموع تغسل مفاتيح البيانو وكانت إيفا يملؤها تساؤل ولكنها أبت أن تسأله فقط أكشفت بأن تركتها وذهبت .

في صباح اليوم التالي ، أستيقظت على رائحة جميلة تملأ المنزل، أرادت ملابسها وخرجت لتجد الحالة ديدو تضع مرية العنب بالقرنفل الشهية في برطمان زجاجي وتحكم غلقها، بينما ترتدي كامل ملابسها استعداداً للذهاب . صنعت لها سندوتش من المرية التي صنعتها ولم تكن قد تدوقت هذا النوع مسبقاً فأعجبها كثيراً . لاحظت أن ديدو وضعت البرطمان في حقيبتها الممتلئة بأشياء أخرى فأيقنت أنها في زيارة لأحد الأصدقاء أو الأقرباء وتريد أن يتدوقوا صنع يديها .

غادرتا معاً في صباح كانت ساؤه تنذر بأمطار غزيرة وعند مفترق الطرق ودعتا بعضها البعض على وعد أن إيفا لن تتأخر على موعد الغذاء . فجاء وبدون سابق أنذار وجدت ايفا قلبها يخفق بشدة بحب تلك المرأة التي تخفي الكثير من الحنان والطيبة تحت ستار من ملامحها الجامدة وتأكدت أن الله يجيها لأنه ألهمها بتلك السيدة التي كانت غائبة تماماً عن تفكيرها منذ أن غادرت البلاد لأكثر من عشر سنوات، ولكن فور قدومها لمصر ظل وجهها يتحرش بها للمرور عليها والأقامة عندها . جلست على محطة المترو تراقبها وهي تغادر للجهة الأخرى بمعطفها الصوفي تدثر به فوق ظهر منحني قليلاً ، وشالها الذي تعقده حوله عنقها وحقبة مشغولة بخيوط الكلفاء بها برطمان من مرية العنب، تساءلت في رية لماذا هي كثيرة الغموض وبخاصة في عزفها على البيانو؟ فهذا العزف نتاج نوات موسيقية خاصة لا يقوم بعزفها سوى المحترفين .

منذ دخول إيفلين المنزل هذا اليوم لم تسمع ديدو تتحدث بأى كلمة أكتفت فقط بإلقاء صلاة الطعام قبل تناولها الغذاء وتسلمت لغرفتها حتى موعد عزفها فى الساعة مساء. الذى كان أكثر حزناً وأخفت وقعاً. تساءلت إيفا ترى هل كان لمشوار ذلك الصباح دخل فى ذلك ؟

__ خالتي ديدو :ما لي أراك حزينة ؟ هل حدث مكروه ؟

رتبت على يديها بحنان :

__ لا تشغلي بالك بعض الوقت وسأكون بخير .

هكذا هي دائماً تفضل الصمت عن الكلام ، وأختزان الأحزان بدلاً من التفوه بها . كانت تجلس لتحريك معطفاً صوفياً ، بينما كانت إيفا تطالع الجرائد لتعرف آخر أخبار الحرب . لذلك أصطحبت معها عدد كبير من الجرائد الناطقة بالفرنسية والعربية لتعرف أهم الأحداث . مر الكثير من الوقت دون أن تتحدث إحدهما للأخرى كّل منهما متخمة بما ألم بها ، ثنت إيفا الصحف بعد قرائتها ووضعتها بحذر على المائدة .

__ هل من جديد ؟

__ أبناء متضاربة هنا وهناك، أكتناجمات لروسيا فى حين إخفاقات لألمانيا وترحيل الألاف من اليهود للمعسكرات النازية حتى يتسنى للألمان الاستفادة منهم فى التشيد وال عمران ، وبالرغم من كل شيء تحرص القيادة الألمانية على توفير الراحة والرفاهية فى تلك المعسكرات فبإريات كرة القدم للرجال ونوادٍ ومقاهٍ للنساء وألعاب ترفيهية للأطفال .

قهقهت بصوت عالي :

__ أنه الكذب بعينه... ليس هناك سوى العمل الشاق وليس من حق أحد الشكوى أو التبرم ، وألا سيكون مصيره الضرب . تصوري أن المرضى هناك يضعوهم فى عنبر كبير حتى الموت أو يقوموا هم بتلك المهمة بأنفسهم .

__ اريد فقط أن اعرف لماذا كل هذه القسوة ؟

__ لأننا لسنا ببشر ولا يحق لنا ترف العيش .

__ إذن فليقتلنا ويربحنا من هذا العذاب .

__ وما إدراكك بأنه لا يفعل !؟

قالتها هامسة وهي شاخصة بنظرها بعيداً حيث ترائ لها دخان ينفذ من المداخل بالبرج البعيد ونفذت رائحة الشواء الكريمة الي أنفها تلك الرائحة التي لم تشمها مسبقاً ، أنها من أكره ما أشم أنفها . أصابها الغثيان تماماً ، كما كان يصيبها هناك وكأنها مازالت لم تغادر مكانها .

طرق خفيف على الشراعة الزجاجية للباب نظرت كلٌ منها للأخرى بحذر، فالساعة شارفت على الثامنة مساءً من عساه أن يزروها الآن دخلت إيفا للحجرة مسرعة لتضع الباروكة فوق رأسها بينما وقفت ديدو من خلف الباب وهي تسأل :

__ من ؟

__ أنا يوسف خالتي .

نظرت السيدة خلفها لتتأكد من وضع إيفا للباروكة فوق رأسها ثم قامت بفتح الباب . دخل يوسف بذلك الصخب والبهجة اللذين يبعثهما في أنحاء المكان محملاً بعلبة من جاتوه الشكولا وضع في كارتونة بيضاء نقش عليها " بيت جروبي " .

__ مفاجأة أليس كذلك ؟

أجابته ديدو بنخبث:

__ نعم فمند متي لم تطرق بابي محملاً بالهدايا أو بالحلوي ؟

أحمر وجهه خجلاً، ثم نظر إلي إيفا قائلاً:

__ هيا أرتدي ملابسك سنذهب لنشاهد فيلماً امريكياً يعرض بسنا رياتو .

__ ولكن يوسف أنا لست مستعدة لمشاهدة أفلام الآن .

__ وهل مشاهدة فيلم تحتاج استعداداً ، السينما على بعد خطوات منك أنها بجوار مدرسة دو لاسال، خمس دقائق ونصل لهُناك . هيا قبل أن يبدأ العرض .

ثم أنتهز فرصة دخول ديدو للمطبخ لتضع الحلوي بالأطباق وهمس قائلاً :

__ لقد رتبت لك موعد مع المجموعة وهما في أنتظارنا الآن هيا أرتدي ملابسك بسرعة .

جاءت ديدو تحمل بيديها صينية كبيرة عليها اطباق من الحلوي وأكواب للعصير وعندما شعرت بها إيفا صاحت قائلة :

__ لقد شوقتني لرؤية هذا الفيلم سأذهب لأرتداء ملابسني .

جلس يوسف يتحدث مع ديدو التي بدأت حديثها بشيء من اللوم قائلة :

__ ولكن ألم يكن من الأخرى بك أن تدعوكاتيا لرؤية ذلك الفيلم ؟

__ ولماذا كاتيا ؟

__ يوسف لا داعي للأنكار فأنت تعلم جيداً أن الفتاة تحبك كثيراً .

__ وهل لأنها تحبني على أن أبادلها مشاعرها!؟

__ ليس هذا ما أقصده ولكنك كنت تشجعها في التمادي بعواطفها نحوك . كنت أراك تبالغ في الأهتمام بها والأثناء على جمالها وأناقتها .

__ وهل هذا بمثابة تشجيع؟ أى جنتلمان مكاني سيفعل ذلك .

__ هكذا إذا فأنت تنوي على إيذاء مشاعر تلك الفتاة .

تجهم وجه يوسف وتبدلت ملامحه للغضب ، ولولا خروج إيغا في ذلك التوقيت لكان أحتد الخلاف بينهما . ما أن رأي إيغا حتى قام وفتح الباب مودعاً خالته .

__ اورفوار .

مالت إيغا على ديدو وطبعت قبلة على وجنتها قائلة :

__ لماذا لا تأتين معنا ؟

__ لا أفضل مشاهدة الأفلام الأمريكية لأني لا أفهم اللغة ، ونظري ضعيف لا أستطيع قراءة الترجمة .

كان الهواء أشد برودة في الخارج لذلك أحكم كلُّ منها غلق المعطف .

__ هل لك أن تخبرني بعضًا من التفاصيل ؟

ألقي يوسف سيجارته ودهسها بعصبية بقدمه .

__ تعد تلك المنظمة من أكبر المنظمات السرية للتجسس في الشرق ، تابعة للمخابرات الإنجليزية وهي تضم عددًا كبيرًا من الجنسيات ، وشعار تلك الجماعة(الكل في واحد) ليس هناك وجود للمصالح الخاصة أو للمنافسة أو الخوض في مسائل لا تفيد، كل مبتغانا هو حزم المعركة لصالح قوات التحالف.

__ ولكن من الواضح أنها لم تنجز شيئًا فمزال العالم واليهود يساقون كالنجاج لحثفهم .

__ لا عزيزتي أنها تنجز ، ولكن بشكل غير مباشر للقضاء على الانتهاكات النازية، يلزمك الكثير من الوقت والخبرة والتصدي لهتلر والعمل بشتى الطرق على خسارة الحرب لذلك هناك، عدد كبير من القوات الخاصة أنضم للجمعية.

__ أنتظر ... أي قوات خاصة ؟

كانوا قد وصلوا لناصية الطريق فأستوقف(تاكسي) وهو يقول :

__ لقد تأخرنا .. أنتظري حتي نصل وسأخبرك بكل شيء .

أمام مبني مكون من دورين وضعت يافطة كبيرة عليه " نايت كلوب " بمنطقة جاردن سيتي، توقف بها التاكسي هي لم تكن تعي شيئاً مما يحدث، بينما كان هو في كامل انتباهه ليتأكد بأن أحداً لم يتبعه . يسير يهدوء واضعاً أبتسامته على وجهه .

__ ولكن هل تقيم تلك الجماعة أجماعاتها في نايت كلوب ؟

__ أتمني لو أنك تكفّين عن الأسئلة وتضعي على وجهك أبتسامته.

شاب مفتول العضلات ، يقف على بوابة الملهى الذي ما إن أقتربا منه حتي تسللت إليها أصوات لموسيقى التانجو ، اوما له بالنحية فافسح لها بالدخول . المكان مظلم بالداخل إلا من إضاءة خافتة لتساعد لرؤية خطواتك . حلبة الرقص بالجانب الأيمن مزدحمة بفتيات وشباب يرقصون على أنغام التانجو والتشاتشا. تدور الفتيات بقوة وسرعة بفستانيهن الكولش القصيرة فتكشف ثيابهن الداخلية . على البار جلس عدد كبير من الجنود الأنجليز يطرقعون الكاسات ويطلقون النكات الماحجة ، بينما فى الدور الأعلى كانت طاولات البوكر متراسة الواحدة بجوار الأخرى وعلى اختلاف الجنسيات التي تجلس عليها إلا أنهم يشهرون ثراءهم فى وجه الجميع بالسيجار السمين والبذلات المستوردة والمجوهرات البراقة .

_ هل تجيدين الرقص ؟

_ نعم .

سحبها من يدها حلبة الرقص ليتايلا معاً على أنغام الموسيقى . بعد أداء عدة رقصات منهكة ضمها له وسحبها لخارج الحلبة وإذا به يلتقط شفتيها فى قبلة طويلة حاولت الفكك منه ولكنه كان مطبق بقوة عليهما . سحبها خارج الحلبة وهو يسير بها ، وهما على ذلك الوضع حتي زواية مظلمة تنتهي بدرج رخامي يقود لأسفل على ممر به غرف العاملين . وأمام غرفة علق عليها يافطة نحاسية كتب عليها " لا يسمح للدخول لغير العاملين " أزاح اليافطة التي لم تكن مثبتة تماماً لتظهر تحنها لوحة مفاتيح ضغط على كود سرى فلم يمر سوى ثوانٍ أعتذر لها خلالها عما بدر منه بخصوص تلك القبلة واخبرها أنها أحد التموهيات . ثم تكة قوية ويدير المقبض ويفتح الباب وإذا بها أمام طاولة أجتاعات مستطيلة جلس حولها الكثير من الرجال بينهم ثلاثة من الفتيات أصبحن أربعاً الآن بعد أنضمام إيفلين لهن . كانت العيون تراقبها بحذر وبترقب .

يدير الاجتماع رجل فى منتصف العمر تقريباً يتحدث العربية بصعوبة . رحب بها ودعاها للجلوس ثم طلب منها أن تقوم بتعريف نفسها . نظرت للوجوه التي كانت تضم كافة أشكال وهيئات البشر والكثير من الجنسيات الأجنبية .

_ إيفلين يعقوب سرركسيان .

كانت تقوم بنطق اسمها وتنظر ليوسف لترى وقع المفاجأة عليه ، ومن الواضح أنه كان يتوقع أمراً مثل هذا لأنه أبتسم عندما ساءه الاسم ولكن ما الذى أدى بها للبوح بهويتها هي التي حرصت كل حرص ألا تظهر ذلك حتي لا تتعرض لبطش النازية مرة أخرى ؟! ولكن فى مثل هذا المكان وبمصاحبة تلك المجموعة التي أصبحت الآن عضواً بها ، كان عليها أن تصرح بحقيقة هويتها وإلا كيف ستقصد عليهم وقائع محممة وهي متخفية تحت شخصية أخرى. شخصية لم تغادر مصر إلى فرنسا يوماً ولم تتعرض لمثل تلك الأهوال يوماً .

ثم أضافت بصوت أكثر وهناً :

_ أحد الفارات من معسكر اشويتز النازي .

وقتها تعالت الصيحات بعدم التصديق. شاب تظهر عليه ملامح أجنبية يتحدث بالألمانية لتصاب بالهلع. هل هذا كمين ليقبض عليها أم ماذا؟
ولجھلها باللغة الألمانية لم تفھم شيئاً ولكن تولى الرجل الذى يدير الأجتاع الترجمة قائلة :

__ لقد منح لك الله عمراً جديداً ، هكذا يقول ساشا وهو ضابط من النازية سابقاً وأنضم للمجموعة .

__ ضابط نازي ولكن كيف هذا ؟

__ لا تستغربي ، ستجدين على تلك الطاولة من هو نازي ومن هو يعمل تحت أوامر موسليني ومن هو يتبع الجيش الأحمر ولكن جميعهم يرفضوا ما يفعله هتلر ، ونحاول معاً أن نقضي عليه بطريقة أو بأخرى فليس الحرب وحدها هي التي تدور على أرض الواقع هناك خطط في الحفاء ألم يخبرك يوسف أنه من قوات الكوماندوز تلك القوات الخاصة للجيش الإجليزي ؟

__ لا في الحقيقة هو لم يخبرني !

أجاب يوسف بصوت خافت :

__ لم أرد أن أخبرها بشيء تماماً مثلما أخفت عني حقيقتها .

ثم نظر إليها نظرة ذات مغزي واطاف

__ أو ربما كانت أحتاج بعضاً من الوقت

رد الرجل بصوت تملؤه الثقة :

__ حسناً ... الحذر مطلوب .

ثم بعد نفس عميق :

__ الآن وفي تلك المرحلة الخطرة التي تتعرض لها ألمانيا وبخاصة بعد عدوانها على روسيا ، تلك الدولة التي قصمت ظهر نابليون من قبل وها هي الآن تكبد المانيا المزيد من الخسائر في أرواح جنودها من الشباب وعلى وشك أن تحتل عاصمتها .

رد جايلو شاب روسي من القوات الخاصة الروسية المنضمة للمجموعة :

__ الروس وحدهم الذين يعرفون معني كلمة الحرب الشاملة ، ويملكون المقدرة على ممارسة تلك الحرب من الألف إلى الياء ، وحدهم بإمكانهم أن يقطعوا مسافات هائلة سيراً على الأقدام وأن يناموا على الجليد بغير غطاء وأن يعيشوا على طعام مكون من جذور النباتات الباقية تحت الجليد .

رد القائد قائلاً :

__ الجليد هو الذى فتك بجيش نابليون القوي ، كما بإمكانه الآن الفتك بالقوات النازية .

أجاب جايلو بمزيد من الثقة :

__ ربما طبيعة البلاد كانت أهم عوامل أنتصارها على الأعداء .

فتح بعض الأوراق بيده قائلاً:

__ أنه مخطط بعثت به فرقة الكوماندو الفدائية لشن غارات على معسكر رومل بالصحراء الغربية ، سوف تقوم بدراستها ونرى من منكم يود المشاركة فيه بجانب الفدائيين لأجليز . القضاء على معسكر روميل فى الصحراء الغربية سيعد أكبر أنجاز للقضاء على خطة المانيا فى الاستيلاء على مصر ومنها للشرق وبذلك تصبح سيدة العالم بلا منازع . وهى حريصة طبعاً للقضاء على يهود الشرق الذين يقطنون البلاد فأستيلاء ألمانيا على مصر سيكون ورقتها الراجعة التى ستقودها فى الانتصار فى الحرب وبخاصة أن مطرقة الحرب الثقيلة أخذت تهوي على المانيا فستالينجراد ضاعت وإيطاليا تململ طلباً فى الأنسحاب ولكن موسليني يجبرها على الاستمرار فيها .

أنهى الرئيس كلمته وتوالت المناقشات والجدال ولكن الجميع أجمعوا على أهمية القضاء على مخطط روميل فى احتلال البلاد ، وإلا بذلك سيكون قضى نهائياً على أى فرصة بانتصار قوات التحالف بإلاضافة سيصبح اليهود بين فكي الأسد .

كان كل من يريد التحدث بشيئاً عليه رفع يديه حتى يأذن له ويبد مرتعشة رفعت إيفا يدها :

__ لقد تعرضت فى معسكر نازي لأمر وحشية أنا واليهود من النساء والرجال ، حتى الأطفال والمرضى لم يشفع لها ضعفها وأملك من الأسرار والحكايا الكثير بمجرد نشرها وعرض تلك الأنتهاكات لحقوق الإنسان بالجرائد العالمية سيضعف من أمر النازية وسيحول كراهية العالم لها أكثر وأكثر ..

ثم بحركة عصبية كانت قد خلعت الشعر المستعار الذى ترتديه :

__ أنظروا هذا أقل شيء ، بإمكانهم صنيعه فور دخولنا للمعسكر ليس فقط الأكتفاء بقص شعر النساء ولكن التأكد من حلقة بشفرة حلاقة هل تعرفون لماذا؟

ضحكت بسخرية قائلة :

__ ليس كما يدعون حتى لا تنتشر الأمراض وحرصاً على النظافة ، ولكن لأنهم يدخلون هذا الشعر فى صناعات خاصة ومنها مثلاً الدمى البلاستيكية ، هذا ما سمعته من احد السجنيات .

تعالت الهمهمات والأهات :

__ أنا خريجة حقوق جامعة السوربون وسأكتب دعوى لوقف ما يحدث هناك من مهازل ترتكب فى حق اليهود بالأضافة طبعاً أنى شاهدة على كل ما حدث .

رد القائد

__ وبأى جهة يمكنك أن تترافعي؟ حتى منظمات حقوق الإنسان لم تتخذ موقفها بعد، والصليب الأحمر موقفه أكثر ضعفاً، وخاصة أن العالم هذه الأيام على حافة البركان؟

__ يمكننا بإجراء أولى الخطوات وهو عرض تلك الأفعال والجرائم على العالم بنشرها والتنديد بها .

__ حسناً يمكنك البدء في كتابة كل ما كابدته من معاناة وألم وستقوم بعرضه على الصحف العالمية التي تمتاز بالشجاعة لنشر تلك المواضيع على صفحاتها .

أنهي الاجتماع ومن باب جانبي ضيق يفتح على أحد الشوارع الهادئة من الجهة الأخرى للطريق خرجا . أخبرها أنه من الأفضل أن يوحى مظهرها بأنها تحت تأثير الخمر وفي حالة من الثمالة كما يليق بمرئى نايث للكلوب يخرجها منه في الساعات الأولى للصباح .

وضعت يدها على رأسها للتأكد من إحكام وضع الشعر المستعار فلم تكن قد اعتادت عليه بعد. وطوق يوسف ذراعها وتخطا البوابة سوياً كانت الساعة بعد منتصف الليل بقليل كلاً منهما يسير بمحاذاة الأخر حتى وصلا لنافية الطريق، وجدا نفسها وجهاً لوجه مع نهر النيل . كل منها متخماً بأفكاره ، سألته وهي تجلس على مقعد خشبي :

__ أتمنى أن لا تكون المفاجأة شديدة الوقع عليك؟

__ كنت متوقفاً أن وراءك سرا ما ولكن لم أكن أتوقع أنه يمثل تلك القسوة .

لم تجيبه ظلت مسلطة نظرها هناك عند مركب صيد صغير، و ضوء خافت للعبة الجاز يتسرب منها .

__ وأنت هل أصبت بخيبة الأمل؟

أبتسمت بسخرية :

__ أعتقد أنه هناك مفاجأة يمكنها أن تكون أشد وقعاً وأكثر تأثيراً علي بعد ما لاقيته في المعكسر والألم الذي عانيته هناك . ممها حدث من أشياء لن أهتز ولن تحرك لى ساكنة .

ثم أضافت :

__ ومع ذلك ما هو أمر تلك القوات الخاصة التي تنضم إليها؟

__ بعد أنضامي للمجموعة عرض علي أحد الاعضاء وهو ايطالي و واحد من معادين لسياسة موسليني وهتلر الانضمام لقوات "الكوماندو" وهي فرقة أعمال خاصة و تجسس وتخريب لخطط العدو تتبع قوات التحالف كانت تريد عدداً من الشباب الفدائيين للانضمام إليها وبعد دخولي اختبارات كثيرة ومعقدة والتأكد من حسن نيتي في المشاركة معهم تم قبولي بينهم .

__ ولكنها مهمة خطرة لماذا أقدمت عليها ؟

__ في البدء كان الأمر ثأراً لأهلي الذين اقتادوا كالنعباج الضالة لمعسكرات اليهود بدون أى جريمة ارتكبوها, وبعدها إيقنت بوحشية ما يفعله هتلر في العالم أجمع انظري كم جندياً يلتقى حتفه يومياً ؟ وكم من أبرياء لا همّ لهم في الحياة إلا أن يجدوا قوت يومهم، فإذا بهم جثث هامة في الطرقات ، و ينضم له موسليني و يتبعه رغماً عن أنف الشعب الإيطالي والملك "عمونايل" بذاته .

__ الموضوع أكبر بكثير مما نتصور ، أنه يحتاج معجزة من السماء .

__ الأمل كله متوقف الآن على وقف زحف الجيش الألماني والإيطالي لإفريقيا عن طريق الصحراء الغربية إذا اجمعتنا هذا المخطط ستكون ضربة قوية لألمانيا ، وخاصة بعد انهيارها امام روسيا ، كما أن هناك الكثير من قادة الجيش الإيطالي كارهين لما يحدث، ومنهم عملاء مزدوجون .

جلس بجوارها ينفث من سيجارته ويتابع ضباب تبغته بينما كانت هناك في الجهة الأخرى من الناكرة تفكر أين يمكن لأهلها أن يكونوا الآن وهل هم بهذا العالم أم أجهوا مرغمين صوب العالم الآخر ؟

وهي تمهم بالخروج ذلك الصباح أخبرتها ديدو بأن غداء السبت سيكون في مسكن العم شالوم، سيجتمعون هناك بعد الصلاة . أعتذرت بأنها ستكون متعبة، كما أن المسافة من وسط المدينة لضاحية مصر الجديدة حيث يسكن العم شالوم يقطعها الترام في وقت طويل هذا بالإضافة أنها تنهي عملها في وقت متأخر يوم السبت ، أستعداداً لأجازة البنك الأسبوعية في يوم الأحد .

كانت الأمطار غزيرة في الخارج وبالرغم من ذلك لم تمتنع مظاهرة كبيرة خرجت لتنادي بالاستقلال والأحتلال البريطاني للبلاد، تمت لو بإمكانها الخروج بمظاهرة لتنادي هي أيضاً بما يفعله النازيون بالبشرية وأخذت الفكرة تكبر في رأسها وتوسع مع كل خطوة تخطوها، لماذا لا تنظم مظاهرات تندد بإنهاء الوحشية النازية ؟ فمصر يسكنها عدد كبير من اليهود وخاصة بعد توافد عدد كبير من يهود أوروبا إليها بعد الحرب ، ومؤكد أن هناك عدد كبير من الجاليات الأجنبية المنتشرة في مصر بل والمصريون أيضاً سيشاركون في ذلك، فليس هناك دين أو عرق بإمكانه مباركة ما يفعله هتلر في اليهود والعالم كله . تبلورت الفكرة في رأسها أكثر وجعلت منها أكثر حساسة .

لاحظت زميلتها إيمان التي تشاركها المكتب المجاور لها . أن بعد اسبوعها الأول في البنك كانت به كالسنجاب المدعور ، أصبحت اليوم تنشر ابتسامتها في أرجاء المكان وتشارك في الأحاديث .

قالت لها إيمان بمزحة :

__ أخيراً زالت مخاوفك وأعدت على المكان.

__ في خطواتي الأولى داخل أى مكان حتي خلال مراحل الدراسة المختلفة كنت أحتاج بعضاً من الوقت حتى أعتاد الناس و المكان.

ربما كان في كلماتها تلك جزء من الحقيقة ,ولكن بعد المفاجعة التي تعرضت لها مؤخراً كانت تظهر بشكل أكثر ضعفاً لمواجهة الآخرين والأندماج معهم .كانت إيمان من هذا النوع الذي يسرب دفناً وحمية في أرجاء المكان جعلت إيها التي تبحث عن صديقة أن ترتبط بها أكثر وأكثر لذلك أندمجنا معاً في أحاديث خاصة كالتي تشغل الفتيات في مثل هذا العمر وتخلت أيفا عن حذرهما وأصبحت الكلمات تنساب من فمها بدون توقف ، لكن ألهمت لسانها المفاجأة عندما وجهت لها إيمان السؤال قائلة :

__ حقاً إذا لم تكوني من الأسكندرية وهذه هي أول زيارة لك بالقاهرة لكنك تأكدت من أنك تلك الفتاة الجميلة التي كانت تتجاوز معي في المقعد الدراسي في مدرسة ليسيه فرانسيسه .

نابت أبتسامه عن أجابة إيفا بينما واصلت إيمان حديثها :

__ بالرغم أنه مر وقت طويل ولكني أذكرها تماماً ليس لأنها كانت من أمهر فتيات الفصل ولكن لأنها كانت دوماً منزوية ووحيدة في مدرسة تديرها الراهبات كانت هي ومجموعة من الفتيات اليهوديات لا يتعدين اصابع اليد الواحدة ،كلٌ منكن تمتلك ذات النظرة والابتسامه، الفرق الوحيد هو أن شعرها كان فاحم السواد وتجده في جدلية واحدة سميكة تصل لمنتصف ظهرها .

كانت تتحدث وهي ساهمة في المدى البعيد و ذهبت ايضاً معها لهنالك ، وتذكرتها للتو فقط عندما أخبرتها أنها تجاوزتاً معاً في مقعد دراسي واحد إلا أنها عند رؤيتها للمرة الأولى شعرت بأن هناك ألفة ما فيها بينها .

__ هل تقصدين بأنها كانت منبوذة ؟

هل كانت توجه السؤال لها أم لنفسها ؟ نعم كانت تشعر أنها منبوذة من الفتيات اللاتي كن يفضضن من حولها عندما يعلمن أنها يهودية بالرغم من عدد اليهود الكبير في مصر. إلا أن أندماجمهم في المجتمع لم يعد بالشكل الواسع ، كما كان مسبقاً لذلك كانت الطائفة اليهودية كثيراً ما تتوحد وتلتحم مع بعضهم الاخر كدائرة محكمة الغلق على عاداتهم وأفكارهم فكانوا حريصين على احياء طقوسهم الدينية والاجتماعية التي تجمعهم معاً كغذاء السبت مثلاً وحرصهم الشديد على الألتفاف حول مائدة واحدة ، كذلك كما في أفرانهم وأحزانهم تجمع الجالية اليهودية كلها حتي وأن كانوا المدعويين لا يمتنون بصلة لبعضهم الأخر ، ولكن فقط ليمنحوا أنفسهم ذلك الأحساس بالقوة والثقة .

منذ أن أشعل (أحمد عرابي) فتيل الثورة في قلوب وعقول المصريين الذين عاشوا لعقود طويلة تحت الأستعمار أصبح الشعب المصري يكره كل من هو خارج نسيج المجتمع ، وكانت الطائفة اليهودية وعلى كثرتها وتسلفها سلم الأقتصاد وتربعها عليه فقد كان هناك رفض لهم داخل المجتمع المصري ، ومع بداية القرن الجديد أخذت تلك الفجوة تتسع شيئاً فشيئاً ، وبالرغم من ذلك كان يهود مصر هم أكثر يهود الشرق دلاًلاً و ثراء . حتى قيام الحرب العالمية الثانية ولجوء يهود العالم أجمع لمصر الواقعة تحت الأحتلال البريطاني أحد دول التحالف ضد هتلر لتكون بمثابة حصن الأمان لهم .

__ ربما لم تكن منبوذة ولكنها كانت تفضل الوحدة على الصحبة .

هي نفسها تلك المشاعر التي ظل أيتها يفتقدها لذلك قرر مغادرة البلاد حتى يتسنى له العيش حياة أكرم وأفضل . ولكن هل نجح حقاً في فعل ذلك ؟!!!

يخطأ من يعتقد بأن كل صفحات العمر من السهل طيها، هناك صفحات عصية عن الطي متكبرة عن الشني ، كلما شرعت في البدء في صفحة جديدة فإذا بها مترصة بك تعيدك إليها من جديد تماماً مثلما أوصلها سؤال إيمان لتلك الصفحة من العمر .

__ هل تقبلين دعوتي لك على الغذاء اليوم ؟

بدون تفكير أجابت بالإيجاب فهي تعلم أن ديدو لن تنتظرها على الغذاء كما أنها وجدت في إيمان الصديقة التي كانت تبحث عنها ربما كانت اول خطواتها في الاحتكاك بعالم جديد . بعد أنتهاء يوم السبت المردم بالأعمال ، كان سائق العربة السوداء الفخمة ينتظر إيمان كعادته دائماً امام بوابة البنك عند الثالثة عصرًا للعودة بها للفيللا التي تقيم بها بحداثق القبة.

أستقبلتها والدة إيمان بوجها البشوش وحرارة اللقاء دعيتها للجلوس في الصالون بينما دخلت إيمان المطبخ لتطمئن على إعداد الطعام . دقائق معدودة وحضر والد إيمان بالكثير بهيبة الوقار بعد أن القى التحية حضر السفرجى ليخبرهم بأن المائدة أعدت . نظرت الأم بالساعة الجدرارية التي امامها ثم قالت بتوسل :

__ أحمد على وشك المجيء دعونا ننتظره ؟

بينما الأب الحريص على دقة المواعيد رفض قائلاً :

__ الساعة الرابعة موعد الغذاء نحصر جميعاً على أن نكون هنا قبل هذا الموعد فلماذا لا يفعل مثلنا ؟

__ ربما هناك امر ما تسبب في تأخيره .

مد الرجل يده لأيفا يدعوها للمائدة وبينما هم على وشك الجلوس دق جرس الباب ليأتى الخادم ويخبرهم :

__ أحمد بك وصل.

كعادته دخل تسبقه جلبة وهو يعاتبهم على أنهم قد بدوا في تناول الطعام بدونه ولكن لسانه انعقد عندما نظر ليجد هناك ضيفة تشغل المقعد المجاور لأخته ، ضيفة على قدر كبير من الجمال والمجاذبية، جعله يسمر النظر عند وجهها بدون أن يتفتّوه بكلمة تاركاً مهمة تعريفه بها لأخته ايمان عندما قالت :

__ أحمد أخي يعمل بالمحامة .

__ ناديا زميلتي بالبنك .

لم تعتقد ايضاً أن قلبها سيكون سريع الخفق في يوم من الأيام عند تشابك عينها بعيني ذلك الشاب الوسيم الذي كان في مقتبل الثلاثين بعيون سوداء واسعة تظللها رموش طويلة وبشرة سمراء وقوام فارع كما هو الحق الذي يطالب به ، على الرغم من كل الوجوه التي رأتها لشباب ورجال أكثر وسامة وجاذبية منه إلا أنه كان يملك شيئاً ما جعلها لا تستطيع أن تحيد النظر عنه.

كان الغذاء شهياً والأشهي منه كان لقاءها بأحمد الذي جاء بغتة في عتمة الحياة ليضيئها مجدداً ، ولكن هل كانت مجال تجعلها تقع تحت إغراء ذلك الأمر لذلك عنفت نفسها مؤنبة .

ولأنه هو رجل القانون والمذكرات الممتلئة بالحجج والبراهين لم يكن من الصعب عليه أن يخلق حواراً على قياس لقاءها الأول.

سألها __ لماذا تركت الإسكندرية وجمت للقاهرة ؟

كم كان يلزمها من الأكاذيب لتقنعه بشخصيتها الوهمية ؟

__ على إثر غارة قوية تحطم منزلنا ومات اهلي فلجأت لأحد معارف أمي للعيش عندها هنا بالقاهرة .

وبنظرة بها عدم أقتناع بما يليق برجلٍ يعمل بالمحامة .

__ ولكن أليس لك أى أقارب بالإسكندرية ؟

__ لا هم بين بلدان العالم المتفرقة.

هز رأسه وأمسك بفنجان القهوة بين يديه ثم مال بظهره على المقعد واضعاً ساقاً فوق الأخرى.

__ ربما بعد أختطاف موسيليني وأن كانت تلك الأشاعات عن قتله صحيحة يصبح هناك أمل مجدداً في القضاء على القوة الألمانية .

ما إن سمعت هذا الكلام وقد مسها الفرح تارة والدهشة تارة أخرى وأخذت في ملاحقة أحمد بالأسئلة :

__ أحقاً ما تقوله موسيليني قد قتل ؟ ومن فعل ذلك ؟ ومتي ؟

— ألم تسمعي الأخبار اليوم كل الإذاعات لا هم لها سوي إذاعة الخبر ؟

— لا في الحقيقة لم أسمع أخبار ولكن من فعلها ؟

— هناك أقاويل أنه الملك عموناي ملك إيطاليا وفرقة ثورية إيطالية ترفض سياسة موسليني وأتحاده مع هتلر .

فجأة قامت واقفة وأعتذرت بأن عليها الذهاب .

— أنتظري حتي يوصلك السائق .

— لا ، أفضل السير لأول الطريق ومن هناك سوف أستقل الترام .

— إلى اللقاء .

أستغرب للطريقة التي أنهت بها الحديث وإعلانها الرحيل هكذا بدون سابق أنذار ، قام بتوديعها حتى البوابة الحديدية للفيلا بينما أكتفت إيمان بتوصيلها لعتبة الباب .

— أين تسكنين ؟

— في منطقة الظاهر في أحد الشوارع المتفرعة من شارع الملكة نازلي .

— احترسي لنفسك .

وبنظرة وكأنه يطوقها بها رحلت بها . وصلت لناصية الطريق حيث كابينة عمومية للهاتف ، أحكمت غلق بابها ورائها وأدرات أربع أرقام أجابها صوت كسول وكأنه لا يزال في نعاسه بعد :

— الو .

— يوسف هل سمعت الأخبار ؟

— أي أخبار ؟

— موسليني قد خطف وهناك إشاعات تؤكد موته .

— نعم نعم لقد سمعت الأخبار .

كان يتحدث وكأن الخبر لا يعنيه بتاتا!

— ولكن ، لما أنت غير مهتم ؟

__ ماذا علي أن أفعل إيفاً أهدي أنتِ . حتي أمر عليك عند الساعة موعد الاجتماع .

__ حسناً ، سأكون جاهزة في تمام الساعة ، إلى اللقاء .

__ أنتظري... من الأفضل أن نتقابل عند ناصية الطريق حتي لا نشك ديدمونة في شيء.

__ حسناً في الساعة عند ناصية الطريق .

__ إلى اللقاء .

كانت السابعة إلا الربع تقريباً عندما همت بغلق الباب ورائها بعدما أطفأت الأنوار إلا نور السهراية التي تحرص ديدمونة على إشعاله حتي يتسنى لها السير في أنحاء المنزل عند رجوعها من الخارج . شعرت بمزيد من الراحة عندما لم تجدها قد حضرت بعد للبيت ، حتي لا تلاحقها بالأسئلة إلى أين تذهبين في مثل هذا الوقت ؟ ومع من ؟ وهي التي على يقين بأنه ليس هناك من مكان ، مثلما ليس هناك من أحد لتتوجه إليه . قامت بترك ورقة على الطاولة تخبرها فيها أنها في موعد مع طبيب لعلاج شعرها الذي لم ينبت حتي الآن .

كان يوسف ينتظرها بقامة مديدة ومعطف واقي من المطر بينما لم تنس هي أصطحاب مظلتها معها . في الوقت الذي مدت له يدها لتصافحه وجدته بدلاً من ذلك يسحبها له ويقوم بتطويقها بكلتا ذراعيه تملمت بداخله ترفضه . حتي أذعن لطلبها وفك حصارها وبدون أى حديث قام بالإشارة لتاكسي ، وعلى غير العادة ركب في المقعد الأمامي بجوار السائق بينما ركبت هي في المقعد الخلفي وكأنه بفعلته تلك يعاقبها على رفضها له . هي التي كان يلزمها الكثير من ربطة الجأش والسيطرة على النفس لموعدها هذا ، حتي يتسنى لها أن تبعد عن رأسها وهم المؤامرات والأكمنة ، والرصاصات التي تُطلق من حيث لا تعلم ، ولا تدري من أي جهة قد تصوب عليك ، و تحديداً داخل أى جزء من جسدك ستنحشر فيه لتزيدك قتيلاً ! ؟ و لكن هل كان علي يوسف الذي عاش هنا في مأمن أن يتفهم ما يدور في رأسها الجميل!؟

كانت فرق خاصة تُسمى بوحدة القتل المتنقلة تقضي على كل من هو يهودي ، وكانت في البدء تهدف لحصد ارواح الرجال من اليهود ولكن فيما بعد أصبح ليس هناك من فارق بين النساء أو الأطفال والعجزة ، فأخذت تقتل كل من يمت لذلك العرق من الدرجة الثانية ، وفقاً لقوانين نورمبرج النازية العنصرية بأن كل من اجداده كانوا يدينوا باليهودية فهو يهودي حتي كل من تحول من تلك الديانة لديانات أخرى تجرى عليه أحكام وقوانين العنصرية، وعلى فرق القتل السريع ان تقتله بعد التأكد من هويته وتتبع خطواته هو وأسرته، وكانت تقوم بذلك بعد طرق ابوابهم بكل ثبات وثقة أو تتبعهم في الشوارع والطرق فجأة توقفت هذه الفرقة الخاصة عن فعل ذلك بحجة أن القتل وجماً لوجه يرهقها عاطفياً ، وقرر الحزب النازي التخلص من اليهود بالأبادة الجماعية ، رافة لمشاعر الفرق القتالية !!

أبتسمت بألم وهي تقلب في الأوراق التي كتبتها عن الأفعال الإجرامية التي ترتكب من قبل النازية بعدما ملأت في كتابتها

الكثير من الأوراق أستجمعت جميع ما خزنه عقلها من دراستها للقانون ، ممنية نفسها بأن تنشر تلك الأوراق في جميع الصحف ببلدان العالم وأن كانت معظم دول أوروبا واقعة تحت الاحتلال الألماني ألا أنه هناك الجماعات الثورية المحتشدة في كل مكان والتي من صالحها أن تكشف للعالم الدموية النازية .

دخلا لقاعة الاجتماعات بذات الطريقة التي تسللا بها للنايت كلوب في المرة الأولى . كان في ذلك اليوم الكثير من الابتسامات تعلق الوجوه مطالبة بحصتها من الأمل .

__ أصبح من المؤكد خطف موسيلني من قبل الملك عمونايل وحكومة الانقلاب الإيطالية أعلنت مسئوليتها عن ذلك

أعلن ذلك رئيس الجماعة ليتعالى التصفيق والمباركات ، بينما ساشا الهارب من القوات النازية والذي يعلم تماماً كيف يفكرون قال :

__ لن يسكت هتلر عن ذلك فلن يضحى بموسيلني فهو ورقته الراجعة في الحرب .

__ نعم من المؤكد انه لن يسكت عن ذلك، فالطلائحة حلفاء عظام لهتلر وروما هي الشركة المخلصة لألمانيا ، ولكن حكومة الانقلاب مؤكّد تنوى تسليم موسليني للحلفاء .

كان أحد الجالسين يدون شيئاً فصاح فيه الرئيس بأن تلك الأمور الجد خطيرة لا يحق له بتدوينها في أى من أوراق .

في أثناء ذلك فتح الباب سريعاً لتخرج منه أحد الفتيات من الواضح أنها إيطالية وتمسك بيدها رسالة جاءت على اجهزة التيكور، تلك الأجهزة التي ترسل الرسائل الكلامية بشفرات خاصة . نظرت أيضا من الباب الموراب لترى المكان بالداخل والذي كان كخلية نخل عدد كبير من الفتيات بأعمار مختلفة وأشكال مختلفة كلاً منهن تجلس أمام جهاز للتيكور بينما اجهزة التيلفون لا تتوقف عن الرنين وقتها إيقنت أيضا أنها داخل جماعة لها أهمية واهداف خطيرة تسعى لتحقيقها والا ما كل هذا ؟! أخذ الرئيس الورقة التي سلمته له الفتاة التي كانت على عجل حتي إنه لم يعينها أن تنظر لطاولة الأجتاع فرجعت ادراجها مغلقة الباب ورائها بينما نظر الرئيس مطولاً في الورقة ثم قال :

__ أعلنت الحكومة الإيطالية بأنها ستظل حليفة لألمانيا حتي يتم الوصول لمكان موسليني .

قهقه الرجل بصوت عالي:

__ أنها لعبة ايطالية واضحة تماماً فالملك عمانويل ورئيس وزرائه الجديد (المارشال باديليو) يلعبان على الوهمين بأطمئنان فمن ناحية يؤكّدان لهتلر أنها بجانبه ومن ناحية أخرى يفاوضان الحلفاء على الصلح وفي يدهما ورقة رابحة وهي تسليم موسليني لهم .

علق أحد الأعضاء :

__ ومؤكّد هتلر لن تدخل عليه تلك اللعبة .

__ لقد بقي القبض على موسليني وهو يغادر قصر الرياضة، ثم تحركت به عربة أسعاف إلى حيث لا يعلم أحد، وبعد ذلك أنتشرت مئات الإشاعات عن مكانه و هي إشاعات لا تمت للواقع بصلة وإنما هي حكمة الشعب الإيطالي و ولعه في حبك القصص وترويج الإشاعات كما أن الحكومة نفسها تطلق هذه الإشاعات حتى تضلل الجانب الألماني .

استمر الأجتاع لأكثر من الثلاثة ساعات متواصلة وأنقضى ما بين يأس و رجاء في تسليم الحكومة الإيطالية موسليني للحلفاء وتخلياها عن هتلر وبذلك سيكون موقف المانيا ضعيف جدا . قبل انتهاء الاجتاع قرأت جزء من الأوراق التي كتبها، أشاد الجميع لعملها على كشف تلك الحقائق الإجرامية ووعدها الرئيس بأنه سيقوم بنشرها في عدد كبير من صحف العالم . كما طلبت منه تنظيم وقفات تندد بما يرتكبه هتلر في حق اليهود برفع لافتات ضد انتهاكاته وافق أغلب الأعضاء على هذا العرض بينما كان لرئيس الجامعة رأى مختلف .

__ ولكن تلك الوقفات ربما تلقى بعض من الضوء على تنظيمنا السري!

قاطعه أحد الرجال:

__ يعد هذا التوقيت الذي تلفظ فيه المانيا أنفاسها الأخيرة مناسباً تماماً لرفع تلك اللافتات .

ردت إيفا :

__ ستخرج مظاهرة كبيرة تضم أعدادًا كبيرة من يهود مصر سوف نعلن عن أهدافها وتوقيتها في المعابد اليهودية وسنجعل الحاخام الأكبر بنفسه يدعو لها وسنقوم بتحضير عدد كبير من اللافتات ونخزنها في المعابد حتي صباح يوم المظاهرة التي ستخرج منظمة من المعابد اليهودية بعد توزيع تلك اللافتات على المشاركين .

أعقب أحد الأعضاء :

__ وهذه الطريقة لا يمكن لأحد أن يتخيل أن تلك المظاهرة، ينظمها تنظيم سري بل الطائفة اليهودية بأنفسهم .

قهقه صوت من آخر الطاولة :

__ أى مظاهرة؟! وأى وقفة تلك التي نتحدثون عنها ؟ هناك أكثر من ست معسكرات للأبادة تعد بمثابة مراكز للقتل وقد صممت خصيصاً لتنفيذ عمليات الإبادة الجماعية بالقتل بالرصاص أم بالغاز بالإضافة للمجاعات ، الخارجية الألمانية تلح على الدول المتحالفة والدول المحتلة لمساعدة الألمان في ترحيل اليهود الذين يعيشون في بلادهم ، فرنسا ، بلجيكا ، رومانيا ، بولندا ، نروج ، مجر ، إيطاليا ، بعض دول شمال افريقيا ، ايها السادة اليهود تتم إبادتهم وقتلهم على مرأى من العالم الذى لا يقوى على التدخل ، فأى وقفة !وأى لفتات ؟ تلك التي تفكرون في تنظيمها !؟

أصاب الجميع الحرس بعدما ألقى هذا العضو الحقيقة بدون رتوش وبدون تزييف في الوجوه ، ولكن إيفا الممتلئة بالثورة والتي لا تياس أبداً :

__ لم نعد أحد بأن تلك المسيرة ستنتهي الوحشية النازية ولكن يكفيننا شرف المحاولة أوليس أول الغيث يبدأ بقطرة ؟

ختم الرئيس الأمر بتوجيه كلامه لأيفا بعدما ضغط على زر لتفتح اليه فتاة من الغرفة الأخرى :

__ يمكنك إذن التخطيط مع هانا لكل ما تتوین فعله حيث ستوفر لك كل ما تريدين .

هانا فتاة يهودية بولندية فرت هي وأهلها الى مصر هرباً من النازية ، رفيعة وقصيرة ترتدى نظارة طبية غليظة فوق عينيها ، لم تهتم بالنظر لإيفا حتي اصطحبتها ورائها لغرفة العمليات التي تحتوي على أجهزة التيكور والتليفونات وتجلس عدد كبير من الفتيات في مكاتب متجاورة تستقبلن الرسائل ، كان صوت الأجهزة ورنين الهاتف لا يتوقف ويدعو للازعاج الشديد لذلك وجدت إيفا نفسها تضع يدها فوق رأسها بينما فهمت هانا ذلك فأصطحبتها لغرفة في آخر الممر بها طاولة وكريسيان من الخيزران .

__ إيفا سر كسيان .

مدت لها يدها لتصافحها :

__ هانا دمشري .

ثم التقطت أنفاسها وأضافت وهي تعد الأوراق وتبحث عن قلم . أثناء فرد إيفا للأوراق لمحت هانا على ذراعها وشما لنجمة دواد الذي
وشمت به عند دخولها للمعسكر ثم سألتها

_ هل أنت الفتاة الهاربة من المعسكر النازي ؟

_ نعم .

_ أن الفرار من ذلك المعسكر يعد معجزة !

وضعت الأوراق على الطاولة وحدثتها إيفا عن فكرتها عن المسيرة الاحتجاجية ، مرت ساعتان وهما ترتبان متي سوف تخرج المسيرة . وإلى
أى الطرق ستسير . وأخيراً كانت اللافتات بعبارتها العدائية التي تندد بالارتكابات رسمت إيفا شعار النازية وبجواره صورة لجمجمة .

وفي يوم السبت كانت جميع المعابد اليهودية تتحدث عن المسيرة وتوزع اللافتات على الرجال في المعابد الذين بدورهم سينشرون الخبر لنساءهم واطفالهم ويخرجوا في مجموعات كبيرة ليتجمعوا عند مكتب شئون اليهود بميدان العباسية . أخبرت إيڤا ديڤو بموعد واهداف المسيرة ولكن ديڤو لم تلقي بالأل لكلمات أيڤا ولم تهتم ، ولكن في صباح اليوم المحدد أصرت أيڤا ان تخرج معها وهي تحمل لافتات التنديد . أحبطت أيڤا في صباح اليوم عندما كان التجمع ضعيف ولكن عند الظهر كانت الوفود من كل مكان تأتي حاملة اللافتات ، حاخامات بملابسهم الدينية، رجال وشباب ، نساء وفتيات و الأطفال ، الكل يهتف في حماس لا للنتهاكات النازية في العالم و لا للمذبح اليهودية ...

وضعت ديڤو كوب اليونسون المحلى بالعلس على المنضدة الصغيرة التي تفضل ما بين الفراشين في غرفة نوم إيڤا قائلة :

__ ربما لم يكن عليك بالصرخ بهذا الشكل أنظري كيف أذيت احبالك الصوتية ؟

__ أحبالي الصوتية !

تطقتها بسخرية ثم أضافت :

__ دعيني أقص عليك قصة ربما وقتها ستبدلين رأيك بخصوص أنى أذيت أحبالي الصوتية .

في ليلة شتوية شديدة البرودة علمت تماماً ما ينتظري في هذا المكان فقد استقبلن رجال الوحدة الخاصة باللكمات والضرب بمؤخرة بنادقهم ونباح كلابهم الذى لم يتوقف منذ وصولنا في طوابير لا نهاية لها، كان تسجيل اسمائنا في دفاتر خاصة يستغرق ساعات طويلة وبعد التسجيل نقوم بأرتداء ملابس قذرة مستعملة و ملوثة بالدماء والبراز على ظهرها أشرطة حمراء، وكلل سمجينة رقم مسلسل و وشم خاص يدق على ذراعها واخيرا كان يجب التقاط ثلاث صور فوتوغرافية لكل منا ، ثم نقاد كالنعجات لمكان يسمى الفيزا مكان فسيح يخلو من الناس تحف به من جهة دورات المياه برائحتها العطنة ومن جهة أخرى يجذنا سور مكهرب ،كنا نجلس في الوحل في درجة حرارة تحت الصفر ونعاني من جوع وعطش وبرد حتى أن الكثير من السجينات لم يحتملن تلك القسوة ومن فرط اليأس أقدمن على السور المكهرب ، حتى يهين تلك المأساة بأنفسهن ، وخاصة بعد عمليات الفرز التي فرقتهن عن أحبائهن وأقربائهن ، الذين قد سيقوا مباشرة لغرف العاز نظرًا لعجزهن أو مرضهن أو حتى لمنظرهن الذى لم يجوز على أعجاب المسؤولين . وربما كانت أى إحداهن فقد كانت تعاني من نحافة مفرطة وضعف عام خاصة بعد أن عكفت عن تناول الطعام منذ القاء القبض علينا . ثم وصلنا للمعسكر الذى كان ينتشر فيه جميع الأمراض المعدية بالإضافة للحشرات والفئران كانت السجينات من فرط البرد والمرض والجوع يقعن على الأرض موتى دون أن يلتفت لهن أحد!

ونظرًا لصعوبة حصر عدد النساء في الطابور اليومي للصباح والمساء كان النداء علينا يبدأ في الثالثة فجرًا ويستمر الى الظهر فكان الكثير منهن ومن فرط الوهن والتعب يسقطن مغشيًا عليهن ، هذا بخلاف صافرة خاصة لها معنى واحد هو الأباداة . كن تتساءل عند سماعها من منا يا ترى ستنجى ومن منا لا ؟ نصطف في طابور طويل وتطوف مشرفة بين الطوابير تلكز من يقع عليها الأختيار بعصاها الخشبية حتى تخرج من الطابور وتسعد للذهاب الى ساحة الموت حيث تكنظ الكثير من النساء من مختلف أنحاء العالم كل منهن تقوم بخلع ثيابها

وتقف في خجل تدارى بأحد يديها عورتها وهي ترتجف برداً وخوفاً أمام "ميجيل" وهو القائد المختص بأختيار النهاية لحياة هؤلاء النسوة يقف يتفحص كل أنثى ويختار صحاباه بروية وعناية .

__ يا الله ما كل تلك الوحشية ؟ ما بال هؤلاء الناس ؟ لماذا كل هذا ؟ ولكن كيف نجوت من تلك المأساة ؟

كانت قد أنهت من تناول كوب اليونسون وشاحت بنظرها لبعيد وهي تجيب :

__ بعد ذهابي للمعسكر بحوالي الأسبوع كانت قد تكونت فرقة عقاب خاصة بقيادة طاغية اسمه "مكروس" حيث منح الحق للحراسات الألمانية بتأديب السجنات بالضرب و في أحد الصباحات أُخترت مع تسعين سيدة من يهود فرنسا للذهاب للحقل لزراعته وعندما أستبد بنا التعب والجوع توقف عن العمل وأبلغت الحارسة الخاصة القائد مكروس بذلك فطلب منها أن تقوم بتأديبنا . فما كان منها سوى أنها هوت على رؤوسنا واجسادنا بالفأس الحديدية وتراكت اجسادنا الواحدة فوق الأخرى . كان من نصيبي ضربة حادة على مؤخرة رأسي ادخلتني في غيبوبة ظنوا معها أنني قد فقدت الحياة لذلك نقلوني مع الجثث الباقية للمدافن بدون كشف طبي علينا بعدما أمرهم مكروس بذلك خوفاً من بطش القائد مينيجل عليه إذا هو علم بذلك . وضعوا أجسادنا في شاحنة ممتلئة بروث الحيوانات لتختلط مع الجثث وعلى حافة الطريق حيث المقبرة الجماعية التي وجدت هناك للذين لم يمنحهم القدر فرصة أن يكابدوا النذل والمهانة وقد لفظوا أنفاسهم الأخيرة وهم في طريقهم للمعسكرات ، مجرد حفرة كبيرة تلقي فيها الجثث بدون الأهتمام حتى أن يردموا فوقها الرمال . فتح السائق مؤخرة الشاحنة التي وضعها على حافة الحفرة وبمجرد فتح الباب كانت قد انزلت الجثث الواحدة تلو الأخرى . كنت قد أفقت من الغيبوبة وأنا في طريقي للمقبرة وفضلت أن أدفن حية على أن ارجع مرة أخرى لألقي مصيري في المعسكر ظناً مني بأن تلك الجثث ستلقي أحترام الدفن وتردم بالرمال ونظراً لأنهم لم يشغلوا أنفسهم بمشقة الردم فقد منحني عمراً جديداً أنتظرت حتي حل المساء وخرجت من المقبرة بأعجوبة ومشقة بالأضافة للأوجاع من جراء ضربة الفأس على مؤخرة رأسي وتضوري من الجوع لعدم تناولي الطعام منذ الصباح فكنت اسير ملطخة بالدماء ورائحة روث الحيوانات كانت تفوح مني ، وبالرغم من كل ذلك كنت مصممة على الهرب لأبعد مكان . أخذت أسير لمسافة طويلة لحقل بعد آخر في طريق ريفي وعندما لم تعد قدي قادرة على حملي وجدت نفسي وقد سقطت وسط حقل للقمح وهناك وسط سنباله لا أعرف كم مر على من وقت وأنا مغشي على ؟ أفقت لأجد نفسي على الفراش بملابس نظيفة ورائحة الصابون والمطهرات الطبية تفوح مني وقد ضمدت مؤخرة رأسي بضادة طبية . أخبرني مسيو مارشال الفلاح البولندي أنه وجدني وسط سنبال القمح وحملني للبيت ومن مظهري الرث و الوشم على ذراعي علم أنني هاربة من المعسكر وكان سؤال واحد هو الذي يلح عليه كيف أستطعت الفرار من السلك المكهرب ، والكلاب النباحة ؟

أخبرته أنني فررت من الموت وليس من المعسكر. كان رجلاً طيباً ورحيماً لم يشأ أن يبلغ عني السلطات وفي الوقت نفسه رفض أن يقوم باستضافتي أكثر من ذلك حتي لا يتعرض للموت ، فكانت عقوبة أيواء الفارين من المعسكرات النازية هي الموت رمياً بالرصاص على الفور بدون محاكمة. أردت زني الفلاحات البولنديات الذي يخص زوجته وكتب لي عنوان شخص وأكد لي أنه سوف يقوم بمساعدتي . وكان هذا الشخص أحد أفراد المقاومة السرية التي تعارض سياسة هتلر وتساعد اليهود في الفرار من المذابح التي ترتكب بحقهم ورتب لي هذا الرجل مكان في قبو أحد السفن التي سوف تبحر في البحر المتوسط . كنت أعلم وقتها أن تلك الباخرة ستشق طريقها في البحر المتوسط

وسترسو في الكثير من الموانى وعلى حد قول الرجل أنها في طريقها لاثينا وكازابلانكا ففضلت أن أذهب للمغرب حيث هناك عدد كبير من اليهود العرب، ولكن عندما سمعت يوماً أننا في ميناء الأسكندرية فرحت فرحة عارمة، وركضت لسطح السفينة ومنها للبر.

__ أى احداث بأئسة تلك التي شاهدتها !؟

__ هي أحداث لن تُنسى يوماً وخاصة ملامح تلك الحارسة الألمانية الجامدة وقوامها الذى يشبه كثيراً قوام الرجال تلبس زى الحراسات الرماذي الذى يتوقف طولاه تحت الركبة بقليل لتظهر عضلة ساقها وجورها الأبيض القطني وحذاء اسود عسكرياً و تقف فارجة ساقها وهي تمسك بالفأس وتقوم بتحطيم رءوس السيدات بدون شفقة أو رحمة ولكن لن أدعها تنجى بفعالها أبداً .

__ ماذا تنوين أن تفعلني ونحن أصبحنا كالجرذان نخشي الخروج من الجحور؟

__ تأكدي أنه لن يطول ذلك الأمر كثيراً ، وسأفصح كل هؤلاء وبالذات تلك الحارسة، فقط لو أستطيع أن أتذكر اسمها لقد أقدتني تلك الضربة جزء كبيراً من الذاكرة وخاصة الأسماء والأرقام ، فيما عدا ذلك، فألأحداث باقية كما هي تأتي أن تُنسى ولكنها عصية عن النسيان .

__ ومن عساه أن ينسى أحداث مثل تلك؟

__ والأن هل مازلت تهيمن بأحبالي الصوتية ؟

أبتسمت ديدو بألم وتركبتها لتذهب لتفتح الباب الذى كان يرن جرسه بالحاح .

ورابت ديدو الشراعية الزجاجية لتفاجأ بفتاة أنيقة وجميلة تقف أمامها مبتسمة وهي تسأل :

__ هل هذا منزل ناديا ؟

__ نعم ولكن من أنتِ ؟

__ أنا إيمان زميلتها في العمل.

أوصدت ديدو الشراعية في وجه الضيفة بعدما قالت لها " انتظري " وتركبتها لتخبر أيفا أن هناك زميلة لها بالعمل. فتضع إيفا سريعاً القبعة الصوفية على رأسها لتخفى بها صلعتها .

كانت إيمان تسير وراء ديدو وهي تتفقد المكان المنزل المعتم إلا من بصيص لضوء السهارة المقادة في السقف بينما علقت عينها على نجمة دواد المعلقة في الصالة فشعرت بقبضة في الصدر .صاحت إيمان بأسم صديقتها بمجرد رؤيتها ثم ضمتها لها بحنان . أخبرتها أنها كانت قلقة عليها لتغيبها عن العمل اليوم بدون سبب ، لذلك كانت قد فكرت المرور عليها لتطمئن أنها لم يصيبها مكروه وشجعها على ذلك أخيها أحمد .

أندھشت أيفا عندما علمت بتشجيع أخيها لها على زيارتها فرددت اسمه :

__ أحمد !

__ نعم أحمد أنه حتى ينتظري بالسيارة .

أبتسمت بحبث ولكن أيضا تجاهلت الموضوع . أخبرتها أن سبب عدم ذهابها للعمل هو اشتراكها في مظاهرة تندد بالعدوان النازي على العالم و اليهود وخرجت هي والطائفة اليهودية في مظاهرة كبيرة .

__ نعم لقد رأيتها تطوف الشوارع , ولكن هل تعتقدين بأن تلك المظاهرات ستتهي الجرم النازي ؟

__ أن لم تهييه على الأقل ستحد منه .

__ عزيزتي أيضا دوماً أراك حزينة ، حتى أنك نادراً ما تبتمسين بعض الزملاء في العمل فسروا ذلك على أنك متعالية ومغرورة ولكني أعلم أنك لست كذلك ، مؤكداً هناك شيئاً كبيراً ألم بك ، لو تخمين أن تحكي لي كلي اذآن صاغية .

__ وهل تعتقدين ما يحدث في العالم امراً هيناً! انظري في الصحف وأنت تعملين كم قتيلى يقع يومياً ؟

صمتت أيمان لم تتفوه بكلمة . بينما دخلت ديدو الغرفة ووضعت كوباً من عصير الليمون البارد على صينية فضية قديمة وأبتسمت في وجه ايمان ومضت .

__ هل هذه السيدة التى تقمين معها ؟

__ نعم.. بالرغم من مظهرها القاسي ألا أنها كثيرة الطيبة .

غادرت أيمان بعدما الفت تحية المساء على ديدو التى كانت تجلس فى الصلاة وتضع الغطاء الصوفي فوق ساقها وتتدلى جدائلها من أسفل المنديل القطني الذى عصبت به رأسها .

أغلقت أيمان باب السيارة ورائها وهى تصيح :

__ أووووووف

أدار أحمد موتور العربة وسألها :

__ ماذا حدث ؟

__ لا شيء ولكن المنزل وهذه السيدة والأثاث والإضاءة المعتمة كله يدعو للأكتئاب ربما لذلك هى دوماً مكتئبة أى شخص مكانها كانت ستصيبه تلك المشاعر

__ ليس كل الناس يقيم فى الفيلات والقصور والاماكن فائقة الأناقة مثلك أيمان .

__ أنا لن أتحدث عن فيلات أو قصور هناك شيئاً يبعث على الحزن والأكتئاب.

__ دعينا من ذلك وأخبرني كيف حالها ؟

__ أبدأ هي بخير كل ما هنالك أنها لم تأتي اليوم لأشراكها في المسيرة اليهودية التي تندد بالنازية .

__ بالارفة مشاعرها ! قبطية وتشارك مع اليهود في مسيراتهم .

__ قبطية ! من قال هذا ناديا يهودية .

دوي صوت ضغطة المكاح لقوية وأحتكاك أطارات السيارة بأسفلت الطريق وصوت صياح يردد :

__ يهودية !

خلفت زيارة إيمان لإيفا في ذلك اليوم وراءها الكثير من التساؤلات . هل كان تشجيع أحمد لأخته لزيارتها وقلقه عليها تعبيراً عن المشاعر التي وشت بها عيناه في ذلك اليوم ؟ وهل تلك المشاعر قادرة على هزيمة تلك الأشياء القوية والتي تعتبر من أكبر العراقيل التي تقف في مواجهة الحب والزواج كالدين والعرق !؟ ربما هي أيضاً شعرت بانجذاب ما تجاهه هناك شيئاً ما تبته رجولته في صمت لا يمكنها تجاهله ولكنها هي المتخمة بالأوجاع والألم هل بإمكانها أن تقع تحت سطوة تلك التفاهات ؟ فما الحب بالنسبة لها سوى فوضى من المشاعر والأحاسيس نفور وتثور ثم تهدأ رويداً رويداً بعدما يفوت الأوان ونقف في ذهول ونحن نتساءل هل هذا الشخص هو من أحببناه حقاً؟ لا لن تستسلم لتلك المشاعر ، هناك هدف ما وقضية تسعى إليها ولن تترك الفرصة لأي شيء ليتسلل بداخلها ويشغلها ولو بقدر بسيط عنها . هؤلاء القتلي الأبرياء من مختلف الأعراق والأديان في شتى أرجاء العالم وتلك الأجساد التي تزج في القطار الليلي ومنه للشاحنة التي تلقي بهم في مواجهة النار والبركان بمعسكرات النازية .

في هذا الكازينو على النيل كانت إيمان وأحمد يتناولوا عشاءها من اللحوم المشوية ، نوافذ المطعم مغلقة لبرودة الجو ولكن كان بإمكانها مراقبة جريان ماء النهر من خلف النافذة الزجاجية .

__ غريب أنت حقًا ، وما الفارق في أنها قبطية أو يهودية المشكلة تكمن في أنها لا تدين بالأسلام عدا ذلك سيان !

__ لا عزيزتي علينا تقبل فكرة الآخر بمن يدين بالقبطية أما اليهود فهناك دوماً حائل فيما بيننا وبينهم .

__ يا لسذاجة الأفكار ، الدين لله والوطن للجميع مالنا ومال يهودي أو قبطي أو مسلم ، كما أنك رجل ويحق لك الأرتباط بأى امرأة تدين بأى دين .

__ أى سذاجة أفكار تلك التى تهميني بها ! أنها حياة ونسب واطفال !

قهقهه بسخرية حزينة :

__ تخيلي رد فعل أليك مثلاً عندما أخبره بأني سأصطحبه معى ليخطب لي فتاة يهودية !

__ أتخيل طبعاً.

في ذلك الصباح فى البنك كانت تخطو متأققة فى تاير كاروهات من الصوف وحقية يد غزلت بخيوط الكافاه لمشهد غرامى لروميو وجيوليت بيد من العاج البني كانت قد أبتاعتها بالأمس من محل شيكوريل* بقصر النيل ، بعدما حصلت على راتبها الشهري وأوفت بوعدها لديدو وأعطتها قسط وافر منه .

__ ما أجملك فى هذه الملابس .

__ شكراً إيمان .

__ وما أخبار تلك السيدة غريبة الأطوار ؟

__ تقصدين ديدو ، أنها ليست بغريبة الأطوار ولكن على ما أعتقد هناك أمر ما حدث لها بجياتها جعلها لا تحب الحديث او الخوض فيه .

__ ولم تخبرك عنه ؟

__ أعتقد أنه سر أو ذكرى حزينة لا تريد أستدعائها من الذاكرة .

__ دعيني منها الآن ، هناك حفلة فى فندق الأوبرج ليلة الخميس ، ستكون حفلة كبيرة ومهمة سيحضرها صفوة المجتمع وربما الملك ايضاً .ما رأيك فى الحضور ؟

__ اعذريني إيمان. أنا حقًا لا أحب حضور الحفلات.

__ لماذا ربما تعدل من حالتك المزاجية موسيقي ورقص وأغانٍ وشواء في الهواء الطلق .

__ شيء واحد بإمكانه أن يعدل من حالتى المزاجية .

همست لنفسها وهى تغادر المكتب ويدها بعضاً من الدفاتر تحتاج إمضاء المدير .

فى الردهة التقت يوسف الذى أخبرها مراراً أنه ليس من الجيد أن يراها أحد وهما يتحدثان معاً داخل أروقة البنك لذلك لقاؤها به لم يتعدى الدقيقة تبادلًا فيها تحية الصباح، وأضاف هو قائلاً :

__ فى السابعة اليوم بمكاننا المعتاد ولا تتأخري هناك أجمع هام وعاجل .

ابتسمت ومضت فى طريقها .

عندما ذهبت للبيت لم تكن ديدو بانتظارها كعادتها دائماً فى الإثنين الأول من كل الشهر وفى زيارتها السرية التى لم تفصح عنها ، لذلك لم تعترضها بأسئلتها الملحة وهى ذاهبة لموعدها، ترتدي تايورها الجديد وحقيبتها التى لاقت أعجاب الجميع، وربطت فوق رأسها إشاربًا حريريًا لبرودة الطقس بالخارج وغادرت .

كانت فى انتظاره عند حافة الطريق مشغولة بالنظر على فستان معروض فى فاترينة المحل ،عندما وجدت يد تمسك بيدها وبدون أن يتفوهها بكلمة كانا يسيران بمحاذاة كلٍّ منهما بالآخر . هى بحقيبتها من الكافاه وهو بقبعته الخوصية بحافات من الجلد . يتطير فستانها الكلوش فيلامس قماشه الناعم من الحرير بنطلونه الخشن من الصوف الأنجليزى بينما احذيتها السوداء اللامعة تخطو متهمة وحزينة على حصى الطريق .

__ يوسف هل تحب مصر ؟

__ وهل هذا سؤال ؟

__ ولكن أنت تساعد الحلفاء ضد المانيا والمصريون يعتقدون أملهم على هتلر وروميل، حتى يخلصهم من الاحتلال البريطاني ويكسر شوكتة ؟

__ وهل تعتقدي بهزيمة بريطانيا على يد المانيا ستنال مصر استقلالها؟ هل ستدعها هكذا المانيا بمتهى السهولة تفلت منها ، بل ستحكم قبضتها عليها . و وقتها سيشفرون بالندم وسيعلمون أن الأنجليز على قباحتهم ألا أنهم أفضل منهم بكثير ، فى كل الأحوال أنا أساعد العالم كله للتخلص من هذا الطاغية الذى إذا أحكم قبضته على العالم بفوزه فى الحرب وإقامة الإمبراطورية الألمانية التى يطمح إليها، وحده يعلم الله ما مصائر الشعوب وقتها .

ثم نظر اليها طويلاً وسألها:

__ وأنت ؟

__ أنا ماذا ؟

__ ماذا عنك هل تحبها ؟

بعد نفس عميق

__ لقد ولدت هنا وقضيت أسعد أيام عمري حتى بعد سفري لفرنسا كنت أشعر لحنين لهذا البلد، لأرضها ،لسماؤها ونيلها وشمسها ، وبحرها .. حتى لرائحة خبزها ولكن كان هناك دوماً إحساس بالغرابة يعتريني سواء وأنا هنا أو هناك ،أحساس بأني لا أتمي الى أرض .نعم أملك هوية فرنسية ولكني أشعر بأني لا أمت لذلك الوطن بصلة ، أشعر أني غريبة هنا وأشعر أني غريبة هناك أنه ذات الأحساس الذي تملك أبي وذهب لفرنسا معتقداً أنه بحصوله على الهوية الفرنسية سيشعر بأنه فرنسي وباتمائه أخيراً لوطن سيكتب امام خانة الجنسية في بطاقة تحقيق الشخصية أنه منتمي له . ولكن على العكس استوحش بداخله الأحساس بالغرابة وأخذ يكبر يوماً بعد آخر وأخذ يحن لمصر للشوارع والبيوت والمقاهي وأصبح مشتت ما بين بلد لفظه يحن اليه وآخر أحتضنه ويشعر في الغربة فيه . ربما كنت مثل أبي أشعر بالخذلان من وطن ولدت على أرضه ورفض أن يمنحني الهوية وأنا كل شيء يصرخ بأني مصرية ، كنت على عكس أمي وديدمونة وأنت والكثير ممن لا يعيرون قضية الهوية أى اهتمام فهم مصريون من أباء وأمهات ولدوا وتربوا على أرض تلك البلاد وهذا وحده كافٍ .

__ ليس عليك أن تشعرني بالخذلان اليهود في مصر قوة لا يستهان بها أنهم المسيطرون على اقتصاد البلاد لو كنا قلة أو منبوذين كما تقولين لم نكن استطعنا أن نتبث وجودنا ونتحكم في اقتصاد بلد كبير مثل مصر . مصر ليست مساحة على الأرض أنها تخطت ذلك المعني بكثير إنها حضارة ورمز ليست حكراً على أحد أو ملكاً لأحد .

__ قولك هذا يفكرني بقول الأديب الفرنسي نرفال عند زيارته للشرق هو وغوتيه وقد أعتراه الدهول والدهشة من عادات وتقاليده وحميمية أهالي البلاد لذلك كتب أنه يشعر أنه شرقي ، فأتأتاك للوطن لا يتوقف فقط على أنك ولدت فيه .

__ ما المشكلة إذا ؟

__ المشكلة أني أريد أن أعلن عن ديانتي أمام أى جمع دون أن تتسع الأعين دهشة أو تدور أحاديث وتعليقات جانبية . أن نختلط ونلتحم وسط الجميع دون خوف أو خجل أو أحساس بعدم الترحيب بنا .

__ لا تلق اللوم على أحد، ولا تنس أن اليهود عامة لا يحبون الاختلاط وإقامة العلاقات إلا مع اليهود والأغرب من ذلك أن كل طائفة من القرائين والربانيين والسفارديم والاشكناز تعيش في عزلة عن الاخرى ويضعون حدود بينهم وبين بعضهم !

وهو ينفث في عود ثقاب كان قد أشعل به تبغته :

__ سوف نمر على مكان اريدك أن تريه قبل ذهابنا للاجتماع .

لم تحاول ان تسأله عن هذا المكان طيلة الطريق الذى كانا يختصرانه من الطرق والحوارى المتشعبة التى قادتهما فى النهاية لحي الموسكى وتحديدأ لمكان علقت على أحد جدرانه المتهالكة يافطة باهتة بحروف شبه محمية " حارة اليهود " و منذ أن دخلا للحارة كانت تضج بصخب المارة وروائح الطعام المختلطة مع انفاس البشر .

كانا سوف يصطدما بسيدة مسنة بدينة تجلس امام بيتها القديم مع جاريتها الشبه عمياء بملايس سوداء بالية تماما كانت احدهما تسأل الأخرى :

__ يا راشيل متي سوف تتوقف همومنا وامراضنا ؟

لتجيب الاخرى بصوت مائل للخنافة

__ فى الآخرة .

بينما تجلس امراة ترتدى الحبرة وهو الزي الخاص بهن لعقود طويلة من الزمان ، كانت تلك السيدة تجلس امام اناء كبير به زيت مغلى ثقلي كرات الزلايية ثم تقوم بأنتشالها من الزيت وتغمسها فى الشرابات او السكر وتضعها بعض ذلك فى قراطيس ورقيه وتبيعها للزبائن الذين أحشدوا حولها . وقف يوسف امام السيدة وطلب منها قرطاس بقرشين من الزلايية المرشوشة بالسكر ، بينما إيفا أخذت تدير رأسها تنظر لذلك المجتمع اليهودى الفقير الذى لا يزال يقطن هنا ويمارس كل طقوسه وعقائده منذ الزمن . تركها يوسف تنهر مما تراه فى هذا العالم الذى هبطت عليه فجأة . فى أحد الزوايا كان مطعم شعبي يرص مقاعده الخرازية امام طاولاته وكتب يافطة كبيرة مطعم " كل واشكر " الوجبة مقابل اربعة قروش اختار أى كمية من الأرز والخضار . على مقربة منه مقهى " جداليا " وهو مشهور عنه أنه يحوى النسبة الأكبر من العاطلين فى الحارة يأتي أثرياء اليهود طلباً فى مساعدتهم فى نقل أمتعتهم من مسكن لأخر ، او ليقوموا بتنظيفه لقاء مبلغ مالي ومن هذا المقهى تنتقل الإشاعات فمن ذهب يوماً ليعمل فى أحد بيوت الأثرياء يرجع فى النهاية ويقص واقع حياة لم يتعود عليها يوماً او يراها سوى عند هؤلاء اليهود من الأثرياء وتظل هوية واسعة بينها وبين هؤلاء الذين يقطنون فى تلك الحارة من فقراء اليهود ينتظرون تلك الإعانات والصدقات التى يعلن عنها الأغنياء منهم أو من المؤسسات الخيرية الخاصة بهم ، بأنها ستوزع فى اليوم الفلاني .

أستوقفت ايفا سيدة عجوز تحمل صاجاً فوق رأسها وهى تنادى " بوريك ، بوريك " وأعطت لها صدقة ما أن اخذتها السيدة حتى صاحت بالدعاء لها . أشار يوسف على شابة جميلة تدعى " ماريا المجنونة " تقدم رقصتها الخاصة فى ارجاء الحارة ويعتبرها أهل الحارة أنها جالبة للحظ السعيد ، بينما كان يمر بجانبها "جالورس" العرجي العملاق الذى تخصص فى حمل الأوزان الثقيلة ومنها الخزانات الحديدية؟ ، ومن شباك مفتوح فى أحد الأدوار السفلية كان يجلس رجل يدندن على أوتار عوده أشار لها يوسف قائلاً :

__ أنه زكى مراد والد الفنانة ليلي مراد .

الكل يتجه بسرعة نحو مصير ما دون الألتفات لأخر ، موظفو الطائفة ، إخصائيات اجتماعيات ، يذهبن لأعمالهن فى المراكز الطبية والأجتماعية ، والمتسولون ، والعاطلون ، والحريصون على زيارة المعابد اليهودية الموجودة بكثرة فى حارة اليهود على أختلاف طوائفهم .

كانا قد وصلا أمام إحدى البنايات الضخمة بشوارع جانبي تحفه الأشجار ويؤدي لنهر النيل مباشرة ، أنتظرا المصعد ضغط على الزر الخامس ثم ادار نفسه ليصبح في مواجهتها تماماً اخترق نظره عينها مباشرة وأبتسم قائلاً :

__ هل أدخرنى (البوطة) لخطبتى لا تخشين لن أطلب الكثير من المال سأرفا بجالك ؟

أبتسمت دون أن تجاوب.

وبأنامله كان يداعب بشرتها وتزلق لرقبتها ثم توقف المصعد فتوقف هو ، عند الزر الأول من فستانها الذى تبرز منه مقدمة نهديها . و مذهولة من نفسها كانت تتساءل لماذا فعل ذلك ؟ ومن الأجدر بها أن تسأل لماذا تركته يفعل هذا ؟

أمام باب خشبي كبير بشراعات زجاجية توقفا وضغط الجرس بعد رنة واحدة فتح الباب الخادم النوبي . قاد خطاها لغرفة كبيرة تفتح بباب كبير جرار فتحه لها ليدلها منه للداخل ثم قام بغلقه مرة أخرى . كانت غرفة مكتب بها طاولة كبيرة فى المنتصف جلس عليها خمس من الرجال وقتاة تجلس على مكتب فى إحدى الزوايا أمام آلة النسخ منمكة فى عمل ما . بينما رئيس الجماعة محاط بعدد من الرجال وجوههم مألوفة لها فقط ألتقت بهم مسبقاً فى الاجتماعات رحبوا بها ودعوها للجلوس .

تحدث الرئيس بعدما أحكم وضع النظارات على عينيه قائلاً :

__ يوماً بعد آخر يتقدم روميل إلى مصر أنه الآن بمرسى مطروح وأمامه عدة كيلومترات لا تتعدى المائة والخمسين حتى يدخل مدينة الإسكندرية ومنها للقاهرة .

رد أحدهم :

__ هذا الرجل داهية لقد رأى هتلر فيه القائد المناسب من بين رجاله ليرسله لشمال افريقيا لمساعدة حلفائه الإيطاليين ، أنتقل روميل من فرنسا ليبدأ مهمته الجديدة بعدما عين القائد الأعلى للقوات الألمانية وبعد عدة معارك استطاع أن يستعيد ليبيا من البريطانيين بعدما استسلمت له القوات البريطانية بطرق ووقع فى الأسر أكثر من ثلاثين ألف جندى بريطاني. أنها كانت بمثابة ضربة قوية لموتجمرى القائد البريطانى لقوات التحالف ورفى روميل بسبب تلك المعركة لرتبة مارشال .

أضاف الرئيس : وليس هناك من قوة فى إمكانها أن توقف هذا الرجل . هناك معركة مهمة ستجري قريباً وعلى ضوء نتائجها سيتحدد من الذى أنتصر فى الحرب .تعد المانيا لهذه المعركة خطة رهيبة و بمساعدة بعض رجالنا المندسين داخل القوات الألمانية أستطعنا أن نعلم أنهم يصنعون شيئاً يسمى " حدائق الشيطان " وهو زرع ألغام بمنطقة العلمين بالسواحل الشمالية ، لاستخدامها كخط للدفاع وللمواجهة ضد القوات البريطانية . هذا بالإضافة للألغام التى تقوم القوات البريطانية بزرعها أيضاً . ولكن الألغام يزرعها الجانب الألماني أشد خطورة فقد زرعت فى باطن الأرض رأسياًعلى أمتداد ثلاث طبقات بحيث إذا تم إزالة اللغم الأول ينفجر الثانى ، وبأزالة الثانى ينفجر الثالث ، وتعتبر مثل تلك الحقول كصائد لكل من يقترب منها من جنود او دبابات . الأهم من كل ذلك أن هناك شفرة خاصة لتفجير تلك الألغام ، إذا أستطعنا أن نصل إليها ، نضمن هزيمة فيلق الصحراء الألماني بقيادة ثعلب الصحراء روميل .

جاء صوت ذكوري حاد على الأغلّب أنه المائياً ينطق الانجليزية بصعوبة بالغة :

_ على الرغم من انتصارات الفيلق الألماني ألا أنه يعاني معاناة كبيرة الآن . أنا كنت بينهم وأعلم ذلك تماماً ليس هناك من صحة بما صورته وسائل الأعلام بأننا نسبح في مياه الواحات ونقوم بقلي البيض على اسطح الدبابات و ترقص على غناء " لولين مارلين" التي أشيع أنه أستمع إلى أغنياتها كل الجنود حتى هؤلاء الذين على الجهة الأخرى من الجبهة . هناك عدو أكبر من قوات التحالف أنها الصحراء والحشرات والشمس الحارقة وقلة المياه ، بل وندرتها . أعتقد أن الطبيعة هي التي تواجه هتلر بعدما يأس البشر على مواجهته ، كما هزمته ثلوج موسكو ستهزمه شمس الصحراء الإفريقية .

رد أحد الاعضاء قائلاً :

_ ولكن أن يعلن روميل بأن أمامه اقل من مائة وخمسين كيلو متراً على الأسكندرية فهذا خطر كبير وثقة أيضاً .

رد الرئيس :

_ هذا الرجل صنع منه المصريون شخصية أسطورية وهو يعلم تماماً أنه ينتظرونه ، ليخوض الحرب ضد البريطانيين في القاهرة ويلحق بهم هزيمة ثقيلة .

رد الجندي الألماني :

_ هناك فريق من رجال المقاومة منضم للقوات الألمانية يسمى " بالظباط الاحرار" وهم من المصريين .

همهمات واصوات عالية على أثرها قام الرئيس بالتصفيق بيديه قائلاً :

_ هدوءءءءءءء

ثم أستكمل حديثه بنبرة أكثر هدوء وثقة :

_ هناك زيارة مهمة للكونت (فون ستافنبرج) للقاء روميل في أحد الفنادق بمدينة الإسكندرية وهو ساعد الجنرال (اولبرخت) الأول و يجارب في تونس وهناك أخبار مهمة تخص معركة الفيلق الألماني بالصحراء وصلت له من "عرين الذئب" مقر أختباء هتلر وعليه إيصال تلك المعلومات لروميل والتشاور فيما بينها . سيحضر فون ستافنبرج بعد يومين في زيارة غاية في السرية وسيقيم بفندق البوريفاج بالاسكندرية. هذا الرجل لا يقل خطورة عن روميل وليس بأقل ذكاء ، و معروف عنه أنه يتمتع برحمة يفتقدها روميل في التعامل مع جنوده.

ثم وجهه نظره مباشرة لإيفا قائلاً :

_ إيفلين .. ستذهبن للأسكندرية وهناك ستقومين بمحاولة لقاء هذا الرجل والحصول منه على معلومات .

هول المفاجأة أربكها ولجم لسانها ، وأتسعت عيناها دهشة وأخذت تردد في ذهول :

_ أنا !!!

بالنبرة نفسها من الهدوء أجابها :

_ نعم أنتِ .. لا يوجد أنسب منك لقضاء مثل هذه المهمة . سواء في المظهر المحافظ أو جمالك الجذاب والأهم من ذلك كله هو أنك تعرفين كيف هم هؤلاء الناس وكيف يفكرون أليس صحيحاً !!؟

_ أى معلومات ؟ وأى رجل هذا الذى بإمكانى هكذا ببساطة الحصول منه على معلومات ؟ أنت تتحدث عن روميل ثعلب الصحراء وكولونيل فون ستافنبرج !؟

بهدهوء اجابها

_ لقد اخترت لك هذه المهمة لأنك تعرضت لأهوال كبيرة على يد النظام النازي ، وقد أكسبك هذا بالإضافة لكرهيتك لهم الكثير من القوة والشجاعة . كما أنك كنتِ قريبة منهم ومعاشرتك لهم تستطيعين التعامل معهم .

_ تقصد بالتعامل مع من ؟ روميل وفون ستافنبرج بكل ما يملؤهما من ذكاء ولؤم ويكل هؤلاء من رجال التجسس والمخابرات المحيطين بهما ؟!

أجابها دون أن يتخلى عند هدوءه :

_ وأنا لم أطلب منك أن تتقدمين إليهما و تقومين بتعريف نفسك لهما وتطلبي منها أن يمداك بالمعلومات ، الأمر أسهل من ذلك بكثير كل ما هنالك أنك ستنزلين بالفندق نفسه قبلها بليتين أنت والسيدة التى تقيمين معها التى ستذهب معك ، ثم تقومين بالمرور أمامها فى الردهة أو صالة الطعام ، و وقتها ستقومين بالنظر بعمق فى عين أيّ منها ، تلك النظرة التى فيها دعوة لشيئاً ما تتبعها أبتسامه خفيفة ، أو تقومين بأى من تلك المحاولات التى تقوم بها الأنثى لتلفت نظر الرجل إليها كأن مثلاً تلقيين شيئاً معك على الأرض كأنه سقط سهواً منك وهكذا ...
وعليك بانتظار ما سيكون . إذا حالفك الحظ فأنت الفتاة المسيحية المتدينة " ماديلين حنا جرجس " التى تعمل كمرضة بالمشفى الإيطالي بالقاهرة وعمتك " كرسيتين جرجس " ، كلامك سيكون مجرود وستحاولين الحصول على معلومات بدون أن توجهى أيّاً من الأسئلة :

بعد نفس عميق :

_ ستلقين حجراً صغيراً فى المياه الراكدة وتنظري إذا حالفك الحظ فرصة جيدة وإذا لم يحالفك فيكفيك شرف المحاولة . الآن ستدخلين للغرفة الأخرى لقياس الملابس لمهمتك الجديدة ، ملابس تناسب فتاة قبطية متدينة من أسرة محافظة .

دون أن تتفوه ذهبت مع سيدة فى منتصف العمر قادتها لغرفة مجاورة . كانت تخلع هذا وترتدى ذلك وهى تفكر كيف بإمكانها أن تفعل ذلك وهى التى نجت بأعجوبة من موت محقق فى أحد معسكرات النازية، هل جنت مثلاً لتذهب إليهم مرة أخرى بقدميها ؟ ماذا لو كشفت ؟ وأى مصير سيكون لها ؟ مؤكداً أنهم سوف يبحثون عن هويتها الحقيقية وسيعلمون أنها إحدى الفارات من معسكر نازي وذلك سيسضاعف الجرم . ثم أنها إذا رفضت فى الأشتراك فى هذه المهمة هل سيقبل الرئيس لتستمر معهم فى هذا العمل وأى نظرة محتقرة وقتها

سينظر لها ؟ فهي التي تنادي وتندد بالارتكابات النازية في حق اليهود والبشرية كلها، الآن وقد حانت فرصتها لتنقذ العالم فبأى وصمة عار سثوصم إن هي ترددت ؟

أخيراً كانت تنظر في المرآة لترى أن الملابس التي صممت لفنائة متدينة كانت تكشف عن ذراعها وتبرز نهديها ، لم تهتم بأمر نهديها ولكن أن تكشف ذراعها ويظهر الوشم فهذا معناه أنها ستقادم للأعدام رأساً . أنتظرت حتى أنتهت من قياس الملابس وخرجت للغرفة التي يدار فيها الأجتاع وأبلغت الرئيس بأمر الوشم .

أبتسم في هدوء قائلاً:

__ وهل تعتقدين أن أمراً كهذا سيغيب عنا ؟ ستذهبين لذلك العنوان لإزالة الوشم بأحدث الطرق ولن يصبح له أى أثر بعد ذلك .

فتح مطروف كبير وأخرج منه بطاقتين للهوية أعطاهما لها قائلاً

__ عليك أستخدامهما في تلك المهمة فقط ، وإذا شرحت للسيدة التي تقمين معها والتي سترافقتك في الرحلة ، أرجو أن تكثفي بأقل التفاصيل ، مثلاً اخبريها أنك ستذهبين لقضاء فسحة من الوقت .

تذكرت أن ديدو لا ترتضي أبداً بأقل التفاصيل .

__ أفضل الذهاب مفردى .

__ إذا ذهب بمفردك فسيكون مدعاة للشك والفضول أما إذا كنت في التراس تتناولين طعام أفطارك بمصاحبة تلك السيدة فسيكون الأمر طبيعياً، فناة وعمتها في رحلة للأستجمام بأحد الفنادق المطلة على البحر . ستستقلين قطاراً بعد غداً في التاسعة صباحاً ومنه ستركبين تاكسي ليذهب بك لهذا العنوان وهناك ستبتسمين في وجه عامل الاستقبال في الفندق وأنت تسأليه عن الحجز باسم " مادلين حنا " ولا تنسي أن تجعلي الصليب يتدلي من عنقك . في هذه الورقة جدول زمني دقيق يطلعك على ما ستفعلينه هناك ، كل شيء بتوقيت دقيق ومحكم .

تناولت منه الورقة وتفحصتها سريعاً في الساعة الثامنة كان عليها النزول من الغرفة لتناول طعام الإفطار و عند التاسعة تصعد مرة أخرى والساعة كذا ... تنزل للتريض بالردهة الأمامية بالفندق لمدة عشر دقائق ... ثم تفعل كذا .. و.. و..

واخيراً تمد يدها بزجاجة بها حبتان من الدواء واخبرها قائلاً :

__ أنه عقار السنائيد القاتل ، في حالة اذا كشفت وقبض عليك يمكنك تناول واحدة منه فهو سينقلك لعالم أكثر رحمة من عناهم لك.

كانت ستعذر ل عن أخذ الدواء ، ولكنها بدلت رأيها فماذا لو كشفت ، فهي مهمة خطيرة حقاً وأي خطأ بها سيقودها لحقتها حتماً .

وضعت الأوراق وعلبة الدواء في حقيبة يدها وغادرت بعدما شد على يدها بقوة وهو يصافحها مودعاً :

__ كوني على حذر .

وهي منذ متي لم تكن على حذر!! فمنذ وقوعها في يد القتلة كان لابد لها أن تحتمي بجذرها وتوجسها، فيا للحياة عندما تبدأ في تقليد الأدب، فكل ما يحدث لها كأنه نص روائي ليست هي إلا بطلته.

في الخارج كانت الأمطار تهطل بغزارة وكان الحصول على سيارة أجرة يعد معجزة، أحكمت لف الشال حول كتفها والأيشارب على رأسها بينما هو طوقها بذراعيه وقاد خطاها لشارع طويل سألته:

— أين نذهب؟

— لمنزلي.

— حتى تستكمل ما قد توقفت عنده في المصعد!!؟

— هل أصبحت كل الأشياء في حياتك مرفقة بأحاساس من الشك والريبة؟

— ربما!

— حسناً بإمكانني تركك هنا تتجمدين برداً في أنتظار سيارة أجرة لن تأتي أبداً.

لم تتكلم سارت بمحاذاته حتي باب بناية ضخمة، تنفست الصعداء عند الدخول، فاخيراً سيول الماء توقفت عن الهطول فوق رأسها ، أستدعي المصعد ودقائق كانت بداخل شقته .

في شقة شبه مظلمة إلا من إضاءة خافتة على الضفة اليسرى من نهر النيل، وأمام نافذة زجاجية تطل عليه ، تمددت على شيزلوج مبطن بالقטיפية الحمراء . صنع لها مشروباً دافئاً وضعه أمامها و زود المدفأة بمزيد من الحطب، وضع معطفها الصوفي امام المدفأة ليجف وبصوت شبه ناعس قالت :

__ أشعر أنني داخل متاهة لا نهاية لها ، لا قوة لي على المضي بين جنباتها . تصور نسيت أن أسير بأمان في شارع ، أعدت على نظرات فضولية ، شكّكة ، نظرات عدائية ، واخرى متربصة ، تمت لو توقعك في قبضة الموت.

عدلت من جلستها و كأنها تفيق من حلم أو كابوس أمسكت بكوب الشاي الساخن وأخذت تجول بنظرها في أرجاء المنزل .
__ بيتك أتيق .

ثم أمعنت النظر عند لوحة معلقة على الحائط لمركب توشك على الغرق وسط عاصفة بحرية حادة :

__ رامبرانت !

__ نعم أتعرفينه !؟

__ ومن الذى لا يعرفه، كنت أقف أمام لوحاته كثيراً اثناء ارتيادي المتاحف الفنية لاتأملها ولكن لماذا تلك اللوحة ؟ أنها حتى لا تناسب أن تعلق على جدار منزل ، هنالك لوحات رسمت فقط لتعلق على جدار المتاحف الكبرى التى يرتادها الناس لقد صنعها صاحبها ليشاهدا الجميع .

أمعن النظر للوحة وكأنه يشاهدها للمرة الأولى

__ كلما نظرت في تلك اللوحة أشعر أنني أحد أفراد هذا المركب المتأرجح وسط الأمطار الجارحة والأمواج الهائجة . يصارع الموت الذى يظل مترص به حتى ينال منه .

__ أتعلم فى الكثير من الأحيان لا أشعر أنك يهودى . فأنت لا تؤمن بتلك المعتقدات الخاصة التى تدور حياتهم فى فلكها الخاص . أنظر حتى أنك لا تعلق نجمة دواد على اى من جدران المنزل كعادة أي يهودي !

__ ومن قال أني يهودي ! ؟

__ كيف ؟

__ أنا أو من بوجود الله الواحد واكتشفت أن جميع الكتب السماوية تنادى بقيم ومبادئ واحدة المحرمات واضحة وثابتة، وكذلك الحلال
جميع الكتب السماوية ترفض الكذب، القتل، الزنا، الخمر، وطرق الصلاة على إختلافها إلا أنها تحمد الله وتشكره، لذلك دوماً كنت مع
اصدقائي من المسلمين مسلماً و وسط الأقباط فأنا قبطي، ومن لا يعرف ديانتى لا يستطيع أن يعتقد عكس ذلك .

__ وإن كان ما تؤمن به على حق، فلماذا يقاد اليهود لغرف الغاز والمحاقر فقط لأنهم يهود .

__ المشكلة الاساسية هي تنامي قوة اليهود في الغرب وخاصة بالمانيا وذعر هتلر منها

__ المشكلة ليست في عرق أو دين او قوة المشكلة في قائد مختلفاً عقلياً صدقه الكثيرون وتبعه الكثيرون وقاد العالم الآن المعارك كبيرة
توشك أن تقضى بهلاكه .

__ والأن دعينا من هذا الكلام , أنصتي.

كان صوت حبات المطر تنقر على النافذة بنظام وهدوء كمعزوفة حزينة .

__ من الواضح أنها لن تتوقف هذه الليلة .

__ وستقضى ليلتك هنا .

قالها وهو يقترب منها ، يجلس أرضاً تحت قدميها المسنودة على حافة الشيزلونج ، يخلع لها حذاءها ويطرف أنامله يداعب اصابع قدميها من
فوق جوربها الحريري . كان يداعبها ببطء مما جعلها تتنأب وتشعر بالنعاس ، ثم قامت مسرعة عندما تذكرت أن ديدو مؤكداً قلقة عليها .
أدارت قرص جهاز التلفزيون الأسود الذى وضع على منضدة حُشرت بين مقعدين ليأتى صوت ديدو بعد رنين طويل للهاتف.

__ خالة ديدو.. سأقضى ليلتي عند صديقتي إيمان الأمطار غزيرة بالخارج ومن الصعب العثور على سيارة أجرة.

__ حسناً، ليلة سعيدة .

قالتها ديدو بصوت ناعس ، فمؤكد أنها كانت لا تزال تجلس على مقعدها في الصالة تنتظر قدوم أيفا لتتأكد من غلق الباب بالمتراس ثم
تذهب للنوم وهي تشعر بالأمان . مسكينة ديدو، لو كانت قد قيدت للمعكسر النازي ربما كانت قد لفظت أنفاسها قبل حتي أن توضع في
الشاحنة

__ لماذا كذبتِ عليها ؟

__ وهل كنت تريد مني أخبارها أنى أبيت ليلتي في بيتك ؟

__ وما في ذلك ؟

__ تعتقد الخالة ديدو المزمومة سنتقبل ذلك !!

_ أني أتضور جوعاً سأذهب لأعد لنا طعام العشاء .

_ أفضل أن أنام بدون عشاء .

أجاب بسخرية

_ وهل تعتقدين أن مآدبة كبيرة وفحمة بانتظارك أنه مجرد طبق من البيض و بعض من الجبن و الزيتون

_ أمممم إذن فلا بأس .

كانت تتجول بأحاء المنزل تتأمله توقفت امام مجموعة من الصور الفوتغرافية موضوعة على طاولة ، كان بين مجموعة أصدقائه كعادته ليس هو الأوسم ولكنه بأبتسامته وجاذبيته كان هو الأروع . أنتبهت على رائحة جميلة تأتي من المطبخ لتفوح في أنحاء البيت فركضت سريعاً لهنالك ، أقتربت منه كان يقف امام الموقد مباشرة مشغول بما يعده .

_ يا الله ما هذه الرائحة الشهية !

ثم نظرت للإناء الذي يقلي فيه البيض بعدما وضعه على قطعة من خبز التوست أستقرت البيضة كما هي تماماً في منتصف الخبز بينما أخذ يقوم بقلبيها معاً بالزبدة .

_ أنتظري و ستندوقين أشهي بيض مقلي بالخبز المحمص هذا الطبق يسمى سلة البيض .

على مائدة خشبية مستديرة بمنصف المطبخ ، كانا يجلسان أحدهما في مواجهة الأخر في مواجهة بعضها للآخر يقضمان لقيامتهما .

تحدثت بنبرة اخفت عن المعتقد

_ ما أمر ذلك الرجل الذي يقولها ويمتهدى الثقة " تعمقي بالنظر في عينيه " ألهده الدرجة أملك عيون ساحرة !؟

وهو مشغول بزيتوته دون النظر إليها :

_ نعم تمتلكين .. ليس فقط عيونك هي الساحرة و لكن كل شيئاً بكِ ساحراً .

أبتسمت بغنع قائلة :

_ ألهدا السبب وقعت بغرامي ؟

نظر في عيناها مباشرة .

_ نعم ومنذ النظرة الأولى .

لا تعرف إن كان صادقاً بالفعل أم لا ، وعلى كل حال لم تحاول أن تشغل نفسها بالتفكير ، لقد قررت مسبقاً ألا تشغل نفسها إلا بقضية واحدة هي التي لا وطن لها ولا أهل وتعرضت لأشد أنواع العذاب ، فأى ترف هذا أن تحب أو حتى تكره !

خلعت الشعر المستعار وكان في نظرتها شيئاً من التحدي وهي تسأله :

__ والأُن هل مازلت ساحرة ؟

في غرفة الجلوس جلسا بمحاذاة بعضهما الآخر على كنبه جلدية تنكمش على نفسها داخل صدره ، بينما فرد أحد ذراعيه على ظهر الكنبه والأخرى طوقها بها . في جلستها تلك كان يلزمها أن ينزعا فتيل الذكريات ، ولكن الذاكرة كانت أدهى منها عندما نصبت لها كمينها . اخذ كلاً منها يحكي للأخر عن طفولته وحياته ، عن ما يحبه وما يكرهه وعن ما صنع يوماً ابتسامه او جعل الدمع ينساب .

منذ متي لم تشعر بالأمان والدفء هكذا ؟ غلبها النعاس على صوت تنفسه الهاديء . واستيقظت لتجد نفسها على ذلك الوضع ، تاملت داخل حضنه تريد أن تفرد ذراعيها لتنتاب. و بعين نصف ناعسة :

__ لا أصدق هذا هل قضينا ليلتنا هكذا ؟

__ نعم ، تصور !

نظر في ساعته كانت عقاربها تشير للسابعة صباحاً:

__ صباح الجمال إذا ..

وقبل أن ترد عليه كان قد أطبق على شفنتيا في قبلة طويلة ، تخلت فيها عن برودها وبادلته اياها . هي التي عاشت في فرنسا وسمعت الكثير عن سحر القبلة الفرنسية تلك التي يتبادلها العشاق في الشوارع والمقاهي ومحطات المترو وعند زواية الطريق ، ولكنها لم تجربها يوماً . للمرة الأولى تخلع فيها شفنتها حياءها وتلثم شفاه رجل . اخيراً تراجعت بنجل أنثوي وتوقفت . ترى هل كانت تعي وقع قبلتها عليه ؟

__ يجب أن أذهب الآن فموعدني مع الرجل الذي سيقوم بمحو الوشم في الثامنة .

لم ينطق وقتها ، ولكنه تأكد أنه سيظل يتوسد خسارات عمره عند تلك اللحظة . كانت أشهي وهي تهبط الدرج أمامه مولية له ظهرها ، يتأمل منحنيات جسدها ورشاقة قوامها ، وكأنها تخبره أنها لن تمنحه سوي العيش على قيد تصورها ودوماً سيجيا متقدماً بتخيلها .

أنهت سريعاً مهمة محو الوشم بتلك المادة الجديدة التي يمتلكها طبيب انجليزي يقطن في أحد شقق وسط البلد ، أستقبلها الرجل دون أن ينطق بكلمة ، وبعدما حدد موضع الوشم سكب بعد نقاط من مادة ما ، وتركها على ذراعها لمدة عشرة دقائق ، ثم وباللعجب كأن الوشم لم يوضع يوماً . اخيراً كانت قد تخلصت من حمل ثقيل كان يجسم على أنفاسها ، كلما وقعت عيناها عليه كان يجرس عليها الحزن والكآبة ، ويرجع بها لهنالك عند عتبات المعكسر عندما توقفت يوماً في طاوور طويل حتى يتم وشمها هي والكثيرات بشعار نجمة دواد التي تصنفهم على أنهم يهود ، ليلاقون العقاب الأكبر في هذا المعكسر ، لذلك أبتسمت وهي تنظر لذراعها وقد اصبح نظيفاً .وهما في طريقها بعد ذلك للبنك سألته

__ كيف على أن أخبر ديدو بأمر تلك الزيارة للأسكندرية وبتفاصيل أقل كما طلب مني الرجل وهي كما تعلم فضولية الاسئلة ؟

__ أخبرها أن هذا العمل مهم لمصر حتي لا يستطيع الألمان دخولها وهي ستكف عن الأسئلة وقتها .

__ لماذا ؟

__ لأنها تعشق مصر .

وفي ذلك اليوم في البنك كانت تجلس تفكر في تلك المهمة الموكلة لها ويظهر عليها ملامح الخوف والحيرة .

سألتها ايمان مندهشة :

__ هل هناك شيئاً ما أراك مشغولة البال كثيراً ؟

__ ابدأ أشعر ببعض الأرهاق.

على مائدة الغذاء حكمت لديدو بعضاً من تفاصيل رحلتها للإسكندرية وهويتها المزيفة، وعملت بنصيحة يوسف عندما أخذت تلاحقها بالأسئلة، أكدت لها أن هذا العمل لصالح مصر أولاً واليهود والعالم اجمع وأكثر اماناً أن لا يعلنوا عن شخصيتها الحقيقية فهذا في مهمة عمل قد أوكلت إليها . سألتها ديدو أى عمل وأي جهة التي أوكلت إليها المهمة فأخبرتها أنها ستحكي لها كل شيء في الوقت المناسب ، و وقتها توقفت ديدو عن طرح الأسئلة ولكنها كان يبدو عليها القلق .

وفي صباح كانت شمس الشتاء تحاول فيه أن تنفذ من بين الغيوم الكثيفة ، فيصل منها شعاع خفيف، ولكن على ضعفه ألا أنه كان ينشر الدفء في أرجاء المكان . وقتها على رصيف المحطة بحقيبة سوداء بها القليل من الملابس . ديدو كان ظهرها أكثر أنحاءاً ترتدي فستان من القطيفة السوداء و لفت حول كتفها شال من الكورشييه كانت قد عقدت خيوطه ذات زمن، بينما كان إيفا متأقفة في احتشام في فستان رمادي من صوف الجيرسيه، تتوارى من قلقها خلف نظارات شمسية كبيرة .

كان من الواضح أن هناك رجلاً ما بعته الرئيس لمراقبتها أو لمساعدتها إذا حدث مكروه فكان يتبعها إينا ذهبنا وهو على مسافة معينة منها لا يقطعها اقتراباً او ابتعاداً وعلى أي حال تجاهلته تماماً و لم تشغل نفسها به . خلال رحلة القطار كانت إيفا كثيرة القلق والتوتر حاولت أن تنشغل بقراءة كتاب ما ولكن كان فكرها مشغول بما هي مقدمة عليه ، على عكسها كانت ديدو التي جلست في المقعد المواجه لها وطيلة الطريق كانت تنظر من نافذة القطار على المروج الخضراء بدون أن تنبس ببنت شفة . بعد ركوبها السيارة الأجرة رددت إيفا على مسامع السائق :

__ فندق البوريفاج .

كان الجو بالإسكندرية على غير المتوقع أكثر دفئاً منه في القاهرة ، الشمس ساطعة وبعض من نسبات الهواء الباردة ، وبالرغم من ذلك كان يحجم على المدينة الحزن والخوف بعد تعرضها لأكثر من غارة قاتلة حصدت الكثير من ارواح المدنيين . و كعادة فنادق الإسكندرية في هذا الوقت من السنة كان الفندق يكاد أن يكون خالياً بسبب الطقس البارد ، بالإضافة طبعا لأمر الحرب فلم يكن في ردهة الاستقبال سوى رجل في منتصف العمر تقريباً وتعمر رأسه قبعة . يدخل غليونه ويحتسي القهوة وهو يطالع إحدى الصحف . نظرت حولها فلم تجد أى ترتيبات أمنية أو دليل على أن هناك زيارة على قدر كبير من الأهمية لتعجب الصحراء في هذا الفندق ، فكل شيء هادئ ، حتى تلك الموسيقى التي تبث في أرجاء الفندق من جهاز جرامفون قديم تبعث على المزيد من الهدوء ، حمل العامل النوبي الذي استقبلها عند مدخل الفندق الحقيبة السوداء ، وقاد خطاهما لمكتب الاستقبال، تذكرت إيفا نصيحة الرئيس بأن تضع ابتهامة على وجهها وهي تسأل موظف الاستقبال عن غرفة قد حجرت باسم :

__ مدموزايل مادلين حنا .

أخرجت ديدو الصليب الذي كان تعلقه في رقبتها و كان قد أختبأ داخل بإقة فستانها لتشهده في وجه الموظف تأكيذاً على أنها قبطية متدينة ترتدي صليبها .

سلمها موظف الاستقبال دلالية نحاسية نقش عليها رقم الغرفة مؤكداً :

_ أنها تطل على البحر مباشرة كما طلبت .

حصل العامل النوبي على الكثير من البقشيش بعدما وضع الحقيبة في منتصف الغرفة وقام بفتح الشرفة المطلة على بحر هائج الامواج ولمعت أسنانه البيضاء وهو يغادر .

ألفت إيفا بجسدها المنهك على السرير الوثير التي تنبعث من أعطيته رائحة النظافة بينما جلست ديدو على أحد المقاعد الخوصية في مواجهة البحر تتطلع إليه . بعد فترة استيقظت إيفا بعد حصولها على غفوة سريعة أستعادت معها نشاطها ، ثم لاحظت أن ديدو لازالت تجلس على مقعدها تراقب البحر وهي في عالم اخر .

_ أتخمينه ؟

_ نعم ، جدًا ، منذ الزمن لم أت لهنا بعدما كانت تلك المدينة هي عشقي ، ولم أكن أنوي الهجاء إلى هنا مرة أخرى لولا تلك المهمة الخاصة الموكلت ليها .

ثم وقبل أن تسألها إيفا "لماذا " ؟ أخذت تُدندن أغنية باللغة الإيطالية على قدر كبير من الحزن جعلت إيفا التي لم تفهم من معناها شيئاً تشعر بالحزن ، بعدما أنهت طلبت منها إيفا ترجمة الكلمات ، ولكنها أكتفت بأن أجابها قائلة:

_ أنها عن رجل ذهب بعيداً وحبيبته تلتقى عليه باللوم والعتاب.

ثم أخذت في الدندنة مرة أخرى وبنبرة أكثر حزنًا بعدما انتهت قالت :

_ أنها أغنية إيطالية عن البحر وزهور البرتقال تسمى " ارجع الى سورتو" حفظتها عن زوجي الذي أخذ يُعنيها يوماً بعد آخر حتى قام بالرجوع إلى هناك وكأنها لم تكن إلا نداء له من بعيد عبر البحر . كان مظهره وهو يغني متسمر النظرات إتجاه البحر وكأنه يعيد الكلمات مرة أخرى التي تأتيه من بعيد عبر مذياع قديم من أحد المقاهي على شواطئ إيطاليا .

دون أن تسألها ايها هل زوجك كان إيطاليًا ومتي وأين تعرفت عليه ؟ ولكأنما البحر فتح شهيتها على الحديث ونزع قفل الذكريات فأخذت تلوح بنظرها هناك للماضي البعيد وتحكي:

_ كنت منذ الصغر مولعة دوماً بذلك الصندوق الأسود الذي يشغل ركنًا في بيتنا ، وعند الضغط على أحد مفاتيحه يصدر رنينًا. أمي عازفة البيانو الماهرة كان من السهل عليها أن تنتبه لذلك وتأكدت من ميولي باتجاه الموسيقى والعزف على البيانو بالذات . فكنت دون اخواتي التي تستوقفني هذه الآلة ، وأنصت باهتمام لعزفها عليه ، علمتني أمي بعض المقطوعات الموسيقية البسيطة والسهلة ، ثم عندما وجدت أن موهبتي أكثر بكثير من مجرد وقت ضائع تشغله فتاة في عزفها على البيانو ، ألحقتني بمدرسة خاصة لتعلم الموسيقى ، ومنها التحقت بفرقة أوركسترا الأوبرا التي كانت تضم نخبة من أشهر عازفي الموسيقى في العالم ، وقتها كنا نعزف مقطوعاتنا الموسيقية في الحفلات التي تقيمها دار الأوبرا يوم الخميس من كل أسبوع ، وايضًا كنا نعزف في الحفلات الملكية المقامة على مسرح الأوبرا وفي الكثير من الأحيان كنا نصاحب الفرق الأوربية التي تأتي لتقدم عروضها على المسرح .

كان في حديثها هذا إجابة وافية عن التساؤل الذي طالما دار في رأس إيفا عن تلك المقطوعات الموسيقية التي تقوم بعزفها بأنامل متدربة ومحترفة.

في أحد الأيام أعلنت كلاً من الصحف والمجلات ودار الأوبرا عن قدوم عازف البيانو الأشهر في إيطاليا والعالم " انطونيو جوانديلا" ليقدم عدة عروض على مسرح اوبرا القاهرة والإسكندرية . أتذكر جيداً تلك الجلبة التي أحدثها وجوده على مسرح الاوبرا الكل يهمس بأسمه, الكل في انتظاره, التذاكر نفذت جميعها منذ اليوم الأول من طرحها في الأسواق ، الكل جاء متدثراً برداء الأناقة، وفاحت منه العطور الباريسية وكانت الفصوص الماسية تضوى في أعناق النساء اللاتي جئن يسبقهن أعجابهن بعازف بيانو يجمل الكثير من الوسامة الإيطالية ، بينما كنت أنا وافراد الأوركسترا نستمع إليه من بلكون مخصوص في دار الأوبرا . لم أنهر بأناقته ولم أنتبه لوسامته حتي لم تشغلني مقطوعاته الموسيقية التي أخذ في عزفها الواحدة تلو الأخرى . أكثر من كل ذلك بهرتني أستقامة ظهره الذي كان يخلفه لنا وهو يجلس بشموخ على مقعده امام البيانو الأبنوسي ، يعزف بيد والأخرى يحركها مع نغمات البيانو في الألحان التي تستدعي العزف بيد واحدة و يعزف مقطوعة صامتة بيده الأخرى , وكأنه يخاصر الأنغام ويبادلها الرقص على عزفه . ولمدة الساعة وجدت نفسي تائهة مرتبكة ومذهولة من أمري ، حتي أن يدي ظلنا لليومين متورمتين من أثار التصفيق له بكل ما املكه من أعجاب .

كان موعد الشاي مع الجاتوه كما هو مدرج في الجدول الذى تركه ذلك الرجل بيدها مصراً على أتباع حذافيره ، نزلنا للتراس الأمامي للفندق المطل على الكورنيش .كان شعاع دافئ لشمس الظهر تصاحبه بعض النسبات الباردة من الهواء ، تعصف بصفحات الجريدة التى وضعها الجرسون النوبي على الطاولة لتظالها. لم يكن يعلم أن فى أنتظارها أحداثاً على قدر كبير من الأهمية ستقوم ديدو بقصها عليها ومصرة على حكيها وكأنها بذلك تستعيد إحياءها مرة أخرى بينما كانت هي على شوق لتسمع.

__عازف بيانو مشهور ، ايطالى ، وسيم فى منتصف العمر تقريباً ، وقتاة يانعة ليست بمجال بنات بلده ولا تملك خبرة كافية بالحياة، ولكنها كانا يشتركان معاً فى عشقهما لنغات البيانو . عرفه مدير الأوبرا بعازفي الأوركسترا لم تستوقفه يومها الأبتسامة الواسعة أو رعشة يدي أعجاباً به ولكن عند سماعه لعزفي أثناء بروفة إحد المقطوعات الموسيقية التى كنا سنشاركه العزف بها وقف خلفي تماماً مردداً بصوت مفعم بالهدوء:

__ جراتسيا ... جراتسيا ... جراتسيا

ومن يومها وتوطدت علاقتنا بشكل كبير بالرغم من أنه لم يكن يتحدث العربية وأنا ايضاً لم أكن اتقن من الإيطالية إلا كلمتين (جراتسيا وتشاو) حتى الفرنسية التى أتحدثها بطلاقة لم يكن يتحدث منها إلا بعض الكلمات الغير مرتبة ، كانت لغة مختلفة هي المشتركة بيننا ونجيد تحدثها لغة الالخان .

تنفست بعمق وأكملت:

__كانت للحفلات التى أقامها صدى طيب وواسع عند الجمهور وخاصة تلك الحفلات التى أقيمت فى دار الأوبرا بالإسكندرية حيث عدد الأجانب من متذوقي الموسيقى الكلاسيكية كبير ، بالإضافة للجالية الايطالية التى كانت تذهب لحفلاته يومياً لتشجع ذلك القادم وبه شيئاً من روائح البلد . نظراً للنجاح المدوي الذى حققه طلب منه مدير الأوبرا أن يتعاقد معه بعقد سنوى .كان عرض مغربي بالنسبة له وخاصة لظروف الحرب العالمية الأولى التى كانت وقتها مشتعلة فى الدول الأوربية فتوقفت عن إقامة الحفلات ، فما الجدوى من سماع الموسيقى إذا كان دوي القنابل يعزف معزفته الخاصة . وقع على العقد وهو سعيد لأن أقامته ستكون بالإسكندرية حيث الجالية الايطالية الكبيرة ، والمدينة التى تشبه مدينته كثيراً ، و فى أحد الأيام أستيقظت من النوم لأجد نفسي واقعة فى حب هذا الرجل، مولعة بكل ما فيه ، بشرته البرونزية ، عيونه العسلية ، يده وأنامله، نعم مولعة بكل شيئاً به بدءاً من رأسه حتى أخمص قدميه .

لمعت دموعه فى عينيها لم تسطع أن تقفها ففرت هاربة على وجنتيها دموعه بمذاق الذكرى المر و توقفت بها عن الحديث .

نظرت أيضا فى الساعة كانت قد قاربت على الثانية والنصف وكان موعد الغذاء عند الثالثة فانتقلنا معاً لمطعم الفندق . وضع الجرسون أطباق الحساء واللحم و السلطة وتمنى لها شهية مفتوحة ومضى . وتذكرت أيضا فى اللحظة الأخيرة أن تطلب من ديدو إقامة صلاة الشكر كقبطيتين ، متدينيتين . لن تنسيا أن تشكرا الرب على عطايها.

__ أمين.

بتلك الكلمة ردت أيفا على صلاة ديدو ، التي نظرت حولها وهي ترشف من حساءها الساخن وتهمس قائلة:

__ ليس هنا من أحد سوانا وهذه الطاولة عند الزواية . لم أرى هؤلاء الرجال الذين نراهم في الأفلام بمعاطفهم وقبعاتهم السوداء يطوفون أنحاء المكان في حذر.

- إنها زيارة هامة وسرية ، والألمان على قدر كبير من الذكاء ، ربما هذا الجرسون أو البواب النووي أحد هؤلاء الذين تتحدثين عنهم.

أُتسعت عيون ديدو دهشة قائلة:

__ حقاً.

أنتهتا من الطعام ، ورفضت ديدو حلوى الجيلي التي وضعها الجرسون للتحلية ، وطلبت بدلاً منها محلبية المستكة ، سألتها ديدو :

__ ها ... ماذا علينا أن نفعل الآن ، أتمنى ألا يكون مدرج بالجدول أن نتناول شيئاً آخر ؟

__ لا.. أطمئني . ستذهبين أنت للغرفة لتتقنين فيلولة ما بعد الظهر وأنا سأجلس في اللوبي، لأقرأ في الرواية .

__ أه لو أعرف العقل المدبر الذى وضع هذا الجدول !!

__ إنه جدول منظم ومرتب بشكل لا يثير الشك في نزلاء كل مبتغاهم الراحة والأستجمام .

غادرتا الطاولة وجاء الجرسون ليرفع الأطباق وهو يراقبها حتى غابتا عن نظره، فترى هل كانت إيفا على حق!؟

جلست إيفا في احد زوايا بهو الفندق تقرأ في روايتها، كانت تبدو للعيان أنها مشغولة بالقراءة في حين لم يكن يشغلها سوى الباب الدوار للفندق . تراقب منه الداخل والخارج ، تحاول أن تكتشف من هو المخبر ؟ حتى وصل بها الحال أنها شكت أن الجميع مخبرون ليس إلا . كانت الساعة الخشبية الكبيرة في بهو الفندق تشير عقاربها للخامسة فتذكرت على الفور أنه موعد شاي الخامسة . كانت تريد أن تضحك بصوت عالٍ عندما تخيلت رد فعل ديدو عندما تخبرها بأن عليها الأستعداد لتناول شاي الخامسة و هي التي ليس من عاداتها سوى أن تتناول طيلة يومها لقيات بسيطة . قامت برشاقة يحتمها عليها دورها الذى تؤديه وذهبت لمكتب الاستقبال أدرات رقم الغرفة . جاءها صوت ديدو ناعس :

__ إنها الخامسة عمتي .

لم تكن ديدو قد أعتادت تلك الكلمة بعد ، وكانت سوف تردد مستغربة " عمتي " لولا أنها تذكرت أن إيفا نبهت عليها أن تكون على حذر في كل ما تتفوه فيه فرمما كان التليفون مراقباً.

__ الخامسة وماذا إذا ؟

__ هيا .. حتى لا تتأخري عن تناول شاى الخامسة .

قالتها أيفا وأغلقت الساعة على الفور . كان موظف الأستقبال مشغول بتدوين شيئاً ما فى دفتر كبير ، ولكنه تابعها بنظره وهى تغادر للشرفة لتحتسي الشاي وهى تراقب غروب الشمس .

بعصبية جلست ديدو على مقعدها :

__ ما أمر هؤلاء الناس ما بين فنجان شاي وآخر هناك فنجان !!؟

__ هذا آخر فنجان اليوم، لا تقلقي . سنخرج نترىض على الكورنيش لمدة ساعة ثم سنعود لتناول عشائنا ونخالد للنوم .

__ نترىض فى هذا الجو البارد !

لم تجيبها إيفا، فقد كانت تشعر بتأنيب الضمير لأنها قد أوقعت ديدو فى هذا العمل، ولكن ما ذنبها فهي أيضاً قد أمرت بذلك . كان الجو منعشاً به شيئاً من النسائم الباردة ، أقتاحت ديدو أن تستقلا الترام لمحطة الرمل فالجو هناك سيكون أقل برودة ويأماكنهم التسوق ولكن أيفا رفضت فكان عليها أن ينفذا الجدول بمنتهى الدقة .

تخلى الفندق عن هدوئه في ذلك الصباح . كانت هناك حركة وريكة ما ، لاحظتها إيفا منذ بداية اليوم بالرغم من حرص الجميع على أن يظهر كل شيئاً طبيعياً ، إذا كانت حقاً نزيلة عادية في هذا الفندق جاءت للاستجمام هي وعمتها العجوز حق لم يكن ليلفت أنبأهما ابداً أن هناك زيارة على قدر كبير من الأهمية ، ربما تتغير بها خارطة العالم ستقع في اليوم التالي . كانت ديدو على وشك أن تطرح سؤالاً ولكن حذرتها إيفا بتلك النظرة من عينيها ، فقد خمنت أن كل الطاولات بالفندق الحق بها أحمزة تصنت وربما بالغرف أيضاً ، أثار هذا الأمر قلقها فبماذا سوف تفعل إزاء فضول ديدو ، ولكن أي فضول في طرح الأسئلة هذا إن علمت أن هناك أحمزة للتصنت ، وقتها فقط ربما تصاب بالخرس ، وبالفعل لم تتفوه ديدو طيلة ذلك اليوم بأي كلمة لقد أجلت كل أسئلتها في فترة التريض خارج الفندق وشكرت الله أنها كانت اليوم بمحطة الرمل . غادرا الفندق في الخامسة والنصف واستقلا الترام الذي أوصلهما للميدان الفسيح ، تأكد إيفا أنه لم يكن أحداً يتبعها ثم فصلت ديدو أن تدخل للمعبد اليهودي للتبرك من الحاخام الأكبر ، فقد تملكها الشعور بالخوف وعدم الأمان ، لم ترفض إيفا ولكنها قد إيقنت في حال إذا كان هناك من يراقبها دون أن تنتبه له فيها هلكنا بالفعل .

وهما تعبران البوابة الحديدية للمعبد نهبت ديدو أيفا أن تخلع الصليب او تحبته داخل ملابسها . دخلتا معاً للمكان المخصص لصلاة النساء ثم أقامتا شعائر عبادتهما ، تناولت ديدو التلمود وأخذت تقرأ منه بصوت خفيض ، بعدما أنهت ذهبت مع أيفا لتحصلا على المباركة الكهوتية ، تلك المباركة التي لا بد أن تكون من كاهناً ينتمي لدرجة كاهنوتية كبيرة ، ليقف امام الحرم المقدس ويبارك المصلين ، وقفت إيفا وديدو امامه بعدما رفعت ديدو شال الصلاة لتغطي به رأسها وأخنتا عند مرر الكاهن ليمسح بيديه على رأس كل منهما و يمنحها البركة . وبعدها خرجتا من المعبد أكثر سلاماً وهدوءاً ، إن لم يكن بسبب المباركة فبسبب ذلك المكان الهادئ الذي يبعث على السلام كما هي دائماً أماكن العبادة . قالت ديدو وهما يجتازن شارعاً إلى آخر :

__ أنه المعبد الذي أفضله الأكثر .

__ ولكن أين سنذهب ؟

لم تنطق ديدو التي كانت تخطو مسرعة بإصرار تجاه قدر ما وكأنها تخشى أن تتمهل ويتبدل بها . كانت إيفا أكثر بطئاً منها ، تسير خلفها بعدة خطوات ، تستغرب حال تلك السيدة وتتساءل إلى أين تقودها وقد تحولت خطواتها الثقيلة المتباطئة لخطوات أكثر قوة وسرعة ! وأخيراً توقفت أمام أحد البيوت في شارع ضيق من تلك الشوارع شديدة الانحدار لتضعك وجهاً لوجه مع البحر . بيت قديم بنى من طابقين على الطراز الأندلسي يطل على البحر مباشرة . أزاحت ديدو بوابته الحديدية الصدئة بعدما فتحته بمفتاح كبير كانت تحتفظ به في دلائيتها الفضية . من الواضح أن البيت لم يزوره أحد منذ الزمن ، حديقته خاوية من زهورها فقط بعض الأعشاب التي نبتت بين مفاصل الصخور هنا وهناك . وحدها كانت شجرة الليمون العجوز تصارع العيش في هذا المكان اجتازتا الحديقة ثم صعدتا أربعة درجات رخامية واصبحتا في تراس واسع يطل بجميع جوانبه على البحر ، ومن التراس جاهدت ديدو لتفتح الباب الخشبي بالمفتاح فالصداً وملح البحر تغلغلا بداخله ، كل تكة للمفتاح كانت بمثابة صوت للانتصار على

الزمن .فتح البيت على رائحة للغياب الطويل المزوجة بملح الزمان .كست ذرات الغبار و زحف الصدأ فوق كل شيء . كان من الواضح أن من غادر قد تركه على عجل وكأن أمراً هاماً قد حدث له جعله حتى يترك بقايا طعامه التي تحولت إلى عفن كما هي في الأطباق .حتى الخشب الذى سُقف منه البيت والنوافذ الخشبية والدرج الخشبي الذي يؤدي للطابق الأعلى لم يسلم من رطوبة الايام التي فُتتُهُ ولكن أتراها قد أفلحت في محو الذكرى ؟

تعقب رائحة ما في ارجاء البيت تشي بحبِّ ما ، كان يشتعل هنا بجوار مدفأة الشتاء ، ضحكات ما كانت ترن هنا في الشرفات الصيفية للعشق ، أنغام ما ، كانت تعزف هنا على بيانو أسود للذكرى ...

فتحت ديدو غطاء البيانو الذي غطاه الغبار وكان يقبع في ركن قصي في الصالة، ضغطت أحد مفاتيحه ثم تابعت العزف لمقطوعة دامعة . تري هل كانا يعزفانها معاً ؟ هل كان يجلس بمحاذاتها يلفها بذراع وبالأخرى يبادلها العزف ؟ وكَم من مرة توقف وقبلها على وقع النغم ؟ كَم من مرة توقف وطوقها على وقع النغم ؟ كَم من مرة توقف ليقول:(أحبك) ايضاً على وقع النغم !؟

أنشغلت ديدو في عزف مقطوعتها بينما كانت أيضا تنثر بعضاً من الحياة في ارجاء البيت . حياة كانت هنا منذ زمن ما ، ضحكات تأتى من الطابق العلوي ، روائح شهية تتسلل من القدور النحاسية في المطبخ ، رنين مُلحُّ للهاتف لا يتوقف ، وقع خطوات نسائية ترتدى كعبها العالى على خشب الأرضية ، دوائر من الدخان ينفثها رجلاً وسيم بعدما حشا غليونه بأوراق التبغ.

ثم افادت من تخيلها و أمسكت الصورة الفوتوغرافية الموضوعة على المنضدة في البهو وأخذت في تأملها ، كانت ديدو وهي بعد شابة جميلة وبجانها رجل ما على قدر كبير من الوسامة يطوقها بذراعيه ، بينما التف حولها عدد من الفتيات والشباب بملابس السهرة . وبالرغم من أن الجميع في الصورة يحرص علي وضع الابتسامة على وجهه إلا أنه هناك قدر ما يشي بجزن قادم . أنهت ديدو من عزفها وتناولت من إيفا الصورة تأملتها لبرهة وبصوت حزين .

__ أنهم أعضاء الفرقة الموسيقية عشية عيد الميلاد المجيد بعد انتهائنا من عزف ترانيم الميلاد في حفل دار الأوبرا .

غادرتا معاً بعدما أغلقت البوابة الحديدية بالقفل مرة أخرى وكان قدرها أن تظل مغلقة على أحزانها . أستقلنا سيارة اجرة ، فقد كان الوقت قد تأخر وتعدتا الوقت الزمني المسموح لهما . بدون سابق أنذار أستكملت ديدو حديثها وتحديداً عند الجملة التي توقفت عندها في حديثها السابق وهي تشيخ بنظرها من النافذة بعيداً باتجاه البحر .

__ بعد حصوله على عقد عمل في الإسكندرية طلب مني أن أذهب معه وأشارك معه في حفلاته ، و بدون تفكير وافقت على الفور

بالرغم من اعتراض أبي على معيشتي في الإسكندرية بمفردي ، إلا أنني أصريت على الذهاب وحملت حقيبة صغيرة بها أمتعتي واغلقت الباب خلفي وذهبت ، لم تستوقفني يوماً دموع أبي ولا تهديدات أبي ، تابعت خطى قلبي وراء رجل نبض له القلب بعنف ، أقمنا معاً في هذه الفيلا ويوماً بعد آخر كنا نلحق معاً من فرحة لاخري ومن نجاح لآخر ومن قدر لقدرة .أجلس بجواره في القاعة المظلمة ، تبادل عزف مشترك بأيدينا الأربع ويتناوب عازفين يملؤها الشغف تارة والحب في أخرى ، و بعد فترة من الوقت أصابه الحنين لموطنه ولم يعد يتحدث سوى عن الشواطئ الإيطالية وزهور البرتقال و مدينة البندقية .

وعدني بأنه سيصطحبني معه ولن يتخلى عني أبداً ، طالما حلمت وقتها بتجديفه للجدول الذى يحملنا معاً على أنغام "سانت لوتشيا" و بالمتاحف الإيطالية والبيزا والاسباجي ، كنا نتنظر توقف الحرب حتى نستعد للرحيل . نسينا وقتها أن نتوج هذا الحب الذى ملأ قلبينا بالزواج ، كنت على استعداد أن أترك ديني وأتحول للمسيحية ، فأسرته كما أخبرني كاثوليكية متدينة لن ترضي بأن يقترب منها فتاة يهودية . حتى فوجئت ذات يوم بجنين يتحرك بداخلي بالرغم من حرصى الكامل على عدم حدوث هذا ولكن عشقي لهذا الرجل أفسد قوانين الطبيعة بداخلي والدورة البيولوجية الخاصة بي فمن فرط عشقي له وجدتي أحمل جنينه . وقتها لم أعرف أفرح أم أحزن ؟ تملكني شعور بكل منها ، كان بإمكان فرحي أن ينتصر على حزني ، إذا هو بادلني ذات الشعور ، ولكنه منذ أن علم بخبر الحمل وقد تبدل إنسان آخر ، فى البدء أستشاط غضباً وأتهمني بالإهمال وبأنى مازالت طفلة ولا أقدر مسئولية ما فعلته ، وكأن هذا الطفل جاء مني فقط ولم يشاركني فيه . ثم طلب مني أن أتخلص منه بحجة أنه لن يستطيع أن يصاح أهله أنه رزق بطفل بدون زواج بالإضافة للوم الذى سوف يتلقاه منهم إذا هو أخبرهم أنه تزوج فى مصر دون أن يخبرهم . حاولت التخلص من الطفل بالطرق التقليدية ولكني فشلت ، ويوماً بعد آخر كان جنينه يزداد التصاقاً بي و يزداد هو بعداً عني . وفى أحد الايام قاسية البرودة أستيقظت على دوى الرياح فى الخارج كانت النوافذ تهتز بعنف ، نظرت فلم أجده بجانبى ، فكرت أنه ربما قد ذهب ليتريض على البحر فى الصباح الباكر كما اعتاد أن يفعل ، ولكن كان الطقس سيئاً لا يصلح للتريض ، ساورني شعوراً ما وأخذ يتأكد بداخلي كلما مر الوقت ولم يحضر حتى جاء المساء وتأكدت وقتها أنه غادر بلا عودة . بعدها بعدة أيام أخبرني أحد أصدقائه من الطلانية أنه رحل فجر أحد الأيام بالباخرة المتجهة الى روما .

اضافت بأبتسامه ساخرة :

رحل بدون أن يترك وراءه تلك الرسالة التي دوماً يتركها الرجال عندما يهجرون نساءهم ، لأكتشف أنى لم أكن بالنسبة له على هذا القدر من الأهمية حتى يمسك بقلم ويبحث عن ورقة ويعتذر ببضع كلمات واهية تزيد الجرح فتقاً . هو المؤلف الموسيقى الأشهر والأبرع ، نسى أن يضع لحن النهاية فى قصتنا ، فقط أكتفى بأن تركها معلقة ومضى .

توقفت لبرهة من الوقت ثم عادت بصوت أكثر وهناً:

تأملت كثيراً وأمتنعت عن تناول الغذاء واصابني حالة نفسية سيئة أدت بي للأنجاب قبل الموعد المحدد ، فجاءت طفلة ضعيفة ولم يكتمل نموها بعد ، طلب مني الطبيب بمستشفى المواساة أن أتركها تحت رعاية الأطباء وأذهب حتى يكتمل نموها فى الجهاز المخصوص بذلك فى المشفى .. وبعدها بعدة أسابيع كان موعد خروجها ، أخبرني الطبيب وقتها أن نموها الجسدى قد اكتمل لكن لن يكتمل نموها العقلى ابداً . كانت حالتها تزداد سوءاً كلما فضجت فألحقها بقسم خاص للمتخلفين عقلياً " بالسرايا الصفراء " . كانت على عكس الجميع كلما زاد عمرها ازدادت حالتها العقلية تاخراً ، الآن هي على مشارف الخامسة والعشرين ولن تعرف حتى قرابتي بها ، كل ما تبغاه مني تلك الحلوى اللذيذة التى أصنعها واحملها معي عند زيارتي الشهرية لها فتأخذ فى العبث بمحتويات الحقيبة حتى تعثر عليها ثم ترميني بوابل من القبلات وتفتح برطمان المرية وتلحق منه بإصبعها .

ثم توقفت عن الكلام وكأنها تخلصت من حمل ثقيل كان يقبع على قلبها فيزيده حزناً والأن تخلصت منه و أصبحت أكثر خفة . فى البوح أيضاً تفرغ لتلك الحمولة المنهكة التى يحملها القلب معه سنة وراء أخرى ووهناً فوق الوهن .

اخيراً توقف بهما سائق التاكسي ، الذى كان يشاركها الإنصات للحديث وكان يهز رأسه تارة و يتمم في أخرى ، أمام بوابة الفندق الدوارة التى القت بهما من عصف الرياح الباردة الى دفء البهو ، و من الواضح أنه هناك خطأ ما حدث بالخطوة او ربما هو تمويه ما فقد كان بهو الفندق مزدحم برجال الأمن والمحابر .

__ أنه روميل !

تمتت إيفا فى سرها عندما شاهدته يجلس امامها تماماً فى المقعد المقابل لمكتب الأستقبال الذى ذهبت اليه مباشرة لتحصل على مفتاح الغرفة كان يجلس بالقرب منه شخصاً آخر تدل هيئته على أنه رجل عسكري و بالرغم من تخليها عن ارتداء ملابسها العسكرية تعرفت عليها ، حاولت أن تبطئ من خطوتها حتى يتثنى لها أن تتأكد إن كان هو كولونيل فون ستوفنبرج. ورغماً عنها نفذت اوامر الرئيس جيداً ، مرت من امامه جميلة كحلم ، تبادلت معه نظرة عميقة متعددة النوايا ، تشابكت فيها مقلتاها ولم يشأ أيٌّ منهما أن يفك التشابك .

صاحت تحدث نفسها قائلة :

__ ياالله ما أوسمه

أمسكت يد ديدو التى كانت تسيير بحزن الخطى حتى وقفنا عند بوابة المصعد وهي تتساءل هل تنفذ الخطة بدقتها أم عليها أن تضع بديلة لها فرمما كانت هى تلك ليلتها الوحيدة هنا وسيغادران عند الصباح ، و وقتها لن تنجح فى الحصول على أى معلومات هذا اذا حالفها الحظ و وقعت عينيها عليها مجدداً . ارتدت فستانها الأبيض الذى كان من المقرر أن ترتديه فى الغد . كان من قماش الخمل الحريري بلون احمر قاتم يزيد من وهج بشرتها السمراء ، وحاجبها المعقودين على سرها . أحكمت ربط الحزام الذهبي حول خصرها وأرتدت حذاء عالي الكعب ثم وضعت القليل من مساحيق التجميل و أبرزت الصليب فى عنقها . ربما تكون ديدو قد لاحظت أهتمامها بأناقها على غير العادة، ولكنها لم تسأل ، فقط أكففت بأرتداء معطفها بياقة من الفراء وذهبتا للمطعم لتفاجأ للمرة الثانية أنها يشغلان طاولة بإحد زواياه، أختارت أحد الطاولات القريبة منها بحيث يكون جلوسها أمام كولونيل فون ستافنبرج . كان كل شيئاً بالمطعم يبدو هادئاً تماماً كما لو أنه الهدوء الذى يسبق العاصفة . تذكرت المعلومات التى ذكرها الرئيس عن ذلك الرجل وهو يعرض صورته على إحدى الشاشات الكبيرة فى القاعة .

__ كلاوس فون ستافنبرج رجل اربعيني من عائلة ارسنقراطية، درس الفلسفة والتاريخ واللغة اللاتنية كما أنه يعد كاثولكياً متديناً ولا يعتبره الكثيرين عسكرياً تقليدياً وذلك لأقتناعه بمبادئ الأديب الألماني " جاريوجا " التى تدعو لدولة المانية قائمة على العدل والقيم الأخلاقية تقود العالم بمثل تلك القيم والأخلاقيات .

أبتسمت بسخرية فى نفسها وهى تكرر " قيم وأخلاقيات " وهل هذا الذى يؤمن بالقيم والأخلاقيات يوافق على تلك المذابح !

وكانه سمع حديثها مع نفسها فنظر لها نظرة طويلة وهو يقضم قطعة اللحم من شوكتته . تبادل معها ابتسامه صامتة ردت عليه بمثلها .

ها قد نفذت ما طلبه منها الرئيس، نظرة فأبتسامته وسوف تترك باقي المهمة عليه .هو الذي أكتفى بتلك النظرة ، فبعدها دخل في حديث طويل ومحم مع القائد روميل ، وشت تعابير وجهه وحركات يديه أنه حديث ليس بالمهم فقط ولكنه بالخطير والعصبي ايضاً ، و بالرغم من انتهائها من عشائها ألا أنها ظلت جالسة على الطاولة تتلصقاً في تناول الحلوى ثم الشاي حتى غادر ذلك الرجل بمرافقة روميل بعدما ودعها بنظرة على أمل بلقاء قريب .

في الجدول كان مدون لها بعد عشاء تلك الليلة أن تذهب للنوم مباشرة ولا تغادر غرفتها، ولكنها لم تنفذها كل شيء تبدل بزيارة هؤلاء الرجال يوماً مسبقاً عن موعد الزيارة المحدد لذلك . صعّدت مع ديدو للغرفة ثم سريعاً أعادت ترتيب هيئتها، وضعت بعضاً من قطرات العطر ثم وهي تغلق حقيبتها وقع نظرها على علبة الدواء فأمسكتها بيديها وأخذت تهزها فأصدرت صوتاً فتساءلت وهي تنظر في المرآة لتضع احمر الشفاه :

-تُرى هل سوف أقوم بتناولها ومتي سوف الجأ إليها ! ؟

غادرت حيث جلست في لوبي الفندق ، تواصلت قراءة رواية كانت قد بدأت فيها ولم تنتهها بعد . وإذا بها فجأة ترفع رأسها لتشاهد كولونيل فون يجلس مباشرة أمامها في قميص بلون السماء وبنطلون رمادي ومعطف صوفي يرفعتين من القطيفة عند الكوعين ، يصفى شعره للخلف بالكثير من الفازلين . كان وجهه وكأنه منحوت بأنامل نخات اغريقي بارع . ربما كانت النظرة الأولى مقصودة كما أمر لها ن ولكن تلك النظرات التي أخذت يتبادلانها في جلستها تلك لم تكن مرتبة فقد هامت أعجاباً به وكان أعجابها به لا يقل كثيراً عن فنتنته بها ، وخاصة في تصفيف شعرها على هيئة كاريه التي كان يحبها كثيراً ولكن ماذا لو علم أن تلك التسريحة التي يراها و قد صفت بها شعرها ما هي سوى شعر مستعار وضعته لتخفي بها صلعة رأسها التي رفض الشعر بها أن يثبت بعدما حلقت بالكثير من القسوة على يد أحد الحارسات الألمانيات في المعسكر .

هو لم يُضَيِّع الكثير من الوقت ، فليس لديه الكثير منه ، فهو أيضاً ينفذ جدول وضع بعناية فائقة . حددت فيها زيارته لمصر لمقابلة روميل وقائد مهم من القوات البريطانية لعدة ساعات فقط . بخطوات عسكرية ثابتة ذهب إليها وعرفها بنفسه

__ كلاوس .

مدت يديها وبصوت خفيض :

__ مادلين .

كانت تكره هذا الأسم ولن تراه لائقاً بها . كانت تريد أن تفصح له بأسمها الحقيقي حتى يتثنى لها أن تسمعه يردده بصوته العميق الذي تشوبه تلك البحة المكتومة . جلس بجوارها على اريكة مريحة في زاوية جانبية من بهو الفندق . جلست بمحاذاة واضحة مساحة ما بين ثقته وارتباكها . يتسلل عطرها الشرقي اليه من حين لآخر عبر نسيم الهواء .

__ يذكرني عطرك برائحة رمال الصحراء .

__ حقاً وهل لها رائحة ؟

__ نعم لها رائحة .

حَدَّث نفسه قائلاً :

__رائحتها جميلة حتى تختلط برائحة دماء الجنود الذين يلقون حتفهم هناك و وقتها تفقد جمالها وتتحول لرائحة بشعة .

لم يكن يجيد الإنجليزية ، وهي كانت تجهلها لذلك كانا يفكان طلاس اللغة بعد الكثير من الجهد .

__ من أين أنت ؟

__ المانيا .

__ وأنتِ ؟

__ القاهرة وفي أجازة مع عمتي العجوز للاستجمام بعدما ألم بها مرض عضال .

__ ماذا تعملين ؟

__ ممرضة بأحد المستشفيات .

__ ملاك الرحمة أذن .

__ يمكنك أن تقول ذلك.

جلوسها مع الفون ستنافنج أثار حنق رجال التجسس والمخابرات وربما لاحظ هو ذلك . لكن كان هناك شعور متقد بداخله يجعله ينسى كل شيء و يتجاهل كل شيء عدا تلك العيون الواسعة بلون البندق .

__ ماذا تقرئين ؟

__ تولستوي، الحرب والسلام .

__ لقد سبقتك بقراءته أنه كتاب رائع .

__ نعم وخاصة أنه يجعلك لا تمتق الحرب والقتال إذا كان في سبيل منح أحد الشعوب حريتها أو فك أسرها من الظلم.

ضيق حدقتي عينيه وهو يستمع اليها :

__ لذا مؤكد أنت تعتقدين أن خوض المانيا لتلك الحرب ما هو إلا هراء ؟

__ نعم إن المانيا أشعلت النار في العالم كله ، وهناك شعوب ليس لها دخل في ذلك وجدت نفسها مزروعة في داخل منظومة

الحرب وهي لا حول ولا قوة لها .

__ نعم هذا صحيح .

هل يعتقد حقاً أن هذا صحيح أم أنه يجارها في الكلام فقط هل من المعقول أن يكون ضد هتلر ومع ذلك ينفذ تعليماته.

__ غريبة أن هذا رأيك على الرغم من أنك ألماني !

تحدث بينه وبين نفسه لست فقط بالماني و أقود ايضاً أكبر المعارك شراسة في الصحراء الغربية ولكني أكره ما يفعله هذا الأباه

__ صدقيني الكثير من الألمان ضد هتلر ، بل هناك الكثير من قواده ضده ولكنهم غضباً عنهم ينفذون اوامره أنه نظام سياسي فاسد

ثم اردف:

__ هل لى أن أدعوك إلي كأس بشرفة غرفتي أنها تطل على البحر المزدهم بالسفن التي تبدو من بعيد كوميضات من الضوء فتتير كلحة البحر ، المنظر من هناك غاية في الروعة .

كان رغباً عنها عليها الموافقة ولكنها بدلاً من أن تصرح له بموافقتها على الفور وحتى لا تثير شكوكه ففتاة مسيحية يتدلى الصليب من عنقها لن توافق على مثل هذا العرض بمثل تلك السهولة لذلك أجابته :

__ الوقت متأخر وأخشى أن تقلق عمي على .

__ كأس واحدة وحديث قصير ثم سأدعك ترحلين .

هل كانت تمنى أن ترحل حقاً فقد كان حديثه شيقاً لقد فتح قلبه لها ظلماً بأنها فتاة عابرة تعمل ممرضة بأحد المستشفيات ستكون تلك المرة الأولى والأخيرة التي ستقابل بها رجلاً المائياً يخفي عنها هويته الحقيقية . لذلك حكى لها عن غباء واستبداد هتلر وكيف أنه قد أوشك على الهلاك .

__ أنتظري القليل من الوقت وستسمعين عن هتلر خبراً سعيداً ، كل تلك الارواح التي تزهدق ستثار منه تأكدي والأن دعينا من سيرة الحرب وأخبريني لماذا أنت جميلة هكذا ؟

قالها وهو يقف امامها يطرق غطاء محكماً لزجاجة شامبانيا بالفتاحة المخصوصة لذلك ومن الواضح أنه كان يتقن ذلك الأمر فلم يسكب الكثير من الشامبانيا على الأرض ، قدم لها كأساً كريستالية . أخذتها وهي تقول

__ شامبانيا ولكن هل نحتفل ؟

__ نعم أحتفل بك .

رفع كأسه وشربها دفعها واحدة بعدما قال :

__ في نخبك .

بينما هي التي لم تعتد الخمر من قبل فقد أعتذرت له قائلة :

__ شكراً ولكني لا أتناول الخمر .

__ أنها مجرد كأس من الشامبانيا !

تناولت من كأسها ببطء وهي تتأمله وتتساءل ترى هل تستطيع أن تحصل منه على أى معلومات ؟

على أريكة في الغرفة في مواجهة البلكون المطل على البحر وبالرغم من برودة وشدة الرياح التي كانت تذهب وتجيء بالستارة الحريرية إلا أنه تركه مفتوح على مصراعيه فكانت تأتيهم صوت أمواج البحر المتلاطمة الواحدة تلو الأخرى . كان ككل سياسي ورجل حرب كبير يشي به قفل غير محكم الغلق لحقيبة العمر التي أرهقتها المعارك والخطط و الحروب .

حكى لها عن أماله وأحلامه المغدور بها في وطن وعالم يسوده السلام فإذا به لم يحكي سوى عن أمالها وأحلامها هي .

تنصت له وهي تدرك أنها تدخل عالم العشق والخوف معاً كيف لها أن تقع في حب قائداً في الجيش الألماني يقود

سلالتها إلى الأباداة حتى أن كان رغباً عنه .

لذا فجاءة وبدون ترتيب تفوهت لكلمات لرجل يجدر معه أن ترتب كل حرف تتفوه به سألته

— هل أنت موافق عن ما يفعله النازيون في اليهود؟

سرت قشعريرة في أنحاء جسدها وللحظات أستعاد ذهنها كل سيناريوهات العذاب والموت . اجابها :

— يجب أن يُقاد جميع من أشترك في ذلك الى السجون ومحاکمتهم كمجرمي حرب .

كان هناك براءة تشع منه براءة ليس لها علاقة برتبته العسكرية ولا بالنياشين التي يعلقها فوق صدره . هل هذه الكلمات أزال مخاوفها وترددتها في التمادي في عشقه لاقصى درجة ؟
 الآن بإمكانها فعل ذلك بدون تأنيب ضمير ، أسندت رأسها على كتفه بينما طوقها بذراعه وأخذ يلمس شعرها وللمرة الأولى تشعر بمدى فحاعة أن تكون صلعاء فقد فاتها وقتها أن تشعر بلمس يده وهي تداعب خصلاته .
 وأستكمل فائلاً وهو يملأ كاساً تلو الأخرى ، ومن الواضح أن الخمر قد بدأت تلعب بعقله وتضعه وجمماً لوجه امام حقيقة مرة ، تلك الحقيقة التي يلزمه أن يكون مغيب العقل ليراهها واضحة امامه ويتفوه بها . وجدته يصب جام غضبه على هتلر وموسليني وكل الوحوش الأدمية .

ومن كل الكلمات التي تفوه بها وقتها لم تستوقفها سوى إلا العبارة (لقد منح نفسه مكانة خاصة بدون أن يمنحها له أحد ، كل قرارته وتعليقاته اوامر يجب أن تُنفذ ومن لا يفعل ذلك فصييره القتل . في الأونة الأخيرة أستبد به الجنون حتى ولكأن هذا العالم وما يجري عليه احداث لفيلم سينمائي مروع ومرعب وهو مخرج هذا الفيلم ، حتى قراراته اصبحت أكثر غموضاً ، تصورى أصبحت تعليقاته عبارة عن شفرات وما بين شفرة واخرى هناك أخرى . ارسل بشفرة حربية إلى قواده في فرنسا قبل معركة " نورماندى " وكان يُجتم عليهم الذهاب لكنيسة "الساكر كور" الشفرة كانت إحد آيات الأنجيل التي نقشها فنان شهير أثناء رسمه سقف الكنيسة وهكذا كان من شفرة لأخرى الوصول لها في حد ذاته يُعد شفرة يخرج علينا كل يوم بشفرة جديدة . وشفرة اليوم هي عزف النغمة الأخيرة في السمفونية التاسعة لبيتهوفن على بيانو أسود في كنيسة " دير سانت كاترين " بمدينة سيناء ياله من عقل مريض وكأنه يفعل ذلك حتى يثير أعجابنا بذكائه المتقد)

إذن وبدون أن تسعى لذلك وبدون أي مجهود منها أخبرها أن الشفرة هي القفلة الموسيقية للمقطوعة التاسعة لبيتهوفن تعزف على البيانو الخاص بكنيسة دير سانت كاترين أي ذكاء هذا الذى فى رأس هذا الرجل الداهية !! ولكنه لم يخبرها لأى عملية حربية هي تلك الشفرة لذلك شاركته السخرية والأستغراب معاً وهي تسأله :

__ ولكن أى لغز ستفكه هذه الشفرة !!؟

__ أنها شفرة للبدء فى أشعال فتيل للغم ما .

راجعت الكلمات فى رأسها " لغم ما !! " مؤكداً أنها الألغام التي يزرعونها بمنطقة العلمين .

ثم كان عليها أن تمتثل لأنامله التي أخذت تداعب جسدها وقبلاته التي كانت تقع على كل جزء فيه . واخيراً بيده القوية أخذ يخلع عنها ملابسها وهي بعد مستسلمة تماماً وكأنها تترك له جسدها كهبة لتلك المعلومات المهمة التي حصلت عليها . تلك المعلومات التي ربما تغير خارطة العالم . هو لم يتوقف .. وهي لم تمنعه .. واخيراً أفاق من ثالته على فض عذريتها .

بصوت أشبه بضوء خافت :

__ لماذا لم تخبرينى أنك مازالت عذراء ؟ لماذا لم تمنعيني ؟

تركها وجلس على المقعد يشغل تبغه فأضاء عود الثقاب وجهه وظهرت ملامحه الحزينة

__ لقد طلبت منك أن تتوقف.

__ كان عليك أن تمنعني بالقوة حتى كلفك الأمر ركلي .

لماذا لم تفعل ذلك حقاً!!!؟ هل لأنها كانت على درجة من المتعة منعتها من أن توقعه أم لأنها شعرت أنها مكافأة يستحقها جراء المعلومات التي حصلت عليها منه ؟ نظرت إلى اللون الأحمر الذي صبغ غطاء الفراش الأبيض وأخذت الدموع تسيل على وجنتيها . أنها دموع الانتصار والثأر لكل هؤلاء الذين اغتيلوا ، وقتلوا ، وايدو .

أنها بضعة نقاط حمراء من الدم كمنقطة في بحر الدماء التي خضبت بها الأوطان فتري هل له أي قيمة ! وهل كان عليها أن تحزن؟!

سألها :

__ لماذا أنت هادئة هكذا وأنا أعلم تماماً أن أمر العذرية مهم في بلدان الشرق؟

__ أنا فقط كنت أفكر في تلك النقاط البسيطة من الدماء والتي تشغل تفكير البعض لدرجة كبيرة درجة ربما تصل للثأر والقتل بينما هناك براكين من الدماء لا يعير أحد الانتباه لها

ترك مقعده وذهب لها وضمها اليه و بدء مجدداً في تقبيلها ولكن تلك المرة وهو في كامل وعيه . أكتشفت أنه كان يمنحها من الحب بقدر لهفتها عليه ، عشقت عطاءه وتأكدت أنه لو كان مُقدراً لها أن تعيش ما تبقى لها من عمر معه فأنها لن تشيع منه ابداً . وكأنما كانت تعد نفسها لسنوات طويلة من الحرمان والغياب كانت تأخذ منه.

هل كان للبحر دور في ذلك؟ فاحت روائح المد والجزر وتعالق الأمواج و التي على وقعها كانا يمارسان الغرام وعندما هدأت العاصفة البحرية بهدوء غادرها تاركا خلفه قبلة طبع على قلبها ووشمت روحها للابد . كانت سعيدة وقتها ، لم تكن تتدري أن الغدر هو السمة الأولى للبحر وأنه في وقت لاحق سيسرق سعادتها به وامواجه ستضع قليلاً من الملح فوق الذكرى .

كانت العاشرة صباحاً عندما أستيقظت على فراش شهدت ارضه معركة غرامية لم يكن الانتصار فيها سوى للقدر الذي منح كلاً منها سعادة على غفلة من الزمن ، سرعان ما تبدلت لحزن عميق عندما بحثت عنه في أرجاء الغرفة ولم تجده . ترك وراءه رسالة لم يكتب فيها سوى عنوان لصندوق بريد بألمانيا و " أحبك " ولكن هل أحبها حقاً؟ وكيف استطاع أن يمنحها كل تلك المشاعر ثم يوليها ظهره مغادراً دون وداع ، أم تراه طبع قبلة الوداع على وجنتها بهدوء قبل أن يغادر دون ان تشعر ؟

ها هي الآن تحي قدر كان قد عاشته قبلها بعدة سنوات ديدو ، مع رجل يمر مرور الكرام على الحنين ثم يذهب ، هل شعرت ديدو بألم الأنتزاع ومرارة الفراق مثلها الآن ؟ مسكينة ديدو على الأقل هذا الرجل ترك وراءه رسالة كتب فيها بعضاً من كلمات و تذكرة للقاء ربما يأتي في المستقبل . ولكن ماذا عن ديدو ؟ وهو الذي غادرها نازعاً خلفه أي أثر له!! ؟

أطالت النظر للبقعة الحمراء التي اخلفتها ليلة أمس كانت مستقرة على الفراش الأبيض اخذتها لهنالك عندما كانت تستقل القطار وهي في طريقها للمعسكر وكانت تشاهد من النافذة جثث الجنود ملقاة هنا وهناك وبقع من الدماء تفترش الثلج الأبيض ، أغلقت الباب ورائها ورحلت . استقبلتها ديدو بعيون متفحصة متسائلة كان مظهرها يفضح ما بداخلها بالرغم من أنها حاولت إخفاء هذا وبالرغم من الفضول الذي تتمتع به ديدو فأنها لم تسأل .

نفذت إيفا تعليمات الجدول بخذافيرها ولم يتبقى على وجودها في ذلك المكان سوى بضع ساعات لتستقل بعدها القطار . كانت تشعر أن هناك الكثير من العيون تراقبها وتشير إليها قائلة " ها هي الفتاة التي قضى الكولونيل فون ستنافبرج ليلته معها " بالرغم من أن الزيارة سرية ولكن مؤكد هناك الكثير من العاملين بالفندق يعلمون بها ، وإلا كيف كان على رجال المخابرات وضع أجهزة للتجسس والكشف عن هوية جميع النزلاء ولم يكن يُسمح لفون نفسه أن يسطحها لغرفته إذا لم يتأكد رجال مخابراته بأنها هي حقًا الفتاة مادلين التي تعمل ممرضة بمستشفى القلب المقدس وقد حصلت بالفعل على إجازة لمدة يومين و عند تحرياتهم للسؤال عنها في منزلها الكائن في 45 شارع شبرا كما مدون في دفتر بيانات النزلاء ، أخبرتهم فتاة صغيرة بجذائل شقراء أن مادلين سافرت مع عمته للإسكندرية . وقتها فقط أشار الرجل ذو المعطف الأسود لفون بإيماءة من رأسه كجواز مرورها لغرفته .

طيلة وقت الرحلة من الإسكندرية للقاهرة كانت الحالة ديدو تغط في نومها العميق بينما كانت إيفا تستعيد ذكري لقاتها بذلك الرجل الذي تعثرت به أثناء موعد مرتب لها مع آخر ! رجل لم يحدث أنه كان هناك من يملك مثله ... تواضعاً وكبرياء ، خجل وجرأة ، وبساطة وقار.

تُرى هل بإمكانها لقاته مجددًا؟ هي تعلم أنه يقود فرقة المانية في الصحراء الغربية ولكن هل تراه سيعود سالمًا لوطنه؟ و تعلم أيضاً أن رجال الحروب على عجلة من أمرهم ، الحياة بالنسبة لهم بمثابة حرب ولبس من قانون يحكمها سوى المكسب أو الخسارة . ألدلك سريعاً رفع راية النصر على فراش حبها ثم غادر مطمئن أنه احتل القلب للابد ...؟

فور نزولها من القطار لم تنتظر الكثير من الوقت ، فقد كانت هناك من المعلومات في حوزتها من الصعب التكم عليها أكثر من ذلك ، فنفذت خطة الرئيس كما أمرها بها فكان عليها الذهاب للمنزل الكائن 45 شارع شبرا لأنه كان من الجائز جداً بأن احداً ما يراقبها ثم بعدها بعدة ساعات تخرج لتذهب للمستشفى لمناوبتها الليلية ، بينما على ديدو الأنتظار حتى الصباح لتذهب لبيتها .

فور وصولها للمستشفى خرجت من أحد الأبواب الخلفية وسارت في طريق مظلم وطويل حتى أستوقفت تاكسيًا وذهبت للقاء يوسف الذي استقبلها بعناق طويل فأستغربت من تلك المشاعر قائلة : __ ما كل ذلك ؟

فعنفها قائلاً :

__ من الغريب حقاً أنك تمتلكين كل هذا الذكاء في التخفي بهويات مزورة من اخطر رجال التجسس في العالم ، و تلتقين بأخطر رجال الحروب في العالم ، وعند الرجل الذي على شوق لك تتساءلين لم كل هذا ؟

__ يوسف ليس هناك من وقت لمناقشة تلك الأمور فأنا أملك الكثير من المعلومات المهمة يجب إيصالها فوراً .

بدون أن ينظر إليها تناول قبعته من فوق التونيت الموضوعة بجوار الباب ثم قام بفتحته وهبط الدرج مسرعاً ، بينما أوكل لها مهمة أغلاقه

أستقبلها الرئيس بلامح قلقة ومضطربة :

__ طمئنيني هل نجحت المهمة ؟

__ سأخبرك بالمعلومات التي حصلت عليها ويمكنك أن تحدد إذا كنت قد نجحت أم فشلت!

وخلال الثلاثين دقيقة كانت إيضا تخبر الرئيس بجميع ما حدث لها بالفندق منذ دخولها له وحتى مغادرتها ذلك الصباح . شكرها الرئيس وأثنى على جهدها فقد حققت نجاح مذهل . و أخبرها بأن من الجائز جداً بحصولهم على تلك الشفرة أن يتنصر جيش التحالف على الألمان في موقعة العلمين . سيستخدمونها قبلهم ويفجرون بها الألغام التي قاموا بزراعتها لغماً وراء الأخر وبذلك يكونون أحرقوا لهم الكارت الذي كانوا يدخرونه للحظات الفاصلة في المعركة ويلقنهم درساً قاسياً .

خرج بخطوات مُسرعة , وطلب من فتاة تعمل على جهاز التيكور إرسال رسالة مهمة . ثم سكب في كاسات كريستالية من زجاجة نبيذه المعتق وشرب ثلاثتهم في نخب المعلومات المهمة .

ثم نظر لايفا قائلاً :

__ أنا ايضاً أملك الكثير من الأخبار السعيدة لك , لقد تسلم روزويل مالكيلاند ممثل الهيئة الامريكية للاجئي الحرب ومقرها سويسرا نسخة من التقرير الذى كنت قد أعددته , بالإضافة أنه كان قد تسلم معلومات أخرى من شاين يهوديين سلوفاكيين هاريين من معسكر اوتوشيز وصفا فيه بالتفصيل إبادة اليهود وغرف الغاز والمحرقه ، وأكد تلك المعلومات ايضا ضابط جيش بولندي استطاع الهرب ، فوصلت تلك المعلومات لحكومات الحلفاء ونشرت في جميع الصحف السويسرية والبريطانية والأمريكية والأن أصبح كل العالم يعلم ما يجرى في المعسكرات النازية . و يبحث كلُّ من الجانب البريطانى والأمريكي ضرب خطوط السكك الحديدية التي توصل إلى المعسكر وخطوط الاتصال المؤدية اليه .

__ حقاً لو حدث هذا سننقذ الكثير من الارواح التي يتم قتلها يوماً بعد آخر .

طالت تلك الجلسة وشعرت إيضا بأنها متعبه للحد انها بالكاد تستطيع أن تفتح عينيها ، فأعترت بأن عليها الذهاب .

و في الوقت الذى كانت تفتح فيه الباب أن تسمع ديدو تعزف أحد المقطوعات الموسيقية ، ولكن للأسف كانت النغمة الأخيرة منها وقفت إيضا على باب الغرفة تصفق لها وتسألها :

__ لمن هذه المقطوعة الرائعة ؟

__ أنها المقطوعة التاسعة لبيتهوفن .

__ مدهش !

كان المدهش حقاً أن يأتي عزفها لتلك المقطوعة في هذا الوقت بالذات. للوهلة ظنت أيفا أنها ربما قد أخبرتها بأمر الشفرة ولكنها تأكدت أن هذا لم يحدث أبداً.

__ هل لك أن تكرر عزم النعمة الأخيرة من السمفونية ؟

ابتسمت ديدو و واعدت العزم .

بالتزامن مع ما تعزفه أنامل ديدو هنا كانت تعزفه هناك أنامل يد قوية لرجل أربعيني وكأنها كانا يتناوبان العزم معاً . رجلاً يرتدي معطفه الأسود من قماش واق من المطر ، فardاً نوتة موسيقية على بيانو أسود قديم وضع في احد اركان كنيسة دير سانت كاترين، كانت الثلوج تهطل بغزارة من خلف زجاج النافذة الملون وكانت الأنعام تخترق سكون الليل وهدوئه ، بعدما عرف الرجل القفلة الموسيقية فإذا بدرج سري داخل غطاء البيانو يُفتح مد الرجل يده سريعاً وأخرج منه ورقة طويلة مدوناً بها الكثير من شفرة من الارقام السرية ، سحب كاميرا فوتغرافية خاصة بتصوير تلك الأمور كان يخفيها في عنق حذائه الطويل .و قام بتصويرها ، وأعادها مكانها و بمنديله الأبيض مسح اثار و بصات يده من فوق كل شيء كان قد مسه ، أخفى الكاميرا مرة أخرى داخل عنق حذائه وغادر المكان بخطوات جامدة وبوجه تخفي ملامحه وراء قبعة انسدت عليه ، اوماً برأسه للراهبة التي كانت تقف على مقربة منه تمسك بيدها شمعة على ضوءها كان يقوم بالعزم ثم اخفى وسط الظلام .

أنشغلت ديدو بالاستعدادات لعيد الفصح و احياء طقوسه التي توارثتها عن الأجداد بحذافيرها ومنها الأمتناع عن تناول الخبز قبل موعد العيد بعدة أسابيع ومنعها أنشغالها بهذه الطقوس من ملاحقة ايها بالأسئلة عن ماذا كان وراء تلك الرحلة للاسكندرية . قبل العيد بأيام قليلة طلبت من إيفا مشاركتها بتنقية الأرز بمنتهى الدقة ولا تدع شائبة به ، سكبت أرطال الأرز الواحدة فوق الأخرى على الطاولة وكلفتها بأنجاز تلك المهمة وحذرتها لأكثر من مرة مراعاة الدقة ، بعدما تأكدت من أن كمية الأرز التي ستستهلكها مأدبة الغذاء للعائلة الكبيرة قد نُقيت بعناية وضعته في سطل نحاسي كبير لإعداده في الغد . ثم قامت بفتح دولا ب الفضييات لتخرج منه الأطباق والأكواب الكريستالية والملاعق والشوك الفضية . أغرب ما في الأمر هو حرص ديدو على تفتيش المنزل على ضوء الشمعة ليلا العيد وهي ترتدى جلبابها الكستور ، وتعقد إيشارها على الجزء الأمامي من شعرها ، بينما ترك الجزء الخلفي يتطاير في جميع الاتجاهات ، وكما دتها تضع نظاراتها الطبية لمقدمة أنفها فكان مظهرها غاية في السخرية المزوجة بالرعب . كانت تفتش في كل مكان أسفل المقاعد والطاولات تحت السجاد والأسرة حتى تتأكد بأنه ليس هناك ولو قطعة صغيرة من الخبز . لم تحاول إيفا أن تناقش ديدو او تحنها عن أفعالها ، لأنها عاشت تلك الطقوس مع أبيها ذلك الرجل الذي كان يؤمن بكل عقائد التوارث ويعمل على تنفيذها بحذافيرها ، حتى سافرت لفرنسا وأخبرت أحد صديقاتها من اليهود بأنهم يمتنعون عن تناول الخبز ويحرصون على تنقية الأرز بدقة فائقة ، لتستغرب صديقتها وتخبرها بأن الأرز محرم تناوله في عيد الفصح بينما تسخر منها صديقة اخرى وتخبرها أنها وأسرتها لا تكفان عن تناول الخبز طيلة الأيام التي تسبق قدوم العيد أما عن تنقية الأرز فهم يشترطونه نظيفاً ومغلقاً في أكياس كرتونية ولا تشوبه شائبة . وقتها فقط أيقنت بأن المعتقدات التي رُبيت عليها تحتمل الشك من اليقين . لذلك تركت ديدو تقوم بطقوسها كاملة ولن تشاء أن تجادلها في شيء . أقامت ديدو كل طقوس العيد حتى ذلك الطقس الديني الذي تملأ فيه كوب من النيذ وتركه في كأسه الكريستالي حتى يحضر النبي ايليا ويعلم أنه مرحب به على مأدبة العيد . عندما سألت إيفا أباها عن تلك الكأس ، أخبرها بأنها رمز من رموز التوارث يجب احياءها كذكرى خروجهم من مصر على أستعجال وحملهم أمتعتهم فوق ظهورهم وتناولهم الخبز الغير مختمر خوفاً من بطش فرعون مصر .

لاحظت صديقتها إيمان أنها على غير عاداتها مشغولة البال بأمر ما . تخبرها إيمان بما دار في البنك أثناء غيابها ولكنها لا تجيبها إلا بأبتسامة بلا فاترة. لذلك سألتها :

__ ما الذى حدث ناديا؟ اراكِ مهمومة ألم تحصلين فى أجازتك تلك على الراحة والأستجمام ؟

كانت تريد أن تجيبها " ومن أين تأتى راحة البال ؟"

__ نعم ولكنى أشعر بالكسل ويغالبنى النعاس !

__ هناك عرض أزياء يقيمه فندق شبرد مارأيك فى حضوره أملك دعوة إضافية لحضور الحفل ؟

كانت المرة الرابعة او الخامسة التى تدعوها إيمان لشيئاً ما وهى تعتذر بالرفض فوجدت أنه ليس من الذوق أن تواصل رفضها لدعوات إيمان ، وعلى مضض وافقت على حضور الحفل وأتفقت معها أنها ستقابلها عند بوابة الفندق فى تمام الساعة مساء . أرتدت أناقها ثم ذهبت . و فى الساعة تماماً كانت امام بوابة الفندق عندما لمحت إيمان واحمد يلوحان لها فذهبت اليها صالحتهما ودلفوا إلى قاعة الدفيليه التى كانت تمتلئ بسيدات المجتمع الراقى .

وعلى طاولات دائرية بمفارش من الدانتيل الأبيض جلسوا متقابلين . أعلن مذياع الحفل عن بدء العرض . خفتت الأضواء وعلا التصفيق للعارضات الرشيقا وهن تذهبن وتجنين على البساط الأحمر للأناقة ، تعرضن الازياء بكعوب عالية وبخطوات تتمايل على أنغام الموسيقى . كانت إيمان تتابع العرض بعيون تملؤها الدهشة والأعجاب بينما هى كانت زائغة النظر تائهة ، لاحظ أحمد ذلك فلم يكن يتابع عرضاً سواها بعينين متخمتين بالإعجاب بها ويعقل وقلب يفكر كل منهما ضد الآخر .

__ لماذا لا اشعر بأن آيآ من تلك الأزياء قد لاقى أعجابك ؟

__ ابدأ كل الأزياء جميلة .

وضع الجرسون أطباق اللحم المشوى كانت تنبعث منها الأدخنة المحملة بروائح الشواء فأرجعتها للخلف لعدة شهور مضت لروائح من اللحم البشرى التى كانت تنبعث من المحرقة والكل يسأل بسداجة عن مصدر تلك الرائحة الكريهة ؟ !! شعرت بالغثيان بتملكها فوضعت مفرش المائدة المزينة حافاته بخيوط مذهبة تحمل اسم الفندق على فمها وهى تكتم إحساسها، وما أن دخلت الحمام حتى أفرغت معدتها تماماً، وتملكتها حالة من البكاء الهيستيرى عندما تأكدت أن أمها التى أستبعدت من الطابور لضعفها الحاد كان هذا مصيرها فى النهاية. بينما كانت إيمان تنتظرها قلقة عليها بالخارج لتسألها ماذا حدث لها ؟

__ لا شيء ولكن ربما قد أصبت برد معدتى .

أعتذرت بأن عليها الذهاب ولم تفلح محاولات أحمد وإيمان لإثباتها عن ذلك حتى أنه تضرع لها قائلاً:

__ يمكننا الذهاب إلى أى مكان آخر

__ ليست المشكلة فى المكان

طبعاً لم تكن المشكلة بالمكان ولكن فى الأشياء التى تحرض الذاكرة عليها فأينا ذهبت تعثرت بها ،ستصبح ملازمة لها طيلة العمر . أرتدت قفازيها الحريرين الأسودين ، وهى تم بانثقال حقيبتها من فوق المائدة صاحت أحد الفتيات والقت بنفسها عليها وأخذت فى تقبيلها وهى تردد أسمها

__ أيضا .. ايفلين ... يا الله أستقت اليك .

__ مرحباً زورا وأنا ايضاً أستقت اليك ..

— ولكن متى رجعت من فرنسا ؟

— منذ زمن .

— وكيف هي أخبار عائلتك ؟

— بخير كل شئ بخير .

نظر أحمد وإيمان كلاً منهما للأخر في استغراب عندما نطقت الفتاة اسمها الحقيقي ، اعتذرت منها إيفا بأنها عليها بالرحيل الآن ، وذهبت وتركت الفتاة مسمرة مكانها ومندهشة من هذه المقابلة الفاترة .

ترك أحمد إيمان تتابع العرض ورخص خلف إيفا يعرض عليها توصيلها للمنزل ، رفضت وأخبرته أنها يمكنها أن تتدبر أمرها بنفسها ، لكن أمام إصراره كان عليها الأنصياح . جاء السائس بمفتاح سيارته الكاديلاك السوداء وجلست في المقعد المجاور له ، سألتها بصوت يشوبه بعض الشك :

— ما أمر تلك الفتاة ولماذا كانت تناديك " إيفلين "

— إيفلين هو الأسم الذى يطلقه على المقربون مني .

— وهل كنتِ بفرنسا ؟

أريكها السؤال فأكنت (بنعم)

— أنا أيضاً سافرت لهناك بعد حصولي على منحة دراسية لاعداد دراسة الماجستير والدكتوراه فى القانون ولكن لظروف الحرب أضطرت للرجوع لمصر ، أنها بلد جميلة حقاً .

— فعلاً .

لاحظ أنها بالكاد تجيبه عن أسئلته وأخيراً قامت بفتح النافذة ولوحت وجهها فى اتجاه النسبات الباردة لتلغح وجنتها

— ناديا ، اريد التحدث معك بأمر ما .

— ماذا؟

— ليس هذا المكان المناسب لطرح موضوع هكذا، ما رأيك إذا دعوتك على فنجان من الشاي فى ذلك المقهى .

و لم ينتظر جوابها فقد أصطف السيارة بمحاذاة الرصيف ودخلا للمقهى الذى كان يكاد يكون خالى إلا من طاولة أو اثنتين ، جلسا بجوار الوجهة الزجاجية للمقهى وكانت مشغولة عنه بمتابعة المارة فى الطريق .

وبصوت أقل نبرة عن المعتاد ليلاً المشاعر التى سيصرح بها :

— منذ أن وقع نظري عليك وتملكتني مشاعر تجاهك ظلت تكبر بداخلى يوماً بعد آخر حتى تمكنت مني للحد أنها لم تمنعني بالتفكير فى الارتباط بك ، أخبرتني إيمان أنك يهودية وأنت تعلمين أستحالة ارتباط شاب مسلم بفتاة يهودية .

ثم وبصوت يملؤه الرجاء :

— لذلك هل لك أن تبدي دياتك حتى يتسنى لنا الارتباط ؟

أذهلتها المفاجأة جعلتها تضحك بصوت على ، جعل كل الأنظار تتجه لهذه الطاولة التي يجلس عليها شاباً وسيماً وفنأة على قدر ما من الجمال

__ وكأنك مثلاً تطلب مني أن أبدل ثيابي لأنها لا تروقك وحتى في طلب أحدهم لي بأن أبدل من ملابسي لأنها ليست ملائمة لنوقه فيني أرفض وأعنفه على ذلك ، وأنت هكذا وبمتهى الهدوء تطلب مني أن أبدل دياتي لتستطيع الارتباط بي ، أخبرني ما الذي منحك كل هذه الثقة وأعطاك الحق في ذلك ؟

__ لم أقصد بالطبع الاستخفاف بديناتك ، ولكني أحبك واعدك أنى او فر لك حياة جميلة .

__ ربما تؤمن بأعتقادات النازية في أننا نحن معشر اليهود مجرد جردان لا تستحق العيش.

هز رأسه نافياً بجدة

__ مؤكداً لم أفكر في ذلك أبداً .

وضع ساقاً فوق الأخرى وأشعل تبغها بينما وضع النادل فنجانين من الشاي وقطعتين من الجاتوه

__ولماذا إذن تطلب مني أن أبدل من ديني وأدخل في الإسلام كشرط للارتباط بي أو ليس النبي محمد " صلى الله عليه وسلم " قد تزوج من يهودية!!؟

__ زواج نبي الله من المسيحية واليهودية كانت له دوافع واسباب أخرى.

__ بالعكس لقد أمره الله الزواج من غير المسلمة حتى يبيح للرجال المسلمين أن يرتبطوا بمن هي لا تدين بالإسلام ، عليك الاعتراف بأن الشجاعة تنقصك لتخبر أهلك بأنك تريد الارتباط بفنأة يهودية !!!

نظر اليها طويلاً ثم أخبرها

__ امنحي نفسك بعض الوقت للتفكير .

__ لن أفكر في شيء . فقط لأنى أرفض فكرة الزواج في الوقت الحالي .

كانت تلك الكلمات كما لو أنها صفعه على وجه الحلم ، على أثرها طلب الحساب وغادرا المكان وبتحية المساء التي ألقتهما عليه غادرت سيارته بعدما توقف بها أمام باب المنزل مباشرة .

كانت ديدو خمدت للنوم وحمدت الله على ذلك ، ففي هذا المساء بالذات كانت في غنى عن أى من الأسئلة الفضولية .

أستيقظت علي نداء بائع الورد الذي يحمل معه سلة كبيرة بها جميع أنواع الورد البلدي بألوانه المختلفة الأحمر والأبيض والأصفر و زهور النمر حنة والقرنفل .أزاحت الغطاء عنها وقامت تُفرك عينيها وخرجت للشرفة ، كان الجو مشمسًا جميلًا . النسوة من الجارات في الشرفات المجاورة تنادين علي بائع الورد وما أن دخلت للشرفة حتى تحولن بنظرهن إليها ، في البدء هزت رأسها لهن بإيماءة خفيفة بتحيةة الصباح ثم وضعت يدها علي رأسها لتكتشف أنها قد نسيت أن تضع الشعر المستعار وها هن النسوة عيونهن معلقة علي رأسها الحليقة . رجعت عدة خطوات للخلف وأغلقت زجاج الشرفة . وقفت أمام المرآة تتحسس موضع صفة الفأس علي رأسها التي تركت ندبة لن تنضُب أبدا . وتذكرت وقتها مشهد تلك المرأة التي بمنتهي القوة والعنف نزلت بفأسها علي أم رأسها تحاول أن تجمع حروف أسمها التي علقتها في بطاقة ورقية حول عنقها ، ولكنها فشلت كعادتها دائما . فقد كان تأثير الضربة قوي للحد أنه محي من ذاكرتها أي أرقام أو أسماء كانت قد خزنتها في تلك الفترة التي سبقت الحادثة مُباشرة .

خرجت علي صوت جلبة بالخارج لتجد الحالة ديدو وقد دخلت في فصال مع بائع الورد علي ثمن العدد الكبير من الأوقية التي أشتريتها.

سألتها مستغربة :

- ما كل هذا هل تنوين فتح محل للزهور ؟

أجابت وهي مشغولة بوضع الزهور في أنية نحاسية كبيرة

- أنوي صناعة مربي الورد وشرباته وصناعة زيت الورد لتقطر به الماء وأضعه في بعض الأصناف من الحلوى .

غادرت هذا الصباح وانفها مزكوم بروائح الورد منية نفسها بيوم جميل يشبه تلك الرائحة . أخبرها يوسف أثناء لقاءها به في ردهة البنك كالعادة أنه سيكون في أنتظارها بعد انتهاء العمل في بار فندق شبرد ، وطلب منها أن تدخل من البوابة الجانبية للفندق التي تصل للبار مباشرة . ما أن أنهت ساعات العمل وخرجت من البنك وجدت أن الجو جميل يناسب أن تتريض حتى تصل للفندق الذي كان على مسافة قريبة من البنك. دخلت من الباب الجانبي للفندق الذي أوصلها للبار مباشرة كما أمرها يوسف . كانت الأضواء خافتة داخل المكان وتتسلل موسيقي هادئة ، لمحتة يجلس أمام البار يجتسي كأس من الفودكا ، انتبه وشعر بها تجلس بالمقعد المجاور له

سألها عامل البار ماذا تريد أن تشرب ؟ فطلبت منه عصير الليمون .

التفت يوسف لها وسألها وهو يداعب بشرتها بأنامله

- كيف حالك ؟

-متشوقة ؟

- لأي شيء؟

- لأعرف الأخبار التي بجوزتك ولأهميتها طلبت مقابلتي هنا .

- تخيلت أنك ستقولين أنك علي شوق لي !

تنفست بعمق ولم تنطق

- حسناً دعيني أخبرك أنك قُدمت خدمة كبيرة للعالم أجمع بحصولك علي تلك الشفرة التي بإمكاننا بها سحق الأعداء في معركتنا القادمة معهم بالصحراء الغربية ، سننتظر للحظة الحاسمة ونسبهم بفك شفرة تفجير الألغام ، و وقتها سينفجر اللغم في وجوههم ، وبذلك سنلحق الطاغية هتلر وقواده درساً لشدة قسوته لن ينساه يوماً .

ادرات رأسها في اتجاهه ونطقت تملؤها الحماسة

- كيف حصلت علي الشفرة ؟

- أخبر الرئيس الحلفاء بالمعلومة الخطيرة التي حصلتِ عليها ، وبعثوا أحد رجالهم وقام بعزف النغمة علي البيانو الموجود في دير سانت كاترين ، ليفاجأ بدرج سري يفتح تلقائياً عند عزفها ، خبأت به ورقة بها أكواد سرية قام بتصويرها ثم وضعها مرة أخرى مكانها وغادر المكان، وعند حصولهم على هذا الكود لن يشكوا ولو للحظة بأن هناك أحداً قد سبقهم إليه .
شعرت بشُعريرة تسري بجسدها عندما فكرت أن تلك المعلومات التي حصلت عليها من فون وهو واقع تحت طائلة السُكر ستؤذيه وربما تودي بحياته وهو لا ذنب له ، فقد أخبرها أنه غير راض عن تلك الحرب ولا عن ذلك القتال ولا عن تلك التعليمات التي يأمرهم بها هذا القائد المهووس ، ولكن كان أجدى به أن يستقيل أو يعتذر عن الأستمرار في مهمته والدفاع عن المبادئ التي يؤمن بها.

لاحظ يوسف أنها دخلت في تفكير عميق

- أين ذهبت ؟

- أبدأ كنت أفكر لو أن كولونيل فون أصابه مكروه هل سأكون أنا السبب ؟

- ولماذا يُشغلك أمره ؟!! وما قيمته أمام كل تلك الأرواح البريئة في كل أنحاء العالم التي تزهد وتعذب علي يد نظامه ؟

- ليس لفون دخل في ذلك حتي انه غير راض عن ما يحدث .

نظر لها بعيون تملؤها الشك والريبة قائلاً :

- ولكن أخبريني كيف حصلتِ منه علي تلك المعلومات وأي ثمن دفعتِ لتحصلي عليها ؟

- محما دفعت من ثمن فسيكون بحسنا مقارنة بأهمية المعلومات ، فهذه المعلومات لن يستطيع الألمان دخول مصر واحتلالها وبهذا

الأحتلال يكونوا قد وضعوا متاريسهم في الشرق الأوسط وبذلك يصبحوا قادة العالم وبلا منازع .

- اطلاقاً لن يحدث هذا .

كانت الشمس تميل للغروب عند مغادرتهم المكان ، والجو أصبح أكثر برودة عنه في العصر. أخبرها بصوت اهدأ من نبرته الطبيعية :

- هناك عملية فدائية علي مركز قيادة روميل في الصحراء ، وهو يقع وراء الخطوط الأمامية بمائتين وخمسين ميلاً تقريباً إذا نجحنا

في تحطيمه فهذا معناه أننا قد كسبنا نصف الحرب تقريباً وهي لم تبدأ بعد وذلك عن طريق تعطيل القيادات ومراكز الرئاسات .

- إذا نجحنا بها تقصد من ؟

- سأشارك في هذا العمل أيضا وإن لم أرجع سالماً منه فعليك أن لا تتوقفي أبداً عن المضي في مهمتك .

- ولكن ؟

- ليس هناك لكن أنه واجب انساني.

صاغها مودعاً وهو يشد علي يديها بينما هي قد شدته اليها لتعاقنه بعنف الوداع الأخير فرما كان هو .

كان سيطلب لها سيارة أجرة عندما منعه من ذلك قائلة :

__ أريد أن أتمشي للبيت .

__ وأنا ايضاً .

كان طريق كلاً منهما مختلف عن الآخر فسارا عكس الاتجاه كلاً منهم مولاً ظهره للآخر يخطو متمهلاً في طرقات الحياة المتعرجة ولا يعرف

لأى مصير هو ذاهب .

بعدها بيومين أعلنت الصحف والأذاعات عن ضربة قوية لعدد من الفدائين من وحدة كوماندو الحلفاء على مقر روميل في الصحراء الغربية أدت لقطع الاتصالات عن مقر القيادة وتعطيل وصول الأمدادات ، وبالرغم من إعلان موت جميع من شارك في تلك العملية من الفدائين إلا أنها كانت تنتظره!

كانت تنتظره بقامته المديدة وأناقته المعهودة وبأبتسامته المغربية ، تنتظر أن يطرق الباب ككادته برنين متلاحق وملحاً ، تنتظر أن تتقاطع خطواتها في ردهات البنك صباحاً وبإيماءة بسيطة من رأسه يلقي عليها التحية وكأنه لم يداعب بشرتها ابداً أو يدخلها معاً في قبلة طويلة تحمل أحلاماً مشتركة ، تنتظره على قارعة الطريق ليأتي من خلفها ويشبك يده في يديها ويقود خطاها لأجتماعاتها السرية ، كانت تنتظره أن يحضر فكان جميل معه أن تبقى في انتظاره، حتى وأن لم يحضر ابداً.

فلتقتبس قول الفيلسوف إذاً " لا يعني الموت شيئاً يكون فلا نكون .. يكون فلا نكون "

ولن ترتدي حداده فرجل مثله ضحى بحياته في سبيل البشرية لن ترتدي عليه سواداً .

كانت ترتبك عندما تطرح عليها ديدو اسئلتها عن يوسف :

- أين ذهب ؟ لماذا لما يعد يأتي ؟ وحتى أن كان قد أستقل قطار القاهرة لفلسطين أو الباخرة من ميناء الإسكندرية لابطاليا فلماذا لم يخبرني ويودع عائلته مسبقاً ؟ لماذا لم يترك وراءه رسالة أو خطاباً ؟ لقد ترك كل شيئاً خلفه مُعلماً حتى أنه لم يغلق الاضاءة في غرفة نومه و لم يغلق النوافذ و الستارة الحريية بغرفة الصالون مازال يداعبها الهواء ؟

كيف كان لها أن تخبرها أنه قرر أن يغادر بدون وداع ودون أمتعة شخصية؟ لا لن تخبرها تركتها تحي على قيد رجوعه , وأكتفت بأن عللت لها غيابه المفاجئ لسفره في محاولة منه للبحث عن أهله .

منذ رحيل يوسف وتملكت منها الحماسة وكأنه سرها اليها بتلك التضحية بحياته في سبيل العالم ، وحتى لا يحتله هذا المهووس ويفرض سيطرته عليه ، وضعت أول خط في كتابها الذي قررت تأليفه عن المجازر النازية والوحشية التي يتعرض لها العالم وفي الوقت نفسه أخذت في كتابة المرافعات التي سوف تقدمها للمحاكم لتساعد كل من تأذى بسببها .

أخبرها الرئيس في أحد اللقاءات أن الحكومتين البريطانية والأمريكية رفضتا قذف السكك الحديدية المؤدية لمعسكر اشويتز وتنفيذ برنامج اطلق عليه برنامج النجدة ، و المقصود به نجدة اللاجئيين وضعته مؤسسة لاجئى الحرب التي أسسها روزفلت ، هذه المؤسسة طلبت من الحليف البريطاني تنفيذه ولكنها اعتذرت عنه لأنها وجدت أنه سوف يعطل العمليات العسكرية ، وفي نفس الوقت كان هذا الرأى نفسه هو رأى وزير الدفاع الامريكي .

__ ولكننا لن نياس ابداً تأكد من ذلك .

وغادرت وهي يملؤها الأمل والحماس

وفي اليوم التالي أعلنت الوسائل الإعلامية والصحف أخبار معركة العلمين التي دارت بين روميل وقوات الحلفاء ، هذه المعركة التي خلقت تغييرًا جوهريًا في خط سير الحرب ، فبعد العملية الفدائية ، لمركز القيادة ، ضعفت قوة روميل وبخاصة بعد امتدادات أمريكا للحلفاء ، فأصبح هناك تفاوت كبير ما بين الجانبين ، وسيطر الحلفاء على الحرب جؤًا وبترا بعد حصولهم على الشفريات الألمانية الخاصة التي أتاحت لهم كشف الخطط الألمانية ، ولم يستطع روميل الوقوف في وجه قوات التحالف فأخذ في التراجع ولكن وبالرغم من كل شيء كان هتلر مُصرًا على خوض المعركة حتى آخر جندي ودفع روميل للاستمرار وتوالى المواجهات بين روميل والقائد مونتجمري البريطاني (

الأمل الذي تعلق به المصريون في انتصار ألمانيا على حلفائها في الصحراء الغربية ، ودخولهم القاهرة واحتلالها ، كان قد ذهب بتحطم أسطورة روميل ، هذا القائد الذي كان المصريون يخرجون للشوارع يهتفون بأسمه كيداً في الأنجليز ، ظنًا منهم أن احتلال ألمانيا لمصر سيكون أخف وطئًا من احتلال إنجلترا لها وكأنهم لا يرون النظام النازي والطاغية هتلر ولهوه بمقصلة الحرب .

في الاجتماع الذي عقد هذا المساء أعلن الرئيس أن الجانب الألماني قد خسر المعركة وبخسارته المعركة فهذا يعني أنه قد خسر الحرب ، وأعلن شكره لها ، فتحديدًا حصولها على الشفرة أستطاعت بها قوات الحلفاء القضاء على الخطة الحربية " حدائق الشيطان الملمعة" والتي بدونها لم يكن في أستطاعة الحلفاء الفوز بتلك المعركة المهمة .

وفي تلك الأثناء كانت أحمرة التيكر تعمل بشكل متواصل ودون توقف تنقل أخبارًا وتبعث أخبارًا ، ولكن كان هناك خبراً سيئاً في طريقه إليها ، جاءت به الموظفة التي استقبلته على أحد الأحمرة وناولت ورقة طويلة للرئيس ، فتبدلت ملامح وجهه ، ثم وجه حديثه لها ، ولها وحدها وكان هذا الخبر لم يخص سواها:

__ الكولونيل كلاوس فون ستافنبرج قد أصيب أصابة كبيرة في معركة حربية في تونس أدت لفقدانه أحد عينييه وذراعه اليمنى وقد نقل لألمانيا ليتلقى العلاج اللازم له .

أطاح هذا الخبر بفرحتها بانتصار الحلفاء في الحرب لقد تعرض الرجل الذي قابلته بعضًا من الوقت ولكنه أحتمل فيه كل القلب لمأساة حقيقية أغروقت عيونها بالدموع وغادرت قبل أن يكشف أحد سرها .

على مقعد مقابل لنهر النيل جلست تفكر في أن ترسل له رسالة طويلة ، تخبره فيها بأنها قرأت نبأ إصابته من الجرائد وهي تتمنى له الشفاء العاجل وستخبره ايضاً ، أنها أشتاقت له وأن هذا الوقت القليل الذي قضته معه من أسعد أوقات حياتها. ماذا أيضاً ستخبره .. ؟ ستذهب في الصباح لتستأجر صندوق بريد برقم بريدي خاص ، بها وبأسم مادلين حنا كما يعرفها هو وعلى هذا القرار غادرت .

كان الجو ربيعياً جميلاً ففتحت النافذة الزجاجية فكانت تهتز الستارة الحريرية مع النسيم الذى يحمل رائحة الزهور . جلست على المكتب تسند مرفقيها عليه وتنكبُ برأسها فوق الورقة وتأخذها الحيرة بأي الكلمات تبدأ وكيف تخبره له أنها تعرفت عليه ؟ حسناً سوف تقول له في عبارة قصيرة أنها قد رأت صورته في إحدى الجرائد وقد تعرفت عليه فور رؤيتها ، وتفهمت أنه أخفى عليها هويته الحقيقية لحساسية منصبه ، ثم ستكتب له " كيف حالك ما هي أخبارك ؟ " ولكن أى مهانة في تلك الكلمات إنها استدراج للألم وليس أكثر!

لقد تأملت كثيراً عندما سمعت خبر أصابتك . هكذا بدأت رسالتها لتتحول بعدها الرقعة البيضاء للورقة مرتعاً للروح عن مشاعر حبيسة ودموع لا تتوقف ورجل أحبته كثيراً، رجل طارحته الغرام على وقع موج البحر موجة تذهب بها وأخرى تأتي بها ، أعادت قراءة الرسالة عدة مرات بعد كتابتها للتأكد أنها قد كتبت لمرة شيئاً جميلاً، في ذلك الذى يسمى رسالة غرامية ، رسالة غرامية لرجل لم تلتقه سوى مرة يبعد عنها الآن الألاف من الأميال ، يرقد في أحد المستشفيات يتلقى العلاج . لم تنس أن تخبره برقم صندوق بريدها ليراسلها عليه ، وقررت أن تقوم بوضع الرسالة في صندوق البريد أثناء ذهابها للعمل صباحاً .

مرت الأيام بوتيرة أكثر هدوءاً وأكثر كسلاً عن المعتاد ، أصبحت الاجتماعات أقل، فقد أوشكت الحرب على نهايتها ويوماً بعد آخر يكتسح الحلفاء المعارك ، ولكن هتلر كان قد قرر المضي في الحرب لأخر نفس فيه وقررت هي المضي في كشف جرائمهم وفضحها في صفحة بعد صفحة من كتابها .

كانت تتابع الصحف الأجنبية والعربية بشغف لتعرف المزيد عن أخبار فون ، علمت أنه غادر المستشفى وأمثل سريعاً للشفاء . وضعت أحد الصحيفة صورته تحت خبر (كولونيل فون ستانفبرج وقوة إرادة مستحيلا) ونعتته بأنه رجل المستحيل فهو يرفض الاستعانة بمساعدة أحد بالرغم من فقدة لعينيه اليسرى وذراعه اليمنى . تلك الذراع التى أحبها كثيراً والتي كانت تطوقها بدفء العالم كله ، يظهر في الصورة وهو يرتدي بذلته العكسرة كاملة ، ويخفي عينيه المفقودة بعصبة سوداء ، و يظهر أحد أكمام سترته وهو خالي من ذراع . أنه تماماً كما هو، يواجه جبروت عاهاته بكبرياء متعالية . قضت ليلتها معه بعدما أقتطعت صورته من الجريدة لتحتفظ به و وضعتها في محاذاتها فكأنه كان يبيت ليلته بجوارها . كانت تشعر أنها أخيراً وحيدان وبعيدان عن كل الناس ، لتكتشف جمال وجوده بجانبها حتى وإن كان مجرد صورة بجريدة .

بعد مرور شهر كامل وفي صباحي صيفي مرت على مكتب البريد ، أدارت قفل صندوق بريدها الخاص بمفتاح فضي صغير لتفاجأ برسالة منه . أنشلتها بلهفة و انتظرت حتى ذهبت للبنك وجلست على مكتبها لتقرأها ، لتفاجأ بأن تاريخ كتابته لها كان ذات تاريخ الليلة التى قضتها مع صورته . كما لو أنها سربت اليه حينها وإلا لماذا فى تلك الليلة بالذات جلس ليكتب لها!؟

قرأت رسالته فى المرة الأولى على عجل وكأنها تبحث فيها عن شوقه اليها ، تقفز ما بين السطور ، تفتش بين سطر واخر كلمة واخرى تركض فوق الأحرف . ولكنه لم يفصح عن شيء ، أخبرها أنه بخير وتمائل للشفاء وأن أمسيتهما معاً فى الفندق لن ينساها العمر كله ، ويحتى لو يراها مجدداً . فى نهاية الرسالة كتب " لقد وعدتك بخبر سعيد قريباً فانتظريه ..."

ولكن ترى ما هو هذا الخبر السعيد ؟ هي لم تنس قوله هذا عندما أعلنت أمامه كراهيتها لهتلر وللنازية وما يصنعه في العالم فطمأنها بأن هناك حدثاً سعيداً وعليها أن تنسى قلقها ومخاوفها تماماً .

اكتفت بوهم امتلاكها له حتى وإن كان في بضعة كلمات ، جلس خصيصاً ليسطرها لها بذراع واحدة وعين واحدة . مسجونة كلماته إليها في هذه الصفحة البيضاء تستنشق منها أنفاسه وعطره . تلمح ما بين السطور أماً ما وفرحاً ما ، فبعض الكلمات ارتدت ثوب الفرح وأخرى كانت شبيهة دامعة ، بالرغم من صمت الأحرف المستفز ولكن كان من السهل أن نكتشفها أنوثتها المتجمة به . أغلقت الرسالة التي قرأتها مراراً وتكراراً ، ووضعتها بحرص في حقيبة يدها ، فكانت أعلى ما تملكه وعادت للبيت ببضعة كلمات صنعت لزمن قادم حزنها .

أجلت كتابة رسالتها إليه لعطلة الأسبوع حيث قررت لتخرج في نزهة نيلية وتكتب له وهي على متن مركب شراعى يتهادى بها على وقع نبض القلب ، ولكن القدر لم يمهلهما الفرصة ، فقد أعلنت صحف اليوم التالي بوقوع مؤامرة لأغتيال هتلر قام بها عدداً من جنرالات قادة الجيش الألماني وسميت "بمؤامرة الجنرالات" وهي العملية الفالكيري وقد قام بتنفيذ العملية الكولونيل فون ستافبرج الذي حمل حقيبة بها قبلة زمنية وفي اجتماعه الأخير مع هتلر وضعها بجواره ثم خرج بجحة أن عليه أن يجري مهاجمة مهمة وعاجلة وفي هذه الأثناء قام أحد الأعضاء بنقل الحقيبة من مكانها ووضعها أسفل طاولة الاجتماعات الخشبية ، دون أن يدري ما تحتويه وتنفجر القبلة وتحمي المائدة الخشبية هتلر من موت محقق)

هذه هي المعلومات التي جاء بها الخبر . لم تستطع أن تصدقها ، هل حقاً فون قام بذلك ؟ وهل هذا هو الحدث السعيد الذي وعدها به ؟ كان كل ههما أن تتأكد من صدق تلك المعلومات وتفصيلها ، لذلك خرجت من المكتب مهرولة واستقلت تاكسي وذهبت للقاء الرئيس الذي استقبلها مرحباً وهو يخبرها أن الرجل الذي التقت به ذات يوماً يستحق لقب بطل وعن جدارة وبالتفصيل جلس ليحكي لها .

مجموعة من كبار ضباط الحرب كانوا مجتمعين في وزارة الحرب بمكتب الجنرال اولبريخت رئيس اركان حرب الجيش الوطني ، وكانت أعصابهم جميعاً متوترة وأعينهم مركزة على جهاز التليفون . فقد كانت إشارة بدء الثورة هي رنة واحدة للتليفون ، وبعد ساعات من الأنتظار الطويل دق جرس التليفون اخيراً في الثالثة والنصف بعد ظهر 20 يوليو 1944 ، و رفع اولبريخت الهاتف ليلتقط كلمة واحدة "فالكيري" و ردها لينتفض الضباط واقفين ، وفي خلال لحظات راحت الكلمة الكودية فالكيري تطير عبر كل الأسلاك في اوربا ، برلين ، باريس ، فينينا ميونيخ ، بروكسل ، وفي كل مكان كان القادة يفتحون مظروفاً مكتوباً عليه الكود فالكيري وهذه العملية التي دبرها القادة من اركان الحرب تعنى انقلاباً عسكرياً على هتلر لنقل السلطة ليد الحكومة التي ستقوم بمفاوضة الحلفاء على الصلح ، حتى ولو أدى ذلك للتسليم . وتلقى هذه الكلمة يعني أن العملية قد تمت وأن هتلر كان مات . وفي سرعة البرق كانت الأخبار تتوالى بعضاً منها يعلن موت هتلر والأخرى اصابته فقط ، كانت اخبار متعارضة تأتي وتذهب بين اللحظة والأخرى .

جاء إعلان موت هتلر من مقر قيادة الجيش بينما جاء نفي خبر قتله من مقر قيادة هتلر نفسه عرين الذئب ، التي أعلنت أن هتلر بخير و أمرت بعدم تنفيذ أي من التعليمات سوى التي تخرج من غرفة قيادة عرين الذئب نفسها و بثت تفاصيل المؤامرة وكان مقرها وزارة الحرب فأمر بمحاصرتها والقبض على قادتها جميعهم . أصبحت الوزارة في حالة شلل تام ، التليفونات ترن ولا يرد أحد ، واصهزة التيكتر تكتب عشرات الرسائل ولا من أحد يقرأها أو يرد عليها وفي غضون دقائق قليلة انتشرت قصة الأغتيال .

بعد أن سحب نفس من غليونه ببطء :

__ كان مركز المؤامرة هو الكونت فون ستوفنبرج وقد أختاره المتآمرون على هتلر ليقوم بمهمة اغتياله ، لأنه كان ظابط اتصال مع مركز القيادة رأساً "عرين الذئب" وقد عينه المسئولون في وزارة الحرب من القادة حتى يتثنى له القيام بذلك العمل ، كان يظهر الكثير من الكراهية الشديدة لهتلر ولسياسته وكان يعلنها ولا يخفيها ولذلك وقع عليه اختيار القادة وعرضوا عليه الامر وقبل تنفيذه وهو بنفسه الذى وضع القنبلة الزمنية فى حقيبة اوراقه ووضعها بالقرب من هتلر فى مقر الاجتماع و انسحب بحجة أنه سيقوم بمكالمة تليفونية مهمة ، أنتظر لعدة دقائق حتى شاهد القنبلة الزمنية تنفجر وتدوي دويًا هائلًا ، ثم خرج من القيادة مسرعًا ليذهب لبرلين ، وفى طريقه إليها توقف واستخدم الهاتف ونطق بكود النجاح للعملية " فالكيرى " وهذا يعنى أن هتلر قد مات ، فظن القادة أن هتلر قد مات حقًا ومن هنا أعلنوا ذلك ، وبعدها بقليل أذاع هتلر بنفسه خطاب بمحدث ملتعب وشديد اللهجة ليعلن لشعبه وللعالم أنه لا يزال على قيد الحياة وأن تلك العملية قام بها بعض الخونة . وبتفتيش مكتب ستافنبرج عثر على مظروف به خطة العملية بالكامل ، ولكنه وضع عليه للتمويه عنوانًا خطة الدفاع عن برلين ضد الغارات الجوية" وبتلك الخدعة البسيطة كان الرجل يخفى خطته الخطيرة بعدما وضع على المظروف عنوان لخطة عادية يعلمها جميع الضباط والقادة ، مطمئنًا أن بهذه الطريقة لن يفكر أحد فى الأطلاع على خطته الكارثية . وكانت خطة جهمنية تبدأ بتوزيع الأوامر اللازمة للانقلاب على جميع القيادات داخل مظروف مكتوب عليه " لا يفتح إلا بعد صدور الإشارة الكودية فالكيرى " ولكن بعد انكشاف خطتهم وفشلها تم القبض على جميع القادة المتآمرون وغدًا سوف يعقد مجلس عسكري لإصدار الأحكام عليهم .

استمعت إليه دون التفوه بكلمة ، كمن لا يصدق امرأ من فرط استحالته يشك أنه حقيقي و كذهولة من أمرها تركت مقعدها وبدون وداع غادرت . سارت حتى وجدت أحد المقاعد الخشبية أمام نهر النيل .جلست فكر أنها ومنذ أنتقته كانت تشعر به رجلاً فوق تلك السياسات القذرة والخطط الدموية الحربية ، إنه لا يشترك فى شيء مع أولئك الذين وجدوا فى حصد الأرواح حلاً لكل العقد النفسية التي يمتلكوها.هل كان يقوم بتلك المهمة وهو على ثقة تماماً بأنها ستنجح ؟ أم أنه نذر روحه لحقن دماء الشهداء فى كل أنحاء العالم و وجد فى موت هذا الرجل أنقذاً لملايين الأرواح التي تقتل و تشرذ ؟ كيف كان يخفى هذه النيران المشتعلة تجاه قائده الذى يعمل على تنفيذ تعليماته وخططه ؟ تلك الخطط التي يضعها فى غرفة الخرائط الحربية بمخبئة الذى يسمى " عرين الذئب" يعقد جلسات الموت ويحبك خطط الفتك وهو جالس يجتسي قهوته بهدوء . تساءلت هل بلقائها به عمقت فيه هذا الشعور بالكراهية ؟ وإلا لماذا فى هذه الرسالة التي بعثها لها تذكر وعده الذى قطعه لها . هل كان يخطط وقتها لمثل المهمة أم أنه كان يتنبأ بأغتيال هذا الرجل حتي وأن كان على يد رجل آخر ؟ والأن وبعد فشل تلك العملية فما المصير الذى فى انتظاره ؟ ولماذا كان على القدر يُبدل الأدوار؟

ها هو هتلر الذى كان مقدراً له أن يُغتال، مازال ينعم بحريته الكاملة ليجارس دوره فى قتل المزيد من البشر، وها هو فون فى طريقه للموت ولكن هل على هؤلاء النساء اختيارهم طريقة موت رحمة به؟ وكيف و قد أنتهى الزمن الوديع حتى فى موته ؟ الآن هو زمن الموت المفاجيء والأغتيالات المفلقة والقنابل الغاشمة . تمت لو فى أستطاعتها العيش هناك فوق أى كوكب آخر حتى يمر هذا القطار الجنوبي الذى يحصد معه ارواح كل من تحبهم الواحد وراء الاخر .

في صباح اليوم التالي وهي تتنأب بعد ليلة خاصهما فيها النوم خرجت سريعاً لتلتقط جرائد اليوم التي يضعها بائع الجرائد أمام عتبة البيت . أنثشت الجريدة سريعاً و لم تكن لتحتاج لتبحث بين الأخبار والأحداث عن الخبر الذي تنتظره، فقد كان مكتوباً بالخط العريض الاحمر في لصفحة الأولى .كانت الأخبار مختصرة وموجزة في رداؤها الأحمر الدموي ، كان هتلر يعلن نفسه أنه لا يزال على قيد الحياة على الصفحات الأولى للجرائد وكأنه لم يكنف من الحديث الذي كان يذاع بثه عبر إذاعات العالم أجمع بصوت قلق مرتجفاً وسط وشيش الأذاعة ، كل العالم كان يقف وقتها بجوار جهاز الراديو يحاول ضبط المؤشر حتى يتسنى له أن يسمع بوضوح أكثر هذا الرجل وهو يقول " أنا ما زلت على قيد الحياة بعدما نجوت من حادث اغتيال قام بها مجموعة من الضباط الفاسدين " .

وتؤكد أخبار الصباح ما يقوله معلنة (نجاة هتلر من عملية فالكيري التي قام بتنفيذها عدد من الجنرالات ، وقد حكمت عليهم المحكمة العسكرية التي عقدت بالأمس بالأعدام رمياً بالرصاص حيث أعتقل كلاً من كولونيل فون ستافنبرج و جنرال أولبرخت ووظابط اخر إلى ساحة الوزارة وهناك أطلقت عليهم فصيلة الأعدام النار تحت ضوء سيارة مدرعة)

وفي الصورة كان يقف في مكان فسيح . أمامه عدد لا بأس به من رجال فصيلة الإعدام يسكون بنادقهم في وضع الاستعداد لإطلاق النار ، بنادقهم مصوية عليه و أصابعهم فوق الزناد ، متأهبين لحصاد أرواح هؤلاء الرجال الذين كانوا يريدون أن ينقذوا العالم من الطاغية . تأملت وهي تفكر كيف كان شعوره وقتها وعلى بعد خطوات قليلة من الموت وكيف تلقى جسده الذي احبته كثيراً كل هذه الطلقات لتضع به كل تلك الثقوب .

لقد قتل إذأ رمياً بالرصاص وعلى ضوء كشافات لسيارة مدرعة، لماذا الأهتمام بسرذ تفاصيل أنه قد قُتل على ضوء كشافات سيارة ؟ كما لو أنهم يلقون خبراً لعشاء رومانسي على ضوء الشموع ! بعد ذلك أفردت الجرائد جميعها ، تغطية خاصة لهذا الخبر و صورة هؤلاء الأبطال ملقون أرضاً بملابسهم الرسمية ، جثثاً هامدة وسط بركة من دمائهم .

لقد نفذت المؤامرة في وقت أكتساح السوفيت بعد معركة ستالينجراد وبعد الانتصار الباهر في نورماندى بفرنسا ، وقتها أصبح الأمر منتهى بالنسبة لألمانيا وصار الموضوع مجرد بعضاً من الوقت ويتم إعلان هزيمتها في الحرب . أما لماذا المضي قدماً في مثل ذلك الأمر ؟ اجاب فون عن هذا التساؤل من خلال كلماته القليلة المعبرة التي صرح بها قبل موته " أن ستة عشر الف شخص يقتلون يوميًا، هؤلاء لا يموتون في الحرب بل قتلأ على أيدي النازيين في المعتقلات ومعسكرات الإبادة الجماعية وبالتالي فإن كل يوم يمر من زمن الحرب جدير باستغلاله ،حتى يتسنى لنا بعد ذلك أن نحيا في مواجهة أنفسنا وضائرنا " تذكرت عندما أخبرها عن ذلك القسم لهتلر هذا القسم الذي يقسم عليه كل القادة في الجيش النازي للولاء التام ليس للوطن ولا للدستور أو لقيم ومبادئ ، ولكن لهتلر وأنه في كل المرات كان يرفع ذراعه دون أن يصيح " يحيا هتلر " .

أغلقت الجريدة وعلى وجهها ابتسامة حزينة لرجل مرت بمحاذاة حياته ذات يوم ، ولم تع وقتها أنها تمر بحياة بطل . كان منخططاً لها أن تذهب للقاء رجل فإذا بها تقع في غرام رجل آخر، طمأنها بأن شيئاً سعيداً سوف يحدث ثم ترك وراءه بضعة كلمات و مضى ، لتعلن بعدها بعدة أشهر الصحف خبر قتله برصاصات ثقبت جسده على ضوء كشاف سيارة مدرعة . كانت تعلم معني أن تتصفح جريدة لعام 1944

لتستطلع قدر الكون فيه ، متيقنة بأنه سوف تصيها صدمة عصبية من الخراب المدمر وعدد الموتى والكثير من الجثث التي عثر عليها والأخرى التي دُفنت أشلاء دون التعرف على هوية اصحابها . ولكنها لم تصدق أن عيناها ستقع يوماً على صورة الرجل الوحيد الذي أحبته وقد كتب تحته " مات قتلاً بالرصاص " وتفترش الدماء مساحة الأرض جواره لتتحول الحياة للون الأسود الكالخ .

ثنت الجريدة ووضعتها في درج مكتبها وكان الصمت يجعلنا أكثر فصاحة على ما نحن عليه ، أكثر حزناً ، وأكثر يئماً ، التزمت الصمت لعدة أيام فقدت الرغبة في الحديث وفي البكاء وفي الحياة ، أصبحت رغبتي الوحيدة هي ملء صفحات ذلك الكتاب الذي كان يزيد حجمه يوماً بعد آخر ، كثيراً ما غارتها علبة الدواء القاتل من ان تتناول منه قرص لتتخلص من عذابها وخاصة بعدما تمددت الحزن الى ما لا نهاية له من الوجع ، وأصبح اليأس ككرات جليدية يتندرج بها الى الهاوية ولكن هي التي تعرضت لأشد أنواع الألم والعذاب ولم تفكر أن تتخلص من حياتها في معسكر الموت كما كانت تفعل الكثيرات بقطع حبل الوريد او برمي انفسهن على السلك المكهرب أو حتى بالتطاول على الحرس وسباب النازية وجيشها لتقاد فوراً لغرفة الغاز ، لكنها كانت تؤمن بأنها عليها مواجهة الحياة وتكون نداء لها .

خرجت في نزهة هي وديدو لحديقة الأزبكية . كانتا تتصنعان الفرحة وتستجندان بالأمل للهروب من ذكريات قد تفضي بها للبكاء، فرشت ديدو غطاء من كاروهات الأحمر والأبيض على عُشب الحديقة بعدما اختارت ظل شجرة سنديان ضخمة لتجلسا تحتها ، وأخرجت من الحقيبة علبة بلاستيكية بها بعض الفاكهة والفظائر بينما سكبت إيفا العصائر في الأكواب . سندت ديدو ظهرها على جذع الشجرة وبدأت في غزل شال من الصوف وأكفت إيفا بتأمل الطبيعة الصامتة التي عدت تشبهها في صمتها . في تلك الساعة بالذات داهمتها روائح حدائق وممرات غابة بولينا في ذلك الوقت من العام عندما تزدهم بالسيدات الأنيقات اللاتي جئن للتريض والأهفات الصغيرات وهن واضعات أطفالهن في عرباتهم و يراقبنهم من حين لآخر أثناء انشغالهن بالقراءة أو بالحديث مع أزواجهن . والبلابل فوق الجميع تغرد و تفترش الأرض الزهور التي سقطت بفعل النسيم ، بينما الأشجار العجوز تتأملهن في ابتسامته . تذكرت عندما كانت تذهب إليها أيام الأحاد هي وأمها تجلسان جنباً الى جنب على أحد المقاعد الخشبية . أمها التي رفضت الأناقة الفرنسية المصطنعة والأماكن فائقة الترتيب والمطاعم شديدة الثراء وفنادق الخمس نجوم ، لم تحب سوى تلك الطبيعة في بساطتها تلك الطبيعة التي لم تكلف في أرتيادها سوى ملابس بسيطة وحذاء رياضي للتريض ما بين غصون الأشجار . تحب أن تطيل النظر في تلك اللوحة المعلقة أسفل كل شجرة وكأنها بطاقة هوية لها ، مدون فيها اسمها وتاريخ زراعتها والسلالة المنتمية إليها ، و لا تنسى أن تصطحب معها سلة الخبز الفرنسية الشهية ، تتذكر جيداً تلك الأوقات. نعم للذكرى رنين داخلي لا يمكن إيقافه ابداً ، تغتالها وجوه من أحببت فتجلس في المقعد المواجه لغيابهم تنتحب. تساءلت ماذا بعد أن ترجع مرة أخرى لباريس ماذا سوف تفعل بكل تلك الأيام المقبلة دونهم ومقاعد العمر أصبحت خالية منهم .

جاءت الأحداث سريعة متلاحقة ، مات روميل بعدما علم النازيون أنه كان يعرف بأمر محاولة اغتيال هتلر ، تأكد أن المانيا تنهار وهتلر هو السبب الرئيسي في هذا الانهيار ، لذلك لم يكشف عن المؤامرة ولكنه اعتذر عن المشاركة فيها ، وأبدى لهم ترحيبه بأنه سوف يكون على أتم استعداد للمشاركة في أى عمل يخدم ألمانيا في حال أن نجحت محاولة الاغتيال . وقد خيره النازيون بين الموت منتحراً أو ينصبوا له محاكمة علنية ، ولكنه أختار أن يضع هو نهاية حياته بالموت بالسم .

تم إعلان انتهاء الحرب عام 1945 ، بعد انهزام هتلر الذى ظل يحارب للنفس الأخير فيه ، لحقت به الهزائم الواحدة بعد الأخرى وبديكتاتوريته المعهودة ، رفض أن يقاد كالنجاج ليقدّم للمحاكمة بصفته مجرم حرب وفضل أن يسدل الستار على فصول قصته الملتبته التي أشعل فيها فتيل نيران الحرب للعالم كله بعدما بسط سجادته من قتييل بعد آخر . فها هو يطلق رصاصة على رأسه من مخبئه ، بعدما علم أن السوفيت قاب قوسين أو أدنى منه ، والغريبة أنه عقد زواجه على عشيقته ايغا بروان قبل انتحارها بساعات قليلة ، بتناول كلاً منها كبسولة من عقار السانيد ، الذى يؤدي للوفاة في غضون لحظات قليلة ، ولكن هتلر لم يكتفى بتلك الموتة فقد اراد لنفسه موتة أشد قسوة تشبهه كثيراً تصبح مثار للأقاويل لعقود طويلة من الزمان فأطلق الرصاص على جبهته ، وهناك أقاويل أنه أطلقها من داخل فمه ليتطير جزء من جمجمته ، و طلب من النازيين المخلصين الذين ظلوا بجانبه لآخر لحظة بجياته أن يحرقوا جسده حتى لا يحصل عليها السوفيت ويمثلوا به كما حدث مع جثة موسليني ، فقاموا بوضع جثته هو وزوجته ايغا بروان ، داخل سجادته رمادية ونقلوها لبقعة بعيدة وأشعلوا بها النيران . مات هذا الرجل إذاً، بعد أن حول صفحات التاريخ للاحمر الدامى ، كما هو لون دماء من قتلوا في تلك الحرب التي طالت مشارق الأرض ومغاربها .

دخلت القوات السوفيتية والبولندية معسكرات النازية التي حاول النازيون بعد علمهم بانتهاء الحرب طمس معالمها وأخفاء ما بها من دلائل وسجلات و بالرغم من ذلك اخلفوا ورائهم الكثير من الأوراق التي سوف تقودهم للمحاكمة هذا بالإضافة لعدد سجناء اليهود الذين قاموا بالدفع بهم داخل غرف الغاز ولم يمهلهم الوقت لحرق جثثهم للتخلص منها وقد تم العثور عليهم داخل تلك الغرف الخاصة بذلك بالإضافة بأنه كان هناك الكثير من اليهود الذين تم اطلاق سراحهم فور انتهاء الحرب وأعلان هزيمة الألمان .

جاءها هذا الخبر ليجدد حاسها وأملها ، فكانت المدن ترتب نفسها من جديد وهي ترتب أمتعتهما للسفر الطويل على متن طائرة للغياب ستستقلها بتوقيت العاشرة . ستغادر لهنالك مثقلة بجمولة لكل تلك الوجوه التي التقت بها ثم تركتها ومضت . ثنتها ديدو عن السفر وطلبت منها أن تنتظر حتى تستعيد فرنسا هيئتها الأنيقة مرة أخرى بعد الخراب الذي عم بها ، لكنها رفضت، كانت هناك فكرة واحدة تحيا على قيدها وهي الانتقام من تلك السيدة التي رفعت فأسها وبدون رحمة أنقضت به على رأسها هي وتسعون امرأة فرنسية معظمهن من كبار السن .

طلبت من ديدو أن تلحق بها بعدما ترتب أوضاعها هناك ، أكتفت ديدو بأبتسامه باهتة وأدخرت الإجابة لنفسها . كانت تعلم أنها لا تستطيع الاستغناء عن موعدها في الأول من كل شهر لزيارة أبتنها ، بالرغم من اعترافها لها بأن مرة تلو الأخرى ، تسوء حالتها كثيراً حتى إنها فشلت في التعرف عليها .

سلمها الرئيس في مواعدها الأخير معه ميدالية ذهبية تقديراً لجهودها التي بذلتها معهم لخدمة البشرية ، كما طلب منها التكلم التام عن كل ما حدث. غادرت مصر ذات نهار بارد وهي تحمل معها حقيبتها السوداء و أوراقها التي دونت فيها كل شيء. تخفي فتامة حزنها تحت معطف وقفاز من الأبيض مطرز بفصوص من اللؤلؤ ، غزلتها لها ديدو من خيوط صوفية ، ودعتها ديدو بدموع محتشدة وبحض عميق وظلت تراقب التاكسي الذي استقلته من خلف النافذة و تلوح بيديها مودعة حتى أختفت عن نظرها تماما .

نقلتها الطائرة فوق السحاب ، تنظر من النافذة تشاهد الغيات والتي تجمعت كتلال من القطن ، وترى وجوه من أحبهم من فوق تلك الغيات ، تنظر لهم مبتسمة وتلوح لهم بكفها الصغير ، مما جعل الراكب المجاور لها يعتقد أن من تشاركه رحلته فتاة بها مس من الجنون .

ها هي وقد وصلت إلى باريس أخيراً لم يمسه شعور بالفرح أو بالحزن، بعدما أصبحت كل المدن سواء، وعندما أصبحت مسافرة عن نفسها داخل كل الأوطان التي تنسب هويتها لها .كان الحراب واضحاً على كل شيء ولكن خرابها الداخلي كان أكثر سطوعاً، فيجعل كل تلك المساحات الشاسعة من الحراب غير مرئية . أستقلت سيارة أجرة لتصلها للفيلا التي تسكنها . و في طريقها لهنالك كانت تذهب وتأتي بها كل الاحتمالات .هل مازال مسكنهم على حاله أم نُسيف تماماً ؟ وهل كان مرتعاً لجنود الأحتلال الألماني كأكثر شقق باريس أم أنه ظل مغلق على اسراره ؟ وشت لها حديقة المسكن فور وصولها بأن المكان محجور . السائق لم يتوقف عن الحديث عن الحرب والدمار الذي أصاب فرنسا منذ استقلالها للسيارة حتى وضع لها حقيبتها أمام بوابة الفيلا . أزاحت الباب الحديدي فأصدر صوتاً وكأنه يرحب بها ، ألقت نظرة سريعة على الحال السيئة للحديقة ، بينما وهي في طريقها لمدخل الفيلا كانت تسمع صدئ لأصوات من الماضي البعيد ، مياه النافورة الرخامية التي تتوسط الحديقة وهي تنثر ماءها من فم تمثال على هيئة عروس البحر ، صوت المقص الكبير في يد البستاني وهو يهذب به الأشجار ، تعليقات أمها اليومية للخدم حول اعداد مائدة الغداء. اصوات متداخلة تسمعها بوضوح .

تسرع في خطواتها وتصعد الدرج الخمسة للدرج الرخامي التي تقف بها امام الباب الخشبي تماماً . تكة ثم أثنتان للمفتاح في الباب وتعود بها عقارب الزمن للوراء لعدة أعوام . عندما اجتاحت قوات النازية المسكن وقاموا بتفتيشه قطعة، قطعة. قدم لهم أبوها الهويات المزيفة التي حصل عليها، ودون فيها أمام خانة الديانة أنهم من الأقباط ، حتى أسماهم بُدلت لتصبح ملائمة لكونهم من الأقباط ولكن تلك الحيلة التي أستعملها أغلب يهود فرنسا وربما العالم ونجحت مع الكثير منهم لم تنتج معهم لسبب بسيط بأن ابوها شخصية يهودية معروفة في الوسط السياسي الفرنسي، فما كان منهم سوى بأنهم مزقوا تلك البطاقات ثم أصطحبهم معهم لرحلة طويلة في القطار الليلي ، رحلة الذهاب فيها بلا عودة . وكذباً كانوا يجيبون على أسئلة أمها المشوبة بالبكاء ، اخبروها أنهم سوف يُرحلهم لمدينة جديدة أنشئت لليهود فقط . طلب منهم ابوها أن ياخذوا كل شيء ويتركوهم ولكنه في الحقيقة كان يجهل أنهم لا يريدون سواهم .

خطوة بعد أخرى في أنحاء المكان كان الزمن ينقلها لصدى اصوات سيارة مدرعة و رجال يبذلونهم البنية العسكرية معلقين عليها شارة النازية وبعيون مخيفة لم ترحم توسلات وتضرعات أمها لم أو تستوقفهم صرخاتها هي وأخيها بأن يتركوهم .

ذهبت بها خطواتها الأخيرة و توقفت بها امام فراشها تماماً . كان كما تركته منذ سنوات طويلة مضت .دميتها الصغيرة مترعة فوقه بهدوء . تلك الدمية التي كانت أهدتها لها جدتها لأبيها في ذكرى عيد ميلادها السابع ومن يومها ولم تفارقها ابداً . تتذكر أن دميتها بشعرها الأشقر وعيونها الزرقاء ورائحة البلاستيك المطاطي المحببة إليها التي صنعت منه هي أول ما حرصت على أن تصطحبه معها أثناء سفرهم لفرنسا .

دميتها التي ظلت على وفاءها لها طيلة كل تلك السنوات .كانت تثرثر لها بأسرارها الخاصة فلم تجد خيراً منها مستمعاً اليها و اميناً عليها. أنها الوحيدة الباقية لها من أفراد أسرتها و من منزل كان يضح يوماً بالصخب والحياة لذلك أنتشلتها بلهفة وضمتهما لها وهي تبكي وكأن لسان حالها يقول أنتظري ما سوف أقصه عليك من محن ومصائب .

حشر ابوها فرنكاته الذهبية الكثيرة داخل إسفنج الحشو ، و وضعها كما هي على فراشها ، الذي لا يزال مرتب بيد مربيتها الإيطالية تدخر اجرتها لترجع مرة أخرى لإيطاليا وهناك تؤسس مطعم للبيتزا التي تجيد صنعها .ترك أبوها تلك الدمية ورائهم ظناً منه أنهم سيعودون مجدداً . وأن لم تكن تلك المعجزة التي حدثت لإفادها في ذلك اليوم فأني مصير كان لتلك الأموال ؟

صنع أبوها معروفاً لها بتخبئته لهذه الفرنكات الذهبية ، أما عن باقي الأموال التي حصل عليها مقابل بيعه لممتلكاته ومصانعه عندما علم بأنهم قادمون لا محالة وسيجردوهم من كل شيء ، فقام بوضعها في بنوك سويسرا قبل تلك المأساة بعدة أيام و حتى تستطيع الحصول عليها فستدبر أمرها بتلك الفرنكات المحبأة هنا.

كان المكان كجثة من الذكريات ترقد تحت ركام الغبار . فأخذت في تنظيف البيت من كل ذرة غبار به ، حتى اصبح كل شيئاً به نظيفاً و يلمع ثم فتحت حقيبتها وأخرجت الأوراق التي خزنتها في دفتر كبير .

غادرت البيت بعد أسبوعين على وصولها لفرنسا ، لم تكن تبرحه وقتها سوى للذهاب للسوق لشراء ما تحتاجه ، كانت الشوارع والبيوت تحاول أن تمحي الحراب والدمار وتعيد تشكيل نفسها من جديد .وهي ايضاً كانت تحاول أن تفعل ذلك ، ترتدي ملابسها فائقة الأناقة ، تضع عطرها المثير تجمل أذنيها بقرط من اللؤلؤ ، ومنذ وصولها لباريس لم ترتدي الشعر المستعار تركت رأسها الحليقة كما هي لم تحاول أن تخفي الحقيقة في بشاعتها . حتى في باريس بلد الحريات لم تكن لتسلم من العيون التي تظل معلقة فوق رأسها ، البعض يعتقد أنها موضة جديدة و الأخر يعتقد أنها من هؤلاء غربيي الأطوار ، وبالرغم من أعتقادات الجميع ،لم تشعر بالحرع أمام نظراتهم المعلقة فوق رأسها .

كانت تتابع الأخبار التي تأتي يوماً بعد آخر والتي تُطمئن العالم بالسلام المقبل على عجل والأنتقام لكل ما يمت للنازية بصلة .حتى كان يوم تتصفح فيه جريدة الصباح وصادفها حديث صحفي مرفق بصورة لحام فرنسي شهير وأستاذ القانون السابق الذي كان يقوم بالتدريس لها . كان حديث الرجل يُدين الأتبهكات النازية التي أرتكبت في حق العالم و قرر التبرع بالدفاع عن كل من أصيب جراء تلك الوحشية العنصرية . لذلك وبدون تفكير وجدت نفسها تحمل الأوراق وتذهب اليه . أرتدت للقائه الأول تاير التويد من قطعتين وأحكمت غلق ازار معطفه الذهبية الكبيرة و شدت جوربها من الفوال الأسود على ساقها وحملت حقيبة اوراقها الكلاسيكية من الجلد الأسود . و قبل أن تغلق الباب ،ألقت نظرة أخيرة على مظهرها في المرآة . أبستمت ومسحت على النبت الخفيف الذي كسا رأسها . توقفت أمام أحد البنايات الكبيرة لتتأكد من العنوان ، كانت البوابة مغلقة ويتعين عليها أن تضغط على لوحة للمفاتيح برقم الشقة ، وقتها أصدرت الألة المعلقة بجوار الباب في شقة المحام رنينها . فضغطت على زر وسألها :

من ؟

جاءها صوت أجش ذا بحة متداخلاً مع وشيش الألة:

__ أيفلين سركسيان .

__ بأى شيء أستطيع مساعدتك ؟

وللوهلة أخذتها الحيرة هل كانت تخبره بأنها أحد الفارين من معسكر نازي أم أنها خريجة حقوق السوربون التي تتلمذت تحت يديه ؟ لأى سبب كانت تزوره وبأى صفة ؟ كشاهد عيان وأحد الضحايا أم كمحامية قد خصصت الكثير من الأوراق جمعت فيها الكثير من المعلومات للقصاص من هؤلاء الناس ؟

__ في حوزتي الكثير من المعلومات عن الجرائم التي كانت قد ترتكب من النازية .

دعاها للصعود ، كان كما هو طويل القامة بعينين زرقاوين يكتسي شعره بالكثير من الشيب و وجهه بالكثير من التجاعيد . دعاها لخرجة مكتبه ، بعدما ألقى نظرة سريعة على مظهرها ولم يتوقف كعادة الناس عند رأسها . تحتل مكتبة كبيرة من خشب الأبنوس الغرفة بعدد

وافر من الكتب والمجلدات بينما على مكتبه تناثرت الكتب بشكل فوضوى وفاحت من المكان مزيج من رائحة تبغ غليونه و الاوراق المصفرة

أخبرته أنها خريجة حقوق اسوربون وأنه كان استاذها ، طالت الجلسة لعدة ساعات حكته فيها عن كل شيء منذ خروجها من مصر في المرة الأولى وخروجها منها في المرة الثانية والأحداث المرعبة التي حدثت ما بين المرتين ، كان يسمعا بتركيز واهتمام شديدين وقطع حديثها أكثر من مرة الخادم وهو يقدم القهوة وأكواب الماء ، واخيراً تركت له الأوراق ليطلع عليها وطلب منها معاودة المرور عليه بعد ثلاثة أيام.

في اللقاء التالي تحولت غرفة المائدة لغرفة اجتماعات لأثني عشر فرد من الناجين والفارين سواء من معسكرات الموت أو ممن تعرضوا للعنف النازي اثناء احتلال الضباط والجنود البلاد ، كلٌ منهم حكى قصته مع الرعب الذى شاهده ، كانت هي تدون وتسأل كما يحتم عملها الذى كلفها به ، برفيسور "انطوان بالترك" فقد أصبحت مساعدته في تلك القضية المهمة . ولم تكن تتابع معاناة اليهود فقط بل العالم كله . حتى تلك الدول التي لم تكن واقعة تحت الاحتلال الألماني ولكنها عانت من خرائب النازية . حول المائدة جلسوا كلاً منهم يحكي حكايته .

حكى لها التوءمتان النجيتان من المعسكر كيف كان الطبيب مينجيل غريب الأطوار ، يجمع التوائم ليقوم بتجاربه عليهم ، في حين تحدثت امرأة أخرى بصوت واهن عن أنها تعرضت لاستئصال مبيضها وحقن رحمها بأشعة أكس ، وهذا الشيء ذاته تم حدوثه مع زوجها ، اسئصلت خصيتيه وحقن عضوه الذكري بالأشعة ، كانت التجارب تجري دون تعقيم او تخدير والكثيرون من الذين تجرى عليهم التجارب يموتون بعدها بعدة أيام .

بينما حكى شوشان كوهين عن مسيرة الموت وكيف كانت تمشي في طوابير طويلة من شارع لآخر ، وقرية لأخرى كل يوم مسيرة سير خمس وعشرون كيلو متر وسط هطول الأمطار والثلوج حيث ممنوع التوقف وممنوع الخروج عن الصف ، و سألت احد طباط النازية اثناء مروره إلى اين نحن ذاهبون ؟ فأجابها : لا وجهة لناكل ما نأمله هو موتكم اثناء المسيرة .

أما هيرتا قضت طيلة الأربعة سنوات متنقلة من معسكر لآخر وعند علمها بنجاتها لم تسعد بل كانت تريد أن تموت حيث لم يتبق لها احد من عائلتها أو صديقاتها الكل اتجه بناحية اليسار وكانت تعلم أن ذلك الاتجاه هو الذهاب بلا عودة .

توالت اللقاءات بعد ذلك يوم بعد اخر يزيد عدد الموجدين ، الذين اصبحوا كما لو أنهم بلامح واحدة وقامة متخاذلة تكاد تصلب طولها حتى اوزانهم كانت تتراوح ما بين 28 و32 ، وحكى لها أحد الشهود من مواطنين فرنسا مصاب بعاهة مستديمة بعد انفجار قنبلة على منزله وفقد لعائلته جميعها ، أن نقص الغذاء و الجوع أنتشر بفرنسا كلها وعلى أثره لقي الكثير من الفرنسيين حتفهم جوعاً وبردأ .

أصبحت لا تغادر مكتب مسيه "انطوان" تؤدى جميع الأدوار ، من مخبرة لمحققه وشاهدة واخيرا دورها الأهم كحامية . تبرعت بمنزلها لجمعية مساعدة منكوبي الحرب. التي بدورها حولته للملجأ للذين بلا مأوى.و قامت هي بأستجثار شقة صغيرة لها بالقرب من ساحة الشانزلزيه كما اضمّت لعضوية أكثر من جمعية حقوقية تنادي بانتهاكات النازية في العالم كله وليس لليهود فقط ، أصبحت صورتها تعرض في الجرائد يومياً وهي تعتلي المنصات في انعقاد المؤتمرات الدولية والشعبية وفي كل الأحوال لم تحاول يوماً أن تخفى صلعة رأسها . كثير من الأطباء

تبرع بعلاجها على نفقته الخاصة ولكنها رفضت ، تخطو في الأماكن مشهورة رأسها ومشهورة معها الجرم الذي ارتكب في حقها ، وخاصة أنهم عند تفتيش معسكرات اليهود وجدوا الكثير من الأجوالة ممتلئة بالشعر الأدي. كانت تبعث لألمانيا لتدخل في الكثير من الصناعات كإلياف صناعية وأحبال الغسيل ... فتزى أى حبل جُذلت به خصلاتها!!!!؟

لم يكن الأمر بالسهولة التي تعتقدها فكان الأمر يتطلب الكثير من جمع الحقائق واقوال الشهود والأدلة والمستندات واخيراً تشكلت محكمة نومبرج الدولية لمحاكمة النازيين كما تشكلت المحكمة الدولية العليا لمحاكمة أهم النازيين الذين ارتكبوا جرائمهم في بولندا ، بالإضافة للانتهاك الأخلاقي والذهني وتدنيس موتى الحرب خلال الحرب العالمية الثانية .

أفردت اوراقها قضية الحارس التي قتلت تسعين امرأة يهودية، كما أفردت اوراقاً أخرى لأدانة الانتهاكات التي كانت تجرى في البلوك رقم 10 هذا البلوك الذي كان يرأسه الطبيب "مينجيل" المهووس عقلياً ، والذي كان يؤمن بأهمية الجنس الأري فلم يتوان عن فعل أبشع ارتكابه في ذلك البلوك المعتم الملقق به مشرحة لقطع أعضاء من لتي مصرعه بغرف الغاز قبل ذهابها للمحرقة ، وكانت تلك الأعضاء التي تجري عليها التجارب توضع في محاليل خاصة بقوارير زجاجية يلصق عليها ختم " مادة حربية " فترسل بالبريد على الفور لألمانيا . أخبرتها إحدى الأمهات بأنه قام بتخييط توائم كلٍّ منها في الآخر كالتوائم السيامية بما في ذلك العروق والشرايين مما أدى لموتها بالغرغرينة، وكل ذلك كان تحت اشراف " ردولف هوس" قومندان المعسكر بوحشيته وقساوة قلبه والذي كان اسمه وحده مصار للربع في معسكرات الموت لإدراته إياها باقتدار في الوقت الذي كان يعطف بشكل مبالغ فيه على حيواناته الأليفة!

وفي أحد الأيام دعت أحد جمعيات حقوق الإنسان رجلاً عربياً كان له دور كبير في نجاة حياة الكثير من اليهود وهو " قدور بن غبريت " كان في السابق حارس للقنصلية الجزائرية وعمل في خدمة القنصل واسرته وانتقل معهم عند عودتهم لفرنسا ، تعلم الفرنسية وقدمه القنصل للمجتمع الفرنسي كعلم من اعلام المسلمين ، فأنتهز تلك الفرصة واشترى قطعة ارض صغيرة واخذ يتجول في العالم الإسلامي لجمع التبرعات لبناء مسجد عليها ، وقد بنى بالفعل اول مسجد كبير يضم الحالية المسلمة في باريس كما ساعد الكثير من اليهود بأستخراج اوراق رسمية لهم لتثبت أنهم مسلمون و وايواء البعض الآخر منهم في المسجد ، ولولا ما فعله هذا الرجل فقد كان مات الكثيرون من الأطفال والعجائز والمرضى ، صعد الرجل للمنصة بزيت العربي الذي يعود الي اصوله الجزائرية ، نُظهر ملامحُ البشاشة والتقوى كأى رجل دين ، بدأ الشيخ حديثه بأيات قرآنية ثم أخذ يحكي في حديث طويل عن مساعدته ليهود فرنسا حتي يتثنى لهم الهرب من الموت المحقق على يد النازيين مستعيناً في ذلك بعدة احاديث وأيات قرآنية اسلامية تقر بأن العقيدة الإسلامية السمحة لم تسمح بمثل تلك الأرتكابات ، وأن مساعدته لليهود كانت واجباً يحتمه عليه إنسانيته ودينه ، نالت كلمة الشيخ الكثير من الأستحسان من جميع الحضور ، الذين اخذوا في التصفيق له بقوة وخاصة أثناء تسلمه الميدالية وشهادة التقدير اللتين سلمتها له بصفتها إيفا بصفتها رئيسة الجمعية.

أعتادت ألا تبرح منزلها الصغير الذي يطل من نافذة جانبية على نهر السين، إلا وحيثها السوداء الجلدية الممتلئة بالأوراق والحجج والبراهين وعدد لا بأس به من الحثث التي أوكلت للدفاع عنهم وكأنها وحدها تتحمل مصيرهم .

وسط كل هذا ، كانت تبحث عن تلك السيدة وتتابع أخبار المائة حارسة المانية اللاتي كن يدرن المعسكر ، وعند إعلان هزيمة ألمانيا هرب أكثرهن . بعد فترة من الوقت بعث لها قاضي "محكمة نومبرج" الدولية عدد من أساء الحارسات اللواتي تم القاء القبض عليهن مؤخراً و طلب منها أن تأتي لتتعرف على تلك الحارسة بنفسها ، وقتها لم تسعها الفرحة وذهبت لمنزل البروفيسور "انطوان" لتبلغه بالأمر فأخبرها أن عليها السفر فوراً لهنالك .

ديدو المسكينة منذ سفر إيفا وأصبحت أكثر حزناً و وحدة، حتى افراد عائلتها الذين كان يمرون عليها احياناً بعد صلاة السبت، أخذوا في السفر من مصر لأرض الميعاد أورشليم الواحد بعد الآخر ، وخاصة بعد أن وافقت الأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخري فلسطينية فنذ ذلك الحين وقد جمع أكثر يهود مصر والعرب واوربا أنفسهم وهرعوا لهنالك ، قرروا أن يجتمعوا في مكان واحد وما فعله فعله هتلر بهم زادهم اصراراً وتصميماً في البحث عن عن مأوى لهم ، واصبح الآن بإمكانهم الحصول على جواز سفر إسرائيلي .كانوا يأتون لوداعها و بعيونهم الكثير من الدموع و تظل تراقبهم من خلف النافذة الخشبية وهم يقطعون الطريق بخطوات مسرعة. كثيراً ما طلبوا منها الذهاب معهم، ولكنها كانت ترفض بشدة ، مؤكدة أنها منذ ولدت لم تعرف لها وطناً غير مصر. حتى وهي تجلس في أحد ايام مايو لعام 1948 تدير مؤشر الراديو الكبير على اذاعة القاهرة الكبرى التي أعلنت انتهاء حرب 1948 وأعلان قيام دولة اسرائيل لم تفرح أو تشعر بأن عليها حزم أمتعتها للسفر بل أستهجت قيام دولة على أقاض دولة أخرى وأعتبرت أن ذلك جريمة لا تغتفر لم يكن هذا هو رأيها وحدها بل رأى هؤلاء النسوة العجائز اللاتي كانت تلتقي بهن عند صلاة السبت في معبد بوابات السماء .

كانت إيفا تراسالها بين الحين والآخر برسائل مطولة ومفصلة عن كل ما تقوم به منذ ذهابها لفرنسا، وفي ذيل الرسالة الأخيرة لها سألتها هل ستغادين إلى اسرائيل ؟

إيفا التي كانت تعرفها أكثر مما تعرف نفسه، كانت تعلم أن ديدو لن تغادر مكانها ابداً ، حتى بعد أن تبدل سلوك المصريين مع اليهود منذ تلك الحرب و أتهمهم بأغتصاب فلسطين وطرد أهلها منها .كانت عيون المصريين بها تساؤل واحد:

__ها وقد اغتصبتم ارضاً وأصبح هناك لكم وطن لماذا تشاركونا وطننا ؟

وفي ظهيرة يوم من بداية عام 1952 ، أعلنت الأخبار أن القاهرة تحترق بيد الجماهير الغفيرة التي أضرمت النار بشوارع وسط المدينة بالبنوك ، والمقاهى ، ودور السينما ، والمتاجر الكبيرة الضخمة ، وشركات الطيران ، والملاهي الليلية ، تلك الأماكن التي مجرد المرور امامها يعد بمثابة ترف للمواطن العادى، و جعلته يشعر بالغرابة داخل موطنه ، فهي اماكن مخصصة لعليا القوم والاجانب ام المواطن العادى فغير مرحب به فيها ، حتى حلوانى جروبي الشهير لم يسلم من تلك النيران أو ربما كان هو بعينه أكثر الأماكن إثارة لحنقهم فلم يرتده يوماً سوى صفوة القوم والجاليات الأوربية المنتشرة داخل البلاد والجنود الأنجليز، لذلك اشعلوا النار في جروبي بعد أن سمحوا للعاملين فيه بالخروج ، مسكت النيران في كل شيء فيه و وصلت للمخزن واحترق السكر وانتشر في الجو دخان اسود ككيف برائحة السكر المحروق فحمل الجو معه رائحة السكر المحروق .كان كل هذا كافي حتى تعلن الصحف كلها أن القاهرة تحترق .كان ملك مصر فاروق يجلس وقتها على مائدة عامرة هو وضيوفه المدعوون لحضور حفل عيد ميلاد ابنه ولم يكن يعلم ما الذى يجري ؟ وما سبب تلك الدوامات من سحب الدخان الأسود الكثيفة التي يمتلأ بها الجو ؟ احترقت في هذا اليوم أكثر من أربعائة بناية متفرقة واطلق عليه السبت الأسود.

وايضاً لقي فيه أكثر من اثني عشر شخص أنجليزياً مصرعهم حرقاً في نادى تارف وهو نادى بريطاني خاص بالصفوة من الأنجليز ، كما احترقت شابة يهودية كانت قادمة من الأسكندرية وتقطن بفندق شبرد ، كانت تلك الحرائق بمثابة إنذار للجاليات الأجنبية وخاصة الإنجليزية والميودية تخبرهم أن وجودهم في البلد غير مرغوب فيه ، اختبأ اليهود في مساكنهم ولسان حالهم يردد هل اصبحوا حقاً من الغرباء في تلك

البلاد التي سكنوها منذ الأزل ؟ ولماذا أصبحت نظرات الجميع لهم وكأنها تستعجلهم الرحيل ؟ احترقت أكثر متاجرهم شعبية وشهرة في هذا الوقت كمتجر شكوريل كما احترقت البنوك والمصارف التي يملكها يهود ، بالرغم أن عدد كبير من اليهود المصريين لم يكن يميلون للدولة الصهيونية ولا للرحيل الي اسرائيل بل أقيمت الجمعيات اليهودية المعادية للصهيونية ولكن أخذ الطيب بالجاحد ولم يعد يفرق ما بين الوطني حقا ومدعي الوطنية . بعد عدة أيام أعلن الملك تطبيق الأحكام العرفية ليستطيع السيطرة على البلاد، أشارت أصابع الاتهام إلي مرتكبي الحريق وهو تحالف ما بين جماعة الأخوان المسلمين وبعض طباط الجيش . وبعد ستة اشهر على تلك الحادثة أقامت مجموعة من الطباط أنقلابًا عسكريًا على فاروق ووضعت سيطرتها على امور البلاد ليترك بعدها فاروق مصر ويتخلى عن قصوره وسياراته وسهراته واصدقائه تخلى عن كل ذلك ولم يبكه أثناء خروجه سوى الرعايا الأجانب والأقلية اليهودية التي كانت تختمى به.

و في صباح أحد الأيام أصطفت العربات الملكية ماركة رولزرويس الحمراء في صفًا طويلًا تسير ببطء وكأنها في موكب جنازي بشوراع القاهرة، تنقل الملك و افراد الأسرة المالكة ومقتنايتهم، خرج يومها الكثير من جموع الشعب البعض في وداعه والبعض للتفشي منه . لوحث له بحزن الجالية اليهودية التي كانت تعتبر الملك فاروق أحد أنصارها وأروقة القصر الملكي لم تكن تخلى من اليهود الذين يعملون في مختلف الوظائف .

وصلت بها الطائرة صباحاً إلى مطار برلين الدولي، قام باستقبالها في المطار وفد رسمي من هيئة الدفاع عن ضحايا الحرب ، واتخذت طريقها فوراً للمحكمة ، كانت تنظر من نافذة السيارة لتطالع مدينة خرج من رحمة الرجل الذي أحبته .. شعرت أن تلك المدينة كانت حقاً تشبیه لقد سريت اليه كبرياءها الشاحخة وعنفوانها . تمت لو كانت أول زيارة لها في تلك المدينة ، لتلتقي به في مسقط رأسه يذهب ويأتي بها في أرجاء مدينته ، مرتدياً بساطته تماماً كما نكون في أوطاننا ، يحدتها عن تاريخ وماضي بلده ، يصحبها في رحلة على متن يخت في نهر الراين يدعوها لتناول وجبة المانية شهية ، يحاول يردد على مسامعها بعض الكلمات الألمانية لتحفظها، ولكنه لم يعد هنا ، لقد حاول أن يتخلص من هتلر حتى تظل تلك البلاد رافعة رأسها دوماً ، ولكن كانت خطط القدر مختلفة، رجل ذهب اليه ليرديه قتيلاً فارتدت هو قتيلاً، ولكن يبقى فرق كبير بين قتييل عظمه التاريخ وآخر وصمه التاريخ ، أخيراً فتح لها السائق باب العربة السوداء وبخطوات تملؤها الثقة وبحقيبتها اوراقها السوداء كانت تشق طريقها وسط زحام الكثيرين من ضحايا الحرب من الألمان ممن هم ضد النازية ويدينون ارتكابات المانيا في الحرب ، والكثير من رجال الصحافة و الكثير من ومضات فلاش كاميرات المصورين الفضولية .

ساءت حالة البروفيسور انطوان الصحية ومنعه ذلك من السفر معها لألمانيا ولكن ثقته بها كانت كافية . دخل القاضي وأعلن بدء الجلسة . جلس الجميع وساد الهدوء وأمر بدخول الحارسات ، كن حوالي خمس عشر حارسة بملابس السجن البيضاء ، يدخلن الواحدة تلو الأخرى منكسات الرأس ويعيون منخفضة ترفض المواجهة .

فردت اوراقها امامها وبدأت مرافعتها قائلة "احترار الكثيرون في فهم النفسية النازية التي سمحت لنفسها بممارسة أبشع الجرائم في تاريخ الجنس البشرى وهل هم شواذ أم مرضى أم مجانين ، و بخاصة تلك الكتيبة التي تحمل رقم 101 والتي توالى الإجهاز على اليهود بشكل يومي . كان رجال وحدة البوليس الخاصة يستعينون برجال ونساء من سجناء ألمانيا يطلق عليهم اسم الكابو ، وهؤلاء الناس توكل اليهم مهام تهذيب السجناء بضربهم ، وحتى إن أدى الأمر بهم إلى قتلهم ، فلن يسألوا وقتها عن ظروف وفاة أى سجين . لذلك وقفت ذات يوم حارسة ألمانية كانت تشرف على عمل تسعين سيدة من عجائز يهود فرنسا . كن قد أمرن بأداء عمل شاق في إحد المزارع ولسوء الطقس وقتها وشدة الإرهاق توقف البعض منهن عن العمل والبعض الآخر تحاذل من فرط التعب ، فما كان من تلك السيدة سوى أنها هوت علي رءوسهن بفأس من حديد الواحدة تلو الأخرى ، وكنت أنا من بين هؤلاء النسوة .

علت همهمات الجماهير في القاعة ، فدق الرئيس بالمطرقة على المنصة ، ويسود الهدوء مرة أخرى ، وتستكمل هي مرافعتها :

- أفقدتني الضربة الوعي . فظنوا أني من جملة من تم قتلهم ثم تخلصوا منا بوضع الجثث في شاحنة كبيرة كانت تحمل روث الماشية، وعند إقرب حفرة للقمامة تم إلقاؤنا فيها . بعد أن عدت لوعي مرة أخرى، أفقت لأجد نفسي وسط القمامة محاطة بالجثث وروث البهائم . كانت رأسي ينفز بشدة وقتها . وبالكد استطعت الهرب، وعلى مشارف أحد القرى وجدت نفسي وقد انهارت قواي و فقدت الوعي لأفريق تلك المرة واجد نفسي على فراش نظيفة وبملابس نظيفة ، في أحد بيوت الفلاحين الذي ساعدني دون حتي أن يسألني ما الذي أصابني ولكن كان الوشم (نجمة دواد) وحده كافي ليعلم أني فارة من معسكر أوشويتز الذي لا يبعد الكثير عنه ...

كم كان يلزمها من الوقت ومن الكلام لترد على السؤال تلو الآخر؟ وم كان يلزمها من شجاعة لتخفي باللغة دموعها؟ اخيراً أنهت مرافعتها مؤكدة، أنها اليوم لم تأت إلي هنا لتدافع عن حقها، ولكن عن حق هؤلاء النسوة العجائز اللاتي أخذن في الصراخ والتوسل لتلك المجرمة وعلى قسوتها لم تستوقفها دموعهن ولا عجزهن، لم يكن هناك شهود على تلك الواقعة كما اختفي السجل الخاص بأسماء هؤلاء السيدات ولم يكن من أدلة سوى ذلك الندب في مؤخرة رأسها وتقرير الطبيب بأنه يرجع لضربة قوية بمقبض من حديد.

سألها القاضي:

هل تتذكرين ملامح تلك المرأة؟

أجابته:

طيلة تلك الأيام، لم أغف إلا وصاحبتني كوابيس تلك الحادثة وهذه المرأة لم تمح ملامحها ابداً من مخيلتي.

أمرها أن تدخل وتلقي نظرة على هؤلاء النسوة في القفص الحديدي. أفتربت بخطوات ثابتة وصوت كهها العالى يطرق خشب الأرضية. توقفت تماماً أمام القفص كانت البعض مهن تخفضن نظرهن لأسفل، بينما أخريات تنظرن بعيون فارغة من كل شيء إلا القسوة. مرت على وجوه خمسة من الحارسات وعند السادسة توقفت، ثم خطت خطوتين للامام على وقع دقات قلب السجينة، ثم تراجعت خطوتين للخلف وتراجعت معها الذاكرة لتنتقلها للحادث، وجه تلك السيدة وصراخ النساء والدماء وصوت طرقات الفأس الحديدي فوق الرؤوس ووقفت أمامها مباشرة وأشارت إليها بصوت مرتعش قائلة:

— أنها هي.

نظرت لها المرأة بعيون جامدة، فارغة من أي تعبير. كانت هي تماماً كما طبعت ملامحها في ذكراتها. بشعر أشقر مائل للأحمر وبشرة بيضاء يكوسها النمش وفم كبير يفتح على أسنان بفراغات واسعة.

أمر القاضي بحضورها، ووقفت على منصة صغيرة على الجانب الآخر، سألها:

— ما اسمك؟

ردت بدون تردد:.

— ماري أندرسون.

فتح القاضي أوراقه ليتحقق من الاسم وعندما تأكد منه، سألها:

— ما قولك في التهم المنسوبة إليك؟

وللمفاجأة أجابت بدون تفكير أو تردد بإيماءة خفيفة من رأسها بما يعنى الإيجاب، ولكنه طلب منها التحدث بنعم أو لا.

فأجابت بصوت قوى لا يدل على ندم او خجل :

__ نعم لقد فعلت تلك التهم المنسوبة إليّ، لقد قتلت هؤلاء النسوة في ذلك اليوم ، لتأديهن على تخاذلهن في العمل .

علت الهمهمات من الموجودين بينما كانت نظرة إيفا ممتلئة بالفرح وبالانتصار .ثم قال القاضي :

__ إذن أنتِ تُعلنين مسؤوليتكِ عن قتل هؤلاء النسوة وتقدمين اعترافاً علنياً أمام محكمة نورمنبرج ، أم تريدين توكيل محامٍ للدفاع عنكِ ؟

__ لا سيدي القاضي، لا اريد محامياً للدفاع عني ، فأنا مذنبه، وقد قتلت هؤلاء السيدات بكامل قواي العقلية بنية أن أقضي عليهن .

__ أتعلمين عقوبة فعلتكِ تلك ؟

لم تجيب وناب هو بالأجابة عن سؤاله :

__ الأعدام صعباً بالكهرباء .

لم تتحدث وقتها ولم يصدر منها أى أفعال بأى شيء لم يتعال صراخها ، لم تبكي، أو تنتحب ، تماماً بذات الهدوء والثقة اللذين قتلت بهما هؤلاء النسوة أستقبلت خبر إعدامها .

غاردت إيفا القاعة وذهبت مباشرة لغرفة فندقها ، دون أن تتوقف لتجيب على أسئلة حشود الإعلاميين و الصحفيين ،الذين حضروا لتغطية أخبار المحاكمة ، فلم تكن تبتغي الشهرة أو الأموال ،فقد القصاص العادل لهؤلاء السيدات. تصدر الخبر صحف اليوم التالي وأبتسم "بروفيسور انطوان" وهو يقرؤه وتأكد أن ثقته التي وضعها في تلك المرأة كانت في محلها . بينما رسمت إيفا ابتسامة حزينة على شفيتها النحيفتين وهي تشاهد نفسها في الصحف تقف امام المنصة امرأة تمتلئ بالأنوثة في تاير يرسم خطوط الجسد وحذاء من الأسود اللامع عالي الكعب وقرط من اللؤلؤ و لكن برأس حليقة.

غادرت تلك المدينة بعدما زارت مقبرة فون ودمعت عينها وهي تقرأ شاهد القبر الرخامي الذى نقش عليه(هنا يرقد جثمان الكولونيل فون ستنافنبرج) نثرت باقة الزهور فوق المقبرة وذهبت .

لم تهمد يوماً أو تستكين ، فتوالى الدعاوى الواحدة بعد الأخرى، وخاصة عند إقامة المحاكمات الدولية التى عُقدت في جميع أنحاء اوربا، كثيرا ما كانت تُشاهد وهى ذاهبة لهنالك بحقيبتها السوداء ورأسها الحليق . أغلقت كل نوافذ حياتها ولم تجعل شعاعاً من ضوء ينفذ إليها. بعدما توفي بروفيسور أنطوان، تاركاً لها المكتب لتديره، بالإضافة لمنصبها الجديد أستاذة القانون في جامعة سوربون .

كانت تخطو من نجاح لآخر وعندما يمسهما الحنين للحياة الأسرية الدافئة كانت تتطلع في صورة تجمعها مع أهلها لقطت في عيد الغفران، عندما تجمعوا جميعهم يتوسطهم أبوها ببذلته من الصوف الأنجليزي و فوق رأسه طربوشه الأحمر رمز الأرسقراطية المصرية في ذلك الوقت، وأمها بفستانها من القطيفة الزرقاء بملاحمها السمراء الفاتنة ، بينما عقد أخوها على رقبته البوييون الأزرق وحرص على أن يفرق شعره من المنتصف ،في حين جمعت هي شعرها في شرائط من الساتان الأبيض . الابتسامه على شفاه الجميع عدا مريبتها الإيطالية التى كانت نادراً ما تبتسم . لم تكن تلك الابتسامه مصطنعة كالتى نرسمها على وجوهنا كلما وقفنا امام الكاميرا ولكنها كانت ابتسامه حقيقة نابعة من القلب .

الصورة كانت مثلاً لعائلة يهودية ثرية تعيش في مصر في أوائل الأربعينات من القرن ألتقطها لهم قبل مغادرتهم لباريس بشهور قليلة الحاجة "يني" في استديو تصويره الشهير بجي السكاكيني، تتذكر جيداً كيف أخذ وقتاً طويلاً في ترتيبهم حتي تظهر الصورة بشكل أنيق واختفي بعدها تحت الستارة السوداء ، وعلا صوته وهو يصيح " 1-2-3- " ثم جاء صوت الفلاش ووميضه القوي ليداعب أعينهم . وبالرغم من أن كل من بالصورة يبدو مبتسماً فإن هناك شيئاً ما تبثه الصورة، كحدث ما او مأساة قادمة في المستقبل تشي بقدر حزين مقبل على عجل . بين الحين والآخر كانت تسحب الصورة من فوق سطح المدفأة الخشبية وتتأملها وهي مستلقية على الأريكة وتنعس وهي تطوقها . فنادراً ما كانت تقضي ليلتها على فراش حجرة النوم ، كان فراش بارد وحزين للحد أنها لم تستطع أن تبين فيه يوماً.

توالت القرارات بعد ثورة 1952 التي تعادي الملكية بكل ما تحمله معها من عادات وتقاليد , بدءاً من ألقاب البك والباشا ونهاية بالطربوش رمز التركيّة ، وأقتصر مع الوقت ارتداؤه على عمال بوابات وسفريّة الفنادق الكبرى . وأصبح اليهود ضحايا لتلك الكراهية الصهيونية على المستوي العام من مختلف طوائف الشعب ، وأدى ذلك لاتجاهات وطنية معادية للاستعمار ، رأت أنه في اليهود تكمن منفعة عامة في تداخل رأس المال الأوربي في البلاد ، وأنهم الأنصار الكامنون لدولة صهيونية يساندها الغرب الكافر على أرض الوطن العربية . و خاصة بعد أن توالت الخطط الجاسوسية الإسرائيلية الواحدة بعد الأخرى ومنها تفجير عدد كبير من السفارات الأجنبية مما جعل وجود اليهود في مصر به الكثير من الشك والريبة وعدم الترحاب . ثم جاءت الضربة القاضية والحاسمة مع العدوان الثلاثي على مصر بمشاركة كلاً من بريطانيا وفرنسا واسرائيل . وفي ليلة 31 أكتوبر من أول نوفمبر تم اعتقال عدد كبير من اليهود ووضعهم تحت الحراسة وعهد إلى جهة خاصة بالمراقبة الرسمية على أملاك الطوائف اليهودية بالبلاد ، ثم جاء طرد حاملي الجنسيات الفرنسية والبريطانية والأعداد الكبيرة من اليهود الذين توافدوا على البلاد أثناء الحرب العالمية الثانية . و حمل الكثيرون منهم متاعهم لمغادرة البلاد ، الأكثر فقراً ذهبوا لإسرائيل وتفرق ميسورو الحال في دول اوربا واصبحوا موزعين بين شتي أنحاء العالم . حرص يهود مصر على تسمية أنفسهم "يهود من مصر" وليس "يهود كانوا يعيشون في مصر" . لذلك اصبح بعدها من المعتاد أن تسمع هذا الرجل في إنجلترا يتحدث عن سوق الصاغة بالإسكندرية حيث كان يملك متجرًا هناك ، بينما على طاولات مقاهي نيويورك بإمكانك أن تسمع صياح رجلاً ما يقول بأنه كسب أكثر من 500 قرش بدلاً من دولار ، وفي لوزان بسويسرا يجلس أحد البكوات يتصفح جريدة الشمس المصرية الخاصة بيهود مصر متذكراً الماضي ، في فرنسا أعلنت مجموعة من السيدات تأسيس رابطة خريجي مدرسة ليسيه مصر ، وكانت إيفا من بين عضواتها ، أم في إيطاليا كان يحيكي برتو تاجر الميني فاتورة عن اولاده الثلاثة وكيف كان أحدهم وفدياً والأخر صهيونياً والثالث عضواً في العصبة اليهودية ضد الصهيونية . ذهب اليهود لينتشروا في كل مكان يحمل المؤمنون منهم مخطوط " اسفار موسى الخمسة " الواردة في أغلبها من مصر ويتلونها وهم يقومون بالغناء والرقص والتصفيق على كفوف أيديهم لتختلط الأغاني والضحكات بالصلوات وعند نهاية الاحتفال يتولى البعض غناء النشيد الديني مصاحباً للنشيد الوطني المصري.

كانت إيفا حزينة لما حدث ليهود مصر ، تتساءل ما مصير حارة اليهود اليوم ؟ و هل أصبحت خاوية على عروشها هل هجرها التزوي عزرا والإسكافي يعقوبيان وأعلق مخبز عيد الفصح أبوابه ولم تعد تلك الصواني الفضية التي تحمل محبوزات " ودان هام ، و سنان هام والبوريك والفطير "يحملها الخدم فوق رؤوسهم و من شارع لآخر وحي لآخر يطفون بها لتوزيعها في يوم الهدايا ؟ هل أغلقت المعابد ولم تعد تعج بأصوات المصلين في ايام السبت والأعياد ؟ هل لم يعد يرى أى يهودي يتسكع في الأسواق عشية عيد الغفران لشراء الخضار والفاكهة ويساعده في ذلك التاجر المسلم الذي يعلم تمامًا ما يتناوله اليهود في عشية يوم رأس السنة الخاص بهم فيقدم له اللوبيا والرومان والسلق والبلح الطازج .

بمرور الوقت حصلت إيفا على الكثير من الأوسمة وشهادات تقدير لتفانيها في خدمة المضررين من الحرب. كم من أسرة قد فقدت عائلها وموارد رزقها ؟ وكم من أسرة قد انهدم العقار الذى يؤويها ؟ ترأست عددًا من الجمعيات الخيرية لمساعدة منكوبي الحرب و وفرت لهؤلاء الملجأ والمال .كانت تواسي نفسها بمساعدتهم وكأنها تعوض بعطائها لهم ما تفتقده من الأمان و السعادة ولكن تلك الجراح المستقرة في الأعماق كانت من الصعب أن تندمل يوماً ، حتي جاء ذلك اليوم الذى بدل كثيراً من قناعاتها الخاصة .كانت يومها في طريق عودتها من مكتبها للمنزل فكرت أن تجلس على مقهى صغير بتقاطع شارع سان ميشيل وديز إيكول ، تتناول مشروبها المفضل من القهوة بالحليب . حضرت إليها شابة صغيرة من السهل التكهّن بأنها عربية من النظرة الأولى التى تنظر فيها بوجهها .كانت سمراء ، تطلق شعرها الأسود بخصلاته الممتوجة ليتطاير مع نسبات الهواء بخطوات واثقة أقتربت منها قائلة :

__ هل انتِ مدموزايل إيفلين سركسيان ؟

أبتسمت ا قائلة :

__ نعم أنا .

وبنبرة بها الكثير من التحدى :

__ أهنتيكِ على النجاح الذى حققته في قضيتكِ للانتهاكات النازية ضد اليهود .

__ أشكرك .

__ ولكن ماذا عن الانتهاكات التى ترتكبها إسرائيل ضد الفلسطينيين ، ألم تسمعي بها ؟

كانت إيفا تبحث عن كلمات لتجييبها بها ولكنها سبقتها قائلة :

__ أليست أنتِ نصيرة المظلومين ومن تنادي ضد الظلم والطغيان ؟ لماذا إذن لم تنددي بتلك الارتكابات الوحشية التى تقوم بها إسرائيل ضد عرب فلسطين ، أو ليست تلك بمثابة هولوكست جديد!؟ أذهبي إلي هناك وأنصتي إلى هؤلاء المساكين الذين تركوا ديارهم ظلماً تحت تهديد البنادق والمدافع من قري يافا والناصره والمجيدل والكويكات، تلك المدن التى نزع عنها اهلها قسراً . كم سيدة كانت حاملاً وأنجبت فى العراء ؟ كم شخصاً منهم مات فى الطريق ودُفن حتى دون أن يتمكنوا من الصلاة عليه ؟ و أكتفى أهله بالقاءه فى أحد الحفر كما هو بجذائه وثيابه وحتى بالغطاء الذى على رأسه وردموا فوقه التراب وابتعدوا مسرعين خوفاً من اليهود القادمين باتجاههم ، وبالرغم من ذلك كانوا فرحين به فيكفيه أنه عاش ومات ودفن فى فلسطين ، أمّا هم فلم يعلموا بعد فى أى أرض سيموتون ! أناس كرام لهم بيوت وأملاك وأعمال تركوا كل ذلك وراءهم وهاموا فى الأرض على وجوههم ينتظروا الغذاء والكساء وخيام الايواء كالشحاذين .

ثم وضعت يدها فى حقيبتها وأخرجت جريدة كان فى صفحتها الأولى خبر يقول: الأسرائليون يدخلون قرية حيفا بعد أن تركها أهلها وهربوا خوفاً من بطشهم، والأغرب أنهم وجدوا الشاى والقهوة ساخنة و لا تزال مصبوبة فى الأكواب وصورة كبيرة بمصاحبة الخبر لهذا المشهد .

__ لقد تركوا كل شيء وراءهم وذهبوا عدا مفاتيح الدار التي حرصت كل أم على تعليقها في حبل حول رقبتها على أمل الرجوع مجدداً . قرى بأملها قد هدمت تماماً ، ولم يفهم ذلك حتى أساء القرى والبلاد بدولها ، ساحة الحناطير بحيفا أسموها باريس ، ومرج ابن عامر بدلوه لسهل يزرعيل وعين جالوت لعين حارود!

ثم وهي لازالت في قمة انفعالها أخرجت ملقاً من الأوراق قدمته لها قائلة :

__ ليس اليهود وحدهم هم من ذهبوا للمحارق ، أنظري في تلك الأوراق لتعرفين ، أنها توثق ما ارتكبه الإسرائيليون في قرية الطيرة وهي تقع على بعد سبعة من الكيلومترات جنوب حيفا، لقد دخلها الإسرائيليون، وقتلوا من أهلها من قتلوا وأعتقلوا من أعتقلوا ، ولم يتبق بها سوى العجائز والمرضى والأطفال الذين اصطحبوهم في أتوبيسات خاصة تحت حراسة يهودية حتي وصلوا لمنطقة شرق اللجون، وهناك أخذوا الأتوبيسات منهم ، وأمروهم أن يلتفوا في شكل دائرة في حقل قمح محصود ، وتركوهم هكذا حتى أشتد العطش بهم فطلبوا المياه فأمرهم بالانتظار، وبعد قليل عادوا بجالونات من البنزين، في البداية هلل الأهالي، ظنًا منهم أن ما في الجالونات ماء ، ولكنه كان البنزين الذي صبوه على الأبرياء الجالسين على صررهم فوق الحصاد الجاف ، وبقسوة ما بعدها قسوة أشعلوا فيهم النيران ، أخذت النيران تأكلهم والمساكين على ضعفهم وعجزهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً ، تلك القصة رواها احد الضحايا الذي استطاع أن ينجو و يهرب من الحريق والأن ما رأيك ، أوليس النازيون أرحم منكم ؟ على الأقل كانوا لا يتخلصوا منكم بالحرق وأنتم لا تزالون أحياء ولكن بعد أن يقتلوكم أولاً بغرف الغاز.

لم تتوقف لحظة لأنقاط أنفاسها وبنفس الحماسة التي بدأت بها الحديث واصلت قائلة :

__ أولست أنت من تقول أنها تدافع عن الإنسانية بأجمعها وليس عن اليهود فقط ، إذن عليك الذهاب إلي فلسطين أو الأردن أو بيروت حيث مخيمات اللاجئين الفلسطينيين وهناك تتكوم الأجساد بعضها فوق البعض بينما تهطل الأمطار من بين شقوق صفيح الخيم فوق رءوسهم .

نظقت ايضاً اخيراً لتوضح رؤية الكثير يجهلها :

__ ارجوك لا تخلطي ما بين اليهودية كديانة والصهيونية كحركة سياسية ، أنا يهودية من مصر ولا أعرف ماذا تعني إسرائيل ولا الصهيونية وإلى ماذا يطمح هؤلاء الناس ؟ وإن كان كما يزعمون إن في التوراة فلسطين هي ارض الميعاد فهذا ليس معناه يغتصبون دولة أخرى .مؤكد أنا غير راضية عن تلك الأفعال و في العالم كله جماعات يهودية تعادي الصهيونية وضد تلك الارتكابات الوحشية .

__ ولكن دورك كمسئولة عن حقوق الإنسانية ضد الظلم والعدوان يُحتم عليك أن تساعد هؤلاء الناس هذا أن كنتِ حيادية حقاً كما تزعمين .

واخيراً وهي تسعد للذهاب وبنبرة اخفت وقعا :

__ ولا تنسي أن من ذهب لتعمير دولة إسرائيل الجديدة هم يهود العالم والنسبة الأكبر منهم من تعرضوا لمخاطر وتهديد النازية إذن فكأنهم يعاقبون الآخرين، بما عاقبوا هم به بل وأشد قسوة ، أى حقارة تلك !

ثم تركتها وذهبت بخطى واسعة و لكن صوتها ظل يرن في أذنها وهي تؤكد قائلة :

_ أي حقارة تلك ؟!!!..

لم تنتظر حتى النادل ليحضر يأخذ حساب ما تناولته , وضعت اسفل طبق الفنجان ثمن القهوة بالحليب وقامت مسرعة بعدما أخذت الملف الذى تركته الفتاة لها ، لم يكن هنالك وجهه لخطاها .. فقط كانت تسير على وقع كلمات تلك الفتاة التي وكأنها شريط تسجيل يعاد تلقائياً من نفسه على مسامعها !

كان الجو ربيعياً بنسات باردة ، خرجت من شارع سان ميشيل، متجهة لشارع اميل زولا ثم وصلت لشارع سان ديچول الواسع العريض مرت امام قوس النصر ثم عرجت بعد ذلك لساحة الشانزليزه .كثيراً ما كانت تحب السير فيه، تتأمل في مبانيه القديمة ومقاهيه واشجاره العجوز التي تظلل طرقاته ، أخذت تسير وتسير بمحاذاتها الأسئلة:

_ لماذا يفعل اليهود ذلك في الفلسطينيين الغزل الأبرياء وهم أنفسهم من شربوا من تلك الكأس مسبقاً ؟ ولماذا يؤخذ اليهود جميعهم بمثل تلك الفعلية الشنعاء و منهم الكثيرون غير راضين عن هذه السياسة القذرة ؟ ولماذا لم تستوقفها تلك الجرائم مسبقاً وهي التي تنادي دوماً بالعدوان ضد الاسانية ؟ هل كان تنتظر تلك الفتاة لتنهبها أن هناك هولوكوست جديد ضد الفلسطينيين ؟ وإن كان هناك تسعون من عجائز يهود فرنسا قد لقين حتفهن غدراً فهناك مثلهن الاف من عجائز الفلسطينيات ؟

أخذتها افكارها ركضاً حتي وجدت نفسها فجأة في شارع ريفولي ومنه لشارع سان مارتا ثم منطقة بيجال لتقف امام المولان روج، أخذت تتأمل في مجسم الطاحونة الحمراء الذى صمم كشعار فوق المبني ، واستغربت أنها منذ قدومها لباريس لم ترتاد أياً من الحانات الليلية الشهيرة كالمولان روج ، والفولي بيرجير وغيرهم الكثير حتى الأوبرا والمسارح .. و...

حتى أنها منذ قدومها مجدداً لهنما لم تمر على غابة بولينا مكانها المفضل ، لقد سجنحت نفسها في القضايا والمرافعات حتى ينال المظلوم حقه ولكن لماذا غضت البصر عن ما يفعله قوما في الفلسطينيين ؟

رجعت أدراجها بعدما تأكدت أنها قاربت على الساعتين وهي تتجول، عرجت على محل البقالة وأشرت احتياجها اجبان وحليب وخبز الباجيت . وقفت أمام بوابة البناية الخشبية المغلقة حاولت أن تضغط الكود على لوحة المفاتيح حتى يُفتح الباب ، ولكن الكيس الورق فتح وبعثت محتوياته ارضاً . ثم حضر هو لثُهب على أثر قدومه رياح باردة ويتدفق ضوءه المباغت في أنحاء المكان . و ساعدها هذا الجنتلان في جمع الأشياء و حمل الأكياس عنها ، بينما بيد مرتعشة ضغطت الأرقام ليفتح الباب ، شكرته وعندما كانت ستهم بغلق الباب أستوقفها قائلاً :

__ هل التقينا مسبقاً ؟

لم يكن في حسابها أن رأسها الحليقة ربما تجعل رجلاً ما يوماً يعجب بها ، رجلاً على قدر كبير من الوسامة والأناقة . ولكن هل تراه أعجب بها حقاً أم فضولاً حول أن تظهر سيدة تقطن باريس برأس حليق ؟ ترك لها بطاقته الورقية مدوناً بها اسمه وعدد من ارقام التيلفونات . ظلت عينها معلقين بوسامته حتي الطرف الأخير منه . أطالت النظر لنفسها في مرآة المصعد وهي التي منذ الزمن لم تهتم بأن تنظر لنفسها في مرآة.

بصعوبة أدارت المفتاح في كالون الباب لثقل أحمالها . حضر قطها مسرعاً يرحب ويمسح بها. تركت الأكياس فوق منضدة المطبخ الرخامية وخلعت حذاءها بإهمال في منتصف الصالة ، فتحت صنوبر المياه الساخنة وتركت المغطس يمتلئ بينما كانت تتصفح رزمة الخطابات التي وجدت في صندوق البريد الخاص بشقتها في بهو البناية . اعادت أن تستلم عدداً لا بأس منه من الخطابات، من المنظمات والمؤسسات ولكن اليوم حُشرت ما بين الرسائل ، رسالة من ديدو تلك التي تأتيتها بروائح البلد التي تحبها كثيراً بدفء شمسها ومذاق نيلها، لذلك وجدت نفسها تفض الرسالة بلهفة لتقرأ ما قصته عليها .

أخبرتها عن اشتياقها للأحاديث التي كانت تجمعها معاً وحينها المائدة الطعام التي كانت تعدها وتنتظر في تمام الثالثة والنصف من عصر كل يوم لتناول الغذاء معها . كما أكدت لها أن اليهود في مصر اصبحوا عدداً قليلاً جداً، ومن بقي منهم فهو اليهودي المصري الأصيل مثلها تماماً ، فضل البقاء حتى يدفن تحت ثرى تلك البلاد رافضاً أى إغراءات صهيونية ليترك بلده لإسرائيل .

أعادت الرسالة للظرف مرة أخرى وهي تحدث نفسها قائلة :

__ من حق الكراهية أن تملأ قلوب المصريين تجاه اليهود تماماً، كما ملئت الكراهية قلوب يهود العالم تجاه كل ما هو الماني ، حتى وأن كان لا يُمت للنازية بصلة . هي نفسها أليست في بداية معرفتها بفون ، كانت تشعر بامتعاض تجاهه ، حتى أفصح لها بمدى كراهيته لهتلر وللنازية وبكل المصائب التي تحدث بسببها.

أصبحت في حيرة من أمرها قرابة النصف ساعة وهي تجلس على مكتبها أمامها عدد لا بأس منه من القضايا ، وللمرة الأولى فقدت حماسها للدفاع عن الحق ، فأى حقوق تلك هي التي تحاول إعادتها لأصحابها ، وهم الذين يغتصبون حقوق الغير؟! أليسوا هم من جمعوا متاعهم لينصبوه هناك فوق متاع أناس آخرين ، ليس من أمرهم شيئاً غير الضعف والحيية ، ترك كلاً منها شجرة زيتونة عجوز في حديقة منزله وفر هارباً وكلما مضى كانت تحيط به روائح الزعتر البرى تستحلفه للمكوث .

أزاحت كل الأوراق التي أمامها وجلست تكتب لديدو وهي تبكي، ثم حكّت لها عن لقاءها بتلك الفتاة وفي نهاية الرسالة: " طلبت مني تلك الفتاة أن اذهب إلي هناك إن كنت كما يطلقون عليّ في الجرائد والمجلات نصيرة المظلومين لأرى بعيني واقع الظلم عليهم . ويجب أن ادافع عنهم تماماً كما فعلت ضد النازية، خالة ديدو بحق الرب .. أنصحيني ماذا أفعل ؟"

تركت الرسالة جانباً لتأخذها في طريقها غداً لتضعها في صندوق البريد ، ليصطدم نظرها بالبطاقة الشخصية التي وضعها هذا الرجل في يديها منذ ما يقارب الأسبوع ، لقطنته سريعاً و قبل أن تدير رقمه جلست لتخطط ما الذي سوف تقوله :

__ بونسوار أنا تلك المرأة التي قابلتها وجمعت لها حاجياتها المبعثرة .

__ بونسوار أنا التي وضعت في يديها أرقام هاتفك ومضيت .

__ بونسوار أنا تلك البلهاء التي أوقعت مشورتاتها في ذلك اليوم .

كل مرة كانت ترتب الجملة وتعيدها على نفسها بصوت جميل وكأنها في إحد البروفات لتقديم دورها في مسرحية ، وبالرغم من كل شيء عندما جاءها صوته عميقاً وهادئاً ، تلعثت وهي تخبره أنه النبي بها منذ أسبوع مضى على ناصية شارع 15، عندما كان الطقس شديد الرياح وكانت تحمل الكثير من المشروبات و

قطع تلعثها قائلاً :

__ أنتظرتك طويلاً !

وبتلك العبارة اختزل المسافة فيما بينهما . اتفقا على لقاء قريب في أحد المقاهي بساحة الشانزلييه .بعدها أنهت المكالمة معه ذهبت إلى المرآة تطالع قوامها فيها ، أحكمت شد رداءها حول خصرها ليبرز تفاصيله وأخذت تلفف يمينه ويسرة لتتأكد بأنها ماتزال تملك قواماً شهياً جميلاً .

في اليوم التالي من المكالمات كانت تتجول داخل أروقة متجر شانيل وهي تفكر أى ثوب يمكنها أن تختار للقائه. لقد سئمت مظهرها في تلك الملابس الكلاسيكية من قطعتين وبأزرارها الكبيرة ، كانت تريد أن تبدل مظهرها لآخر أكثر انوثة وأكثر جلالاً ، لذلك وقع اختيارها على ثوب من الجيرسيه الأسود صمم بشكل بسيط وأنيق في ذات الوقت . أتجهت بعد ذلك لقسم الشنط والأحذية وأختارت برتقيه وحذاء عالي الكعب وكأنها لم يصم إلا لأرتدائها مع هذا الفستان ، ثم اخيرا كانت في قسم التجميل تقف امام البائعة التي على دراية كبيرة ما يلائم لون بشرتها من ادوات التجميل ، أتسمت وهي تجربها أن كل علاقتها بمثل تلك الأمور لا تتعدى معرفتها بالكحل الشرقي الذي أعتادت أن تكحل به عيناها كما هن نساء الشرق فهي شرقية ومهما حملت من هوية لن تؤمن يوماً إلا بأتائها لمصر . أنهت جولتها الشرائية في متجر شانيل متعدد الأدوار بقارورة كريستالية من عطر شانيل رقم 5 .

وفي الموعد جاءها يسبقه عطره بعدما ارتدى للقائها أنافته ، هي التي لم ينبض قلبها منذ الزمن حتى أنها أعتقدت أنه مات ودفن بدفن الرجل الوحيد الذي نبض له ، لماذا تسمعه الآن ينبض بقوة بين ضلوعها ؟ لماذا هي مرتبكة متلعثمة وهي التي تقف أمام أعتى القضاة تتضال بعلو الصوت ضد الظلم ؟ ولماذا للمرة الأولى تمت لو أن ينبت شعرها مجدداً ؟

وكأي جنتلمان أحنى ليطبع على يديها قبلة بينما ينظره كان يعانق كل جزء فيها مردداً :

__ ما كل هذه الأناقة والجمال ؟

طلت جلستها معاً كان مفتاح اللبوح ادراه في قفل صمتها الذي اعتادته ، لذلك حكمت له بالتفاصيل من هي وكيف قدمت إلى هنا وحينها لبلدها وأهلها في مصر فرت دمة على خدها وهي تجرب بصوت خفيض وكأنها تتحدث به لنفسها :

__ أنها تعيش في شتات روجي ، تبحث عن جزء منها هنا وجزء اخر تركته هناك ، هؤلاء اليهود الذين عاشوا حياتهم في مصر وأثروا وتأثروا فيها كيف لهم أن ينسوا تاريخهم الطويل ؟ كيف لهم أن ينسوا أو يتناسوا أن في هذه البلاد لهم هناك بيت ومعبد ومدفن ؟

ثم اردفت :

__ تماماً مثلما ما يتعرض له الفلسطينيون على يد إسرائيل أنه هولوكست آخر. لقد أحترت كيف أن البشرية تحلم بعالم يسوده السلام وهي نفسها تبتكر فنون الحروب والقتال .

كان يجلس امامها مأخوذاً بتلك الأنثى الممتلئة بالحماسة والرفض . إنها نوع اخر مختلف عن هؤلاء النسوة اللاتي تعرف بهن و ليس هناك ما يشغل عقولهن سوى أحدث خطوط الموضة والسفر و ثثرة المجتمع ، لا يصدق حتى أن الأنثى التي يقاسمها طاولة في أول لقاء تقص له أمر الموت والقتل لذلك أحترم أفكارها وقضيتها .

نظرت في ساعتها صائحة :

__ يا الله لقد مر أكثر من الساعتين ونحن نجلس هنا .

بملاح سادها الأستغراب :

__ وما في ذلك ؟

__ ولكن ليس من عادي أن أجلس على مقعد كل ذلك الوقت ، بل والأدهي أنني لم أتوقف عن التثرة . هيا بنا نتريض قليلاً فالجو جميل .

قام بدفع الحساب وسارا بمحاذاة كلاً منها للاخر سألته:

__ حدثني عنك ؟ أنا لا اعرف عنك شيئاً !

__ أعمل طياراً على الخطوط الفرنسية وأعيش بمفرد في حي سان جيرمان . وأنا لا أميل للعلاقات الاجتماعية لذلك لا أملك الكثير من المعارف أو الأصدقاء ، أفضى أغلب أوقات حياتي في الجو أو ما بين مطار وآخر ومدينة وأخرى .

__ بالها من حياة متجددة .

__ نعم أنها كذلك .

__ ولكن هل تعتقد أن هناك ما يجمع بين رجل طيران يعيش فاردأً جناحيه محلقاً ، وامرأة كل همها النضال ضد الظلم والعبودية تعيش بين صفحات الكتب الضخمة التي تشرح القوانين والساساتير ، رجل لا قانون يحكمه سوى النشرات الجوية وامرأة مهنها القانون ؟

ابتسم لحدثها فأخذتها أبتسامته لهنالك في تلك الليلة في البوريفاج منذ سنوات مضت في مدينة الأسكندرية ، عندما كان أجمل ما يملكه هذا الرجل وقتها هي أبتسامته . بينما هو أجابها عن سؤالها الذي لا أجابة عليها إلا بذلك العناق القوي التي داهمها به . عناق لا شاهد عليه سوى بعضاً من المارة و نهر السين و برج ايفل وساء كانت تظن رذاذاً خفيفاً ذلك المطر الربيعي الخفيف الذي ينذر بمتعة ما في طريقها اليك . غادرا على وعد بقاء ولكن متي واين ؟ تركا تلك المهمة للقدر ، أوليس هو الذي يقود دفة حياتنا صوب ما يريد ؟ فلما الترتيب إذن هو وحده القادر أن يرتب مفكرة أيامنا مثلما شاء . و لم تكن في مفكرة حياتها يوماً أن تلتقيه فقد وضعه لها في طريقها على باب منزلها ذات يوم كصندوق للهدايا ملفوف بورق مزركش قد نجأك به صديق وتركه لك على عتبة منزلك لتتعثر به فرحاً اثناء دخولك لمسكنك ، إنه كذلك تماماً هدية من القدر لها .

مرت الأيام ببطء شديد امتنعت عن الذهاب لمكتبها فقد كانت تحتاج لإجازة فمنذ متي لم تحصل عليها ؟ أبلغت السكرتيرة أنها لن تحضر للمكتب لعدة أيام . كان كل تفكيرها يبحثها على الخوض في تلك الارتكابات ضد الفلسطينيين ، شغلت بالها تلك القضية ، جمعت أكبر قدر من الجرائد والكتب والمعلومات التي تخصها حتي تعرف أكثر عنها . كان هناك شيء ما يدفعها لذلك واخر يثنيها عنه واصبحت لا تستطع أن تتخذ قراراً مناسباً . ففكرت أن تسافر للجنوب الفرنسي لبعض الوقت خصوصاً أن الطقس ربيعي جميل وفي مثل ذلك الوقت تصبح المدن الجنوبية مثل كان ، نيس ، سان رافيل ، انتيب ، غاية في الروعة ..

طلبت من سكرتيرتها أن تقوم بحجز تذكرة للطيران واللفندق و أكدت عليها أن يكون (الجراند اوتيل) فقد أقامت فيه اثناء رحلتها للريفيرا مع عائلتها عندما توجت ملكة جمال الشاطيء ، هذه الرحلة التي لم تغادر ذاكرتها بعد ، وضعت في حقيبتها ملابس ربيعية خفيفة بألوان مزهرة وقبعة خوصية كبيرة وحذاء خفيف للمشي ، اخيرا تخلت عن صلابة الأناقة من أجل بساطة البحر .

لم تنسى قبل أن تغادر أن تطلب رقم " أدريان "ولكنه كان دوماً لا يجيب، تذكرت عندما أخبرها أنه يقضي وقته ما بين مطار وآخر ومدينة وأخرى ، فكيف إذن بإمكانها أن تمسك به حتي لو عبر هاتف .

بعدها هبطت بها الطائرة ، أستقلت السيارة من المطار للفندق وسريعاً شرعت النافذة الجانبية لتستمتع برائحة المدينة.

أخرجت رأسها من النافذة وأغمضت عينيها وملأت أنفها برائحة الجو وكأنها تريد أن تمتلأ به . وصلت للفندق القديم الذي

كان كما هو منذ اخر زيارة لها به ، وربما منذ مئات السنوات عندما بني على الطراز الروماني، بنوافذه العالية وثيرياته الضخمة

كل شيء به يدعو للثراء والفخامة . أوصلها العامل إلى غرفتها وأجزلت له العطايا وأغلقت الباب خلفه لترمي بنفسها على الفراش

وتستعيد ذكرى مر عليها أكثر من خمسة عشر سنة . خمسة عشر سنة أقلبت فيها حياتها رأساً على عقب ، وجوه أخفت

من الحياة وقرى ومدن هدمت تماماً من على خارطة العالم ، دمار شمل العالم كله ، موت جماعي قنابل صوتها يدوى ، دماء

تنسكب على الجليد و تتكسد جثث الجنود الواحدة فوق الأخرى .خمسـة عشر عاماً تبدل فيهم الكثير مثلما تبدلت هي فيهم، لم تعد

هذه الفتاة الخجولة التي قُدمت من الشرق لفرنسا على متن سفينة للحزن ، الفتاة التي كانت يوماً بسنواتها السادسة عشر

تذهب وتحج شاهرة أنوثتها باستيحاء على شاطئ الريفيرا ، بمايوه من الحيرسيه المطاطي الأسود تصميم مدام شانيل بنفسها .

عندما أقرب منها رجل عرفها بنفسه بأنه منظم لمسابقة ملكة جمال الشاطيء ، يتجول في أنحاء المكان ليقع اختياره على أكثر

من فتاة ويقدمهن للجمهور الذي بدوره يرشح الفتاة الأجل من بين المتسابقات ،تتذكر أنها لم تتحمس للفكرة يوماً لاهي ولا أمها

وحده أبوها الذي أصر على أن تخوض المسابقة، حتي كانت الثامنة مساء عندما كانت تقف على المسرح الذي أقيم على الشاطيء بملابس

البحر كما طلب منها منظمي المسابقة وسط أكثر من 20 فتاة بلامح أوروبية جميلة ، وحدها كانت تحمل عقب الشرق في ملاحظها

وفي أستدراة جسدها وفي شعرها المنسدل كشلال على ظهرها، كانت تحمل رقم 10 الذي جمع أكبر نسبة اصوات ، وفجأة

ومضت فلاشات الكاميرات في عينيها و التفت اطواق الورود حول عنقها ، وخلعت ملكة جمال شاطيء الريفيرا للعام الماضي

التاج المرصع باللؤلؤ والقواقع البحرية من فوق رأسها وتوجتها به ، وتفرقع في الهواء الألعاب النارية و تلون السماء المعتمة، وتمتلىء

هي بالورود و الأوراق المزركشة للزينة التي أنسكبت عليها من الجمهور، وأزدحمت بالمهنيين والشباب الذين تراصوا يطلبون

مراقصتها. اليوم وبعد مرور كل تلك السنوات كل شيء تبدل واختلف . كانت تقف مسبقاً بملابس البحر وسط فلاشات

الكاميرات والجمهور لتتوج كملكة جمال الشاطيء ، اليوم هي الكاميرات نفسها وهو الجمهور نفسه ولكن شتان ما بينها وبين الأخرى . اليوم تقف في كامل وقارها وحشمتها امام منصة القضاء و برأس أصبحت حليقة وبروح معتمة لتنادى بالحق .

بعد أن تناولت الغداء في مطعم الفندق ذهبت في جولة على الأقدام في حذاء الريفيرا " كوت دازير " حيث الشاطيء يمتد على شكل حدوة حصان و الأضواء تنير الأشجار الممتدة على طول الساحل ، أشجار بقامات عالية من النخيل والمارون والكستناء ، وتزدحم المياه بالقوارب واليخوت وعلى الجانب الأخر تتلألأ الفنادق المطلة على البحر جراند اوتيل ، نيجر كسو ، كارلتون ، تلك الفنادق القديمة التي بنت على طراز النيو باروك ، حيث المداخل والشرفات تزينها المنحوتات والأعمدة الرخامية ، أقتربت للشاطيء وخلعت حذاءها الذي كان خفيفاً كأحذية راقصات الباليه ووضعت قدميها في الماء، وأكملت جولتها على الرمال بطول الشاطيء كان البحر واسع كبير مزدحم بالأسرار والحكايا .

بعد تلك الجولة وصلت للفندق أكثر استرخاءً، فوجدت نفسها تنعس للمرة الأولى بمجرد وضع رأسها على الوسادة على وقع صوت الموج و تتزاحم الرؤى في عقلها الباطن ، رجال كانت قد التقتهم يوماً ، رجال يأتون ويرحلون مسرعين ، يقتحمون حياتها بكل هذا العنف ، ويغادرون بكل هذا الأسى .

استيقظت مشرفة تناولت إفطارها في الشرفة وبدلت ثيابها مسرعة ، ارتدت ثوبًا زهريًا ليتماشى مع لون البحر ووضعت قبعتها الخوصية الكبيرة واختفت وراء نظارة شمسية بيضاء.

ركضت على (جان ماديسا) تترىض وسط تلك المحلات الصغيرة التي تعرض التحف والأنتيكات في شوارع غاية في الضيق متعرجة ومرتفعة وصلت لنهاية الطريق لشارع (فكتور هوجو) المزدهم بمحلات المقاهي والباتسيري التي تخبز الحلوى الفرنسية والخبز الشهوي وجدت نفسها تزج البوابة الزجاجية لأحد المحلات وتقف أمام السلال التي مُليئت بالخبوزات الطازجة الشهية تختار من بينها . واخذ العامل بمريله ناصع البياض وبقبعة الشيف العالية فوق رأسه يعبئ لها في كيس ورقي من الورق . بعدما أنهت عرجت المكتبة كانت للتو تفتح ابوابها . أشترت بعضًا من الكتب وعدد من الجرائد ، وخرجت وهي مثقلة بالمشتريات فكرت أن تذهب لأول مقهي تصادفها في طريقها ، لتحسني قهوتها وهي تقضم الحلوي وتتصفح الجرائد . ثم كان هو ، لم تلمحه حتى اقترب منها ونطق لتشي به نبرة صوته :

__ أهكذا أنتِ دوماً مثقلة بالمشتريات ؟

لم تتخيل يوماً يجمعها لقاء هنا :

__ وهل أنتِ دوماً رجل المصادفات ؟

__ ليس هناك من صدف! هناك فقط وهم الصدف كل ما يحدث لنا هو مقدر ومكتوب منذ الزمن .

__ ولكن عندما لا تكون في مفكرة يومي موعد معك وألتقيك ماذا تسمي هذا؟

اجابها وهو يتناول منها الكيس :

__ أنه مخطط من القدر

__ و هل يا ترى مخططًا سعيدًا أم تعيسًا ؟

__ ربما الأثنان معاً !

لم تحاول أن تسأله ولماذا سيكون تعيسًا.

كان هو أيضاً يرتدي بساطة المكان قميص أزرق ، وبنطلون أبيض ، وحذاء مطاطيًا يجمع اللونين .

__ ولكنك تشعين نضارة وطفولة في هذه الملابس .

_ كلاً منا يجي بداخله طفلاً يظهر احياناً .

_ و لم أنت هنا ؟

_ أحتاج لبعضاً من الراحة والأستجم وأنت ؟

_ أنا مع مجموعة سياحية نقلتهم صباحاً الى نيس وغداً صباحاً سنقلع لباريس مرة أخرى.

_ أين تقيمين وإلى متى ستمكثين ؟

_ أقيم في الجرانداوتيل أما إلى متى سأمكث فلم أحدد بعد ربما إقامتي تطول لبعض الوقت .

_ وعملك ؟

_ أنا هنا من أجل عملي . هناك قرار هام يتحتم علىّ فيه أن افكر جيداً ، لذا أنا هنا .

تمشياً معاً كلٌ منها بجوار الآخر حتى وجدا أنفسهما امام الشاطيء مباشرة . كانت الشمس مشرقة في هدوء ونسبات الهواء باردة ومنعشة في نفس الوقت ، وطيور النورس تنتشر على طول الشاطيء . وعلى مقعد خشبي امام البحر جلسا . فتح الكيس الورقي ليكشف عن أى شيء تنبعث منه تلك الرائحة الشهية فصاح قائلاً :

_ يا الله ماكل هذه الحلوى !!!

_ أنا ضعيفة امام المخبوزات الفرنسية ولا أستطيع أن أمنع نفسي من الشراء .

مد يدها لفطيرة الداناش بينما قضم هو من قطعة اكبر الشكولا .

اخذا يقضبان ، ويتحدثان ، ويضحكان ، حكى لها سفياراته وعن حبه للشرق وخاصة مصر وكيف أن جده كان فناناً فرنسيًا شهيرًا، ذهب لمصر في منتصف القرن التاسع عشر ورسم مجموعة كبيرة للحياة هناك منها لوحته الشهيرة " شارع في القاهرة " وهي ضمن مقتنيات متحف اللوفر. حكى لها أنه زار مصر في احد رحلاته الجوية وشاهد شوارعها ومبانيها ، أستغرب كيف ضاهي جده الحقيقة في لوحاته بمثل تلك القدرة المذهلة. ثم نظر يتأملها قائلاً :

_ أتعلمين أن بك شيئاً من اللوحة !

_ كيف ؟

_ ملاحظك تشبه روح اللوحة . روح الشرق التي تمتلكينها وتطفو لتطغي على مظهرك ولهجتك الفرنسية .

ثم نظر بعيداً للبحر الواسع قائلاً :

__ كان جدي في نهاية السبعينات من عمره ، عندما كنت أنا هذا الصبي الذي تم لتوه الخمسة عشر عاماً. وكان هناك شيئاً ما خفي يجمع بيننا . كنت أحبه بذقنه الغير مرتبة وبغليونه القديم وبأصابعه المغموسة بألوان أبت أن تخرج منها لتشي بمهنة كانت له ، وببحة صوته الدافئة كان يجلس ليحكى لى رحلته للشرق. وماذا شاهد وماذا فعل ؟ مؤكداً أنها أجمل أيام عمره ، كان يحتفظ بعدد من اللوحات رفض بيعها لأنها خاصة به وحده ، منها بروتريه لامرأة كان قد وقع في حبها ارتبط بها بعلاقة حب من طرف واحد فالشرق المتزمت وقتها بعباداته وتقاليده منعه حتى من مصارحتها بذلك ولأنه لم يكن يملك من امره شيئاً فأكتفى بأن أحبها في صمت .

__ ولكن كيف شاهد جدك هذه المرأة ؟ والنساء في مثل ذلك الوقت كن نادراً ما يكشفن وجوههن !!!

__ هو رسمها وهي ترتدي خمارها، لم يظهر منها سوى عينيها .عيون سوداء واسعة ساحرة . أجمل عيون يمكنك أن تريها في حياتك . لقد اكتفى بأن قبض عليها في لوحة و وضعها داخل أربعة أضلاع ، كان يذهب ويحيء بها معلقة فوق جدار قلبه . كثيراً ما أثارت تلك السيدة غيرتي خاصة عندما كان يجلس بالساعات امامها ينفس في غليونه و يتأمل فيها . و رفض أن يبيعهها ، بالرغم أن متعهد بيع لوحاته عرض عليه مبلغ خيالياً ثمناً لها ، ولكنه رفض وظل متمسكاً بها لأخر نفس بحياته . تخيلي.. بعد موته رفضت جدي عرض المتعهد واغراءاته لشراء اللوحة وهي التي كانت تكرهها كثيراً و تتمني أن جدي يتخلص منها ! ولأني كنت الحفيد الأقرب له سلمتني إياها وهي تختصر ، ووصتني ألا افراط فيها هي ودفتر كبير كان يكتب فيه يومياته في الشرق .

__ وهل قرأت ماذا كتب ؟

هز رأسه نافيًا

__ بالطبع لا . فطالعتك على يوميات الآخرين في نظري كتلصصك على عوراتهم أو تصنتك على أحاديثهم .

__ ولكنه لم يعد هنا .

__ ولكنه كان هنا . وكنت أحبه وكان بمثابة مثل أعلى لي ، لا أحب أن أكتشف نزواته أو ضعفه ما بين السطور، واجد تلك القامة العالية والمكانة التي يحتلها بداخلي تهتز . كثيراً ما وقعت تلك الأوراق في أيدي أبناء كان أبائهم مثلاً أعلى لهم . ليكنشفوا بعدها أن أباهم قد بدأ عمره لئلاً أو مرتشياً، وأن أهمهم متعددة العلاقات وطالما خانت أباهم . تخيلي وقتها تلك المكانة العالية كيف أنها ستهدم ويحل محلها شعور بخزي وأحتقار ، لا لن أفعل ذلك وإن كلفني الأمر حرقها لأتخلص منها وخاصة أنها تتحرش بي كثيراً لقراءتها ولكني اقاومها !

بصوت خافت اضاف:

__ احياناً أستغرب حال هؤلاء الناس المولعين بكتابة يومياتهم، أين ذهبوا ، ماذا شاهدوا ، و ماذا تناولوا و من قابلوا؟ ما قيمة أن تسجلي لحظة ماضية ؟

__ إنهم يعيشون وهم القبض على اللحظة والإمسك بها حتي لا تغفل منهم ربما بعدها بعدة سنوات يلجئون لقراءتها عندما يمسهم الحنين لماضيهم وللسعادة كانت قائمة يوماً .

اخيراً كان قد حول نظره اليها وسألها :

__ وهل تفعلين ذلك ؟

هزت رأسها بقوة نافية :

__ لا ، لم أفعل بالرغم أنى عشت حياة مليئة بالأحداث التى تستحق أن تدون .

بعد برهة من الصمت أضافت بنبرة أكثر حزناً :

__ ما حاجتي للتدوين ، إن كانت كل تلك الأحداث ماثلة أمامي وكأنها قد حدثت للتو . أنا أملك ذاكرة نشطة متحمسة ، ما أن تهمل ذكرى صغيرة حتى تستدعى معها جبال من الذكريات ، أحداث ، وجوه ، أماكن ، روائح ، محادثات ، مشاجرات .

فجأة صمتا معاً ، وتوغل كل منها أكثر فى ذكرياته ، ذهب كل منها بعيداً هناك لأيام وأماكن كانت قد صنعت سعادة ما أو حزناً ما . ثم قام منفضاً وكأنه تذكر شيئاً :

__ هيا بنا .

__ إلى أين ؟

__ إلى التلال .

قالها وهو يشير عبر البحر على الضفة الأخرى حيث تظهر التلال من بعيد .

__ ولكن كيف ؟

__ سنستقل اليخت ومنه للجهة الأخرى .

وقبل أن تنطق كان قد قبض بقوة على كفها وأسرع الخطي بها يقودها للبارينا . قام باستئجار يخت صغير وذهبا معاً . وقفت على قمة اليخت تراقب المياه وطيور النورس محلقة فوقها بينما تظهر التلال على الضفة الأخرى وتقترب شيئاً .. فشيئاً

أقتربت منه في قمر القيادة ، كانت الشمس صبغت لونه للذهبي ، فأبرزت لون عينيه اللتين هما بلون العسل الصافي ، وأكسب وجهه بالشمس فزاده ذلك جاذبية ووسامة. كان صوت "اديث بياف" يأتي عبر المسجل في أغنيته الشهيرة " الحياة وردية " وهي التي تؤمن بالمقولة الفرنسية الشهيرة " الحياة ليست دائماً وردية " فأبي منها تصدق ؟ حنجره اديث القوية وصوتها الذي يعلو مردداً الحياة وردية ، ربما هي كذلك في هذه اللحظة بالذات . أو هو الجانب المشرق من المقولة التي لم تنفي أن الحياة وردية ، أخبرتنا فقط أنها في بعض الأحيان تتلون بالوردي .

__ كنت أعلم انك تجيد قيادة الطائرات. أمّا عن قيادة اليخوت فهذا يدهشني !

__ الأمر غاية في السهولة. ما دمت بعيدة عن صلابة الأرض فتأكدني أن أى قيادة هي الأسهل وقتها .

__ كيف؟! والأرض صلبة لتتمكن من السير فوقها. أمّا عن الماء والهواء فأعتقد أن الأمر أكثر صعوبة .

__ نعم الأرض صلبة ولكنها هي أكثر عناداً صدقيني .

بعد أقل من عشر دقائق صاح قائلاً :

__ ها قد وصلنا. توقف باليخت في الميناء ، بجوار جسر خشبي قديم كان عليها عبوره . كان الجسر قديم للحد أنها كانت تسمع صرير الخشب تحت قدميها كلما خطت . لذلك كانت تمشي بتمهل وحيطة .

وهناك كان المشهد حقاً يستحق العبور إليه. تلال متدرجة ، بحر ، وعشب . يظهر البحر وكأنه في عناق أبدي مع الجبل . اشار لطريق جبلي غير ممهد ويحتاج لمشقة لصعوده . تدمرت و لاحظ ذلك فأبتسم قائلاً :

__ ما الضرر في أن نعبد بعض الوقت إذا كان ينتظرنا الأجل بعدها كل الوقت .

أبتسمت له وصعدا معاً وهي تردد جملته وتساءل من أين يأتي هذا الرجل بهذه الحكمة؟

اخيراً وصلا فصاحت قائلة :

__ يا الله ما أجمله مشهد .

كانت المروج الخضراء تحيط بالتلال الجبلية ، بنيت أكواخ الفلاحون بمحاذاة قصور الأثرياء الذين يأتون لهننا لقضاء الصيف ، وفي المروج الخضراء كانوا رعاة الغنم يرعون غزاتهم وأغنامهم التي تركض يمنة ويسرة ، كان مشهد البحر من أعلى غاية في الروعة والهواء منعش وصحي . أشار بيده للاكواخ المتناثرة بدء من السفح وحتى قمم التلال :

__ انظري لتلك الأكوخ أنها ملكاً لرعاة الأغنام من الفرنسيين الفقراء . يقطن هنا أناس لم يعرفوا في حياتهم سوى رعي الأغنام والعيش على ربح البانها وأجبانها ، كل صلتهم بالعالم الاخر هو أنهم ينزلون " لنيس " حيث يبيعون جبن الماعز المشهورين بصناعتها ، للسكان والسائحين .

ثم أمسك يديها قائلاً :

__ هيا بنا سذهب لزيارة بعض الأصدقاء .

طرق باب كوخ صغير عدة طرقات فتحت الباب لها فلاحه عجوز واخذت تمنع النظر تارة فيه واخرى فيها واخيرا صاحت بأسمه وهي تقترب منه وتعانقه

__ أدريان ، معقولة كل هذا الوقت ولم تزورنا

__ عذراً لاميّه فقد كنت على سفر دوماً .

صاحتها بعد أن عرفها بها ، ورحبت بها السيدة في مسكنها المتواضع ، وعلى طاولة خشبية صغيرة بمقاعد من الخيزران جلسا . كانت تحضر لضيافتها و تقص عليه أخبار زوجها واولادها . ثم جاءت لها بكويين من الفخار بها لبن الماعز و وضعت لها خبز كانت قد خبزته بنفسها صباحاً و قدمت معه صحن به جبن الماعز وتمنت لهم شهية طيبة وغابت عنها .

ثم رجعت مجدداً بقارورة من النبيذ أخبرتها أنها صنعتها وعتقتها منذ زمن . ولن تخرجها من مخبئها إلا للمناسبات الخاصة جداً .

هزت رأسها إيفا بالرفض قائلة :

__ شكراً سأكفي بشرب الحليب .

كانت تراقب يديها وهي تقوم بفتح غطاء القارورة تدل على معاناتها عبر السنين في حياتها المجهدة ولكن لها ابتسامة طيبة وسمحة لم تغادر وجهها .

__ هل تعرفها منذ وقت طويل ؟

__ في السنوات الأخيرة من حياة جدي ، اصابه مرض بالأعصاب يسمى بالشلل الرعاش وقد منعه من ممارسة الرسم . ترك باريس وأشتري منزل ليقم فيه هنا للأستجمام ولرسم المروج الخضراء تلك التي لا تحتاج جهداً لرسمها ، كنت اخرج معه باكراً للحقول ونحضر إلي هنا . كان هو يفرده اوراقه ليرسم بينما اراقب الفلاحين ورعاة الغنم . وتوطد علاقتي بهذه الأسرة البسيطة ، كانت ما إن ترانا حتي تهرع الينا باقداح فخارية من لبن الماعز الساخن ليمنحنا الدفاء . بعد موت جدي قلما جئت لهنا ولكن في المرات البسيطة التي جئت فيها كنت حريص للمرور عليهم .

__ أنها حياة بسيطة وجميلة .

كانت تجول بنظرها تمن النظر في البيت القروي وتلك المرأة التي تقف على مقربة منها بعيون بلون زرقة البحر الذي يطل منزلها عليه ،
ويدين أنهكها التعب والشقاء وابتسامة لا تفارق وجهها .

ودعا المرأة التي أحت عليها كثيراً لتناول الغذاء وهي تعلن بفخر في وجهها عن الطبق المميز الذي كانت سوف تعده خصيصاً للترحيب بها
__ سأعد لكما أمعاء البقر المحشية بالأرز واللحم .

أبتسمت إيقا بينما امتعض هو وكان يردد و هما يزلان التل ويضحكان

__ أمعاء البقر المحشوة !!!

__ أنه طعام شهير ولذيذ نطبخه في مصر ، عليك بتذوقه ربما تغير من رأيك .

__ وهل تذوقتيه ؟

__ نعم كثيراً أنه شهى جداً .

__ لا .. لا مما يكن لا أستطيع أن أصدق أنتى أتناول أمعاء البقر .

في طريق عودتهما كانت الشمس توشك على المغيب سألها :

__ ماذا تنوين أن تفعلي ؟

__ لا شئ سأغفو قليلاً وهناك الكثير من الأوراق على مراجعتها .

قال بأندهاش وتساؤل

__ اوراق !

__ نعم اوراق مهمة تخص القضية الفلسطينية .

__ على ما أعتقد أنك إسرائيلية .

__ عذراً .. أنا يهودية أما إسرائيل فلا تمت لي بصلة .

__ وقراءتك في تلك الأوراق هل هي لصالح الطرف الإسرائيلي أم الفلسطيني ؟

__ لا أعرف بعد . على القراءة في الكثير من الأوراق ومراجعة الكثير من المعلومات والأحداث وفيها جيداً .

__ ولكنك يهودية وتدافعين عن أرتكابات النازية ضد اليهود فكيف بالله عليك تقفين لتدافعين عن العرب الفلسطينيين فهل ستكونين مقنعة في وقتها ؟

__ أنا مصرية وعربية ايضاً أم نسيت هذا . كما أني لا ادافع عن اليهود بشكل خاص أنا ادافع عن الحق قبل كل شيء .

أبتسم فقد كان يجب فيها دوماً شموخها وإصرارها .

اقترب اليخت من الشاطئء فسألها :

__ حسناً وماذا عن المساء ؟

__ لم أقرر بعد .

__ ربما يمكننا أن نتناول العشاء معاً قبل سفري فجراً .

__ موافقة

__ سأمر عليك في التاسعة .

__ سأكون في انتظارك في بهو الفندق .

كان يكفيها من الأوراق التي قرأتها أن تعلم إلى أي مدى وقع الظلم على الفلسطينيين . وتأكدت أنها ستكون في طريقها لمناهضة القضية الفلسطينية والدفاع عنها . فهؤلاء الأطفال والعجائز والمرضى الذين فهِروا ظلماً هم دوماً ما تحمله معها من هموم .

كان مؤشر الساعة يشير للثامنة والنصف ، إذن ليس أمامها سوى ثلاثين دقيقة لتستعد للقاء ادریان ، أنتهت وهي تقف امام خزانة ملابسها أنها لم تضع في حقيبتها فستان للسهرة فما حاجتها إليه هنا ، لذلك أمتدت يدها لأكثر الملابس ملائمة لهذا العشاء ، كان فستان من الجرسية الوردية ، وضعت من كل شيء أقله ، وضعت ديوساً من الألماس في جانب شعرها لترينه به ، كانت سعيدة لأن شعرها بدأ في النمو مجدداً و وصل لنهاية عنقها ، شعرها الذي رفض كل ذلك الوقت أن ينمو ، ها قد نما بعدما التقت به ، فقد وضع ابتسامته على حياتها و ازال عتمة روحها ، ليتسلل الضوء مرة اخرى إليها . وطوقت عنقها بعقد من اللؤلؤ فأضفى عليها مظهر من البراءة والرقية واصبحت انيقة كما ينبغي أن تكون لتلبية الدعوة التي حملها لها الحب للعشاء . و في التاسعة تماماً عندما كانت في بهو الفندق ، لمحتة يجلس على أحد المقاعد في زاوية جانبية ، يبدو وسيماً في بدلة صيفية من اللون الأزرق بدون ربطة عنق .

ما إن شاهدها حتي ابتسم وتقدم إليها وكعادته أنخني ليقبل يديها وتأبط ذراعها وغادرا . يسيران على وقع مزيج عطره صاحب الرجولة يعطرها شديد الأنوثة فكأنها يجلقان معاً في عالم من النشوة . لم تسأله إلى أين سندهب ؟ ولم يسألها إلى أين تريد أن تذهب ؟ فقط أطلقا لساقيهما العنان حتى وجدا مطعماً عائماً على ضفاف الماء . نظرا لبعضها وأنفقا صمتاً في الذهاب إليه . كانت الموسيقى تقترب إليهما كلما اقتربا من درجاته الخشبية الحزونية التي اجتازها بهدوء فقادتتها للطابق الأعلى من سطح المركب . رصت الطاولات بشكل يحرص على الخصوصية وحمية المواعيد . فأختار لموعدهما طاولة تنيرها الزينات الكهربائية التي علقت لترين المركب بالخارج ، فكانت تسرب ضوءها الحالم إليهما ازاح لها المقعد ثم جلس في مواجهتها .

الآن ها هي تجلس على طاولة مستديرة في مركب عائم ، و تنبث من المكان أنغام شوبان ، و يجلس في مقابلتها رجلاً باذخ الرجولة . فترى هل كانت القضايا المحملة بها أن تنزوى ولو قليلاً من الوقت في زاوية من الذاكرة ؟ وضع النادل قائمة الطعام امامها ، التي عليها نظرة خاطفة و أغلقها بعدما اختار طعامه

__ اسريعاً هكذا أخترت طبقك ، أم أنك تعلم ماذا يقدمون ؟

__ تعلمت أن الوقت من ذهب . فكيف لي أن اجلس امامك وأضيعه هباءاً في النظر في قائمة اطباق ، يكفيني أن أكون معك لأشعر بالشبع .

ابتسمت وشعرت بالحرج فأغلقت هي الأخرى القائمة .

__ سأطلب مثلك الآن لا فرق بين طعام وآخر .

طلب من النادل كأسين من النبيذ الأحمر وطبقان من كبد الإوز (بصوص دمي جلاس) ثم أشعل سيجاره وأخذ يتأملها من بين دوائر دخانه .

__ تسمحين لي بطلب يدك ؟

نظرت لهنالك للساحة المخصصة للرقص كان بها بيانو انيق تعزف عليه سيدة انغام لشوبان

__ ولكن لا من أحد يرقص كما أن هذه المقطوعة الموسيقية لا تشجع على الرقص .

قهقهه عاليًا ثم قال وهو يشد اصابعه على كفها :

__ أنا لا اطلب يدك للرقص ، أنا أطلب يدك لتشاركيني بها العمر كله !

ضافت حدقة عينيها استغراباً ثم اتسعت اندهشاً :

__ العمر كله !

__ نعم أنا أطلب يدك للزواج .

فاجأتها كلمته ، هل كان يقصد حقًا الارتباط بها ؟ هي التي لم تفكر يوماً أن أمراً كذلك سيحدث فضحكت بسخرية حتى لا يفضحها استغرابها .

__ لماذا تضحكين ؟

بنبرة باردة :

__ ابدأ ولكن قد سبقك أحدهم .

__ حقاً ومن هو ؟

__ الهموم والقضايا .

ارتخت عضلات وجهه التي كانت قد تقلصت منذ قليل وابتسم ثم أشعل تبغته مجدداً .

وضع النادل الأطباق وتناولوا العشاء وكل منها متخماً بأفكاره . يتبادلان بين الحين والآخر نظرة أو ابتسامة . تفكر في عرضه للزواج بها فهل أدخره لها القدر ليهدبها به في النهاية ، ولكن أى نهاية تلك ! ربما إذا لم تلتقي تلك الفتاة التي صرخت في وجهها تطالبها بمناهضة الفلسطينيين ومناصرة قضيتهم اذا كانت بالفعل كما يطلق عليها نصيرة الحق و المظلومين .

رفع النادل الأطباق وسألها :

__ سأغادر فجر اليوم لباريس ومنها لرحلة طويلة لأمريكا يمكنك أن تفكرين في هذه الفترة .

__ أنا ايضاً سأغادر لرحلة طويلة للشرق . حيث بإمكانني أن أرى بنفسي ما يحدث للظلم الواقع على الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين .

__ لقد قررتِ إذن ؟

__ لقد تعودت دوماً أن أفعل ما يميله عليّ ضميري.

أبتسم وهو يربت على كفها الصغير بحنان ، أوصلها لهُو الفندق و وضع قبلته على كفها كعادته. ودعته بكل ما أوتيت من نظريّ واخيراً غادر ولم يقل سوى :

__ سأنتظرك.

راقبته وهي يغادر بخطوة واسعة كمن يسرع نحو قدره. وبهذه الكلمة غادر احلامها فهي لا تعلم متى سوف تعود من رحلتها ؟

وهل سيجمعها لقاء مجدداً ؟ باتت ليلتها وهي عاقدة عزمها على السفر وكلما جاء عرض ادريان للزواج بها وتخيّل نفسها ترتدي فستان الزفاف الأبيض ويخطوان معاً على وقع الدفوف ، تبتسم وتطرد الفكرة من مخيلتها ، فهي لم تأت لهذا العالم ، لتؤدي دور الزوجة والأم هناك دور آخر أدخره القدر من أجلها . أى فتاة عادية بإمكانها أن تؤدي دور الزوجة والأم ، ولكن كم منهن تستطيع أن تؤدي دورها هي ؟

في الصباح غادرت الفندق بعد أن علمت أن هناك رحلة طيران في طريقها لباريس ستقلع عند الحادية عشرة صباحاً . ابتسمت وهي تصعد سلم الطائرة وألقت نظرة أخيرة على المدينة التي دوماً يحلو للحياة أن تفاجئها فيها . أفرغت أشياءها ومن حقيبة لأخرى كانت أكبر حجماً . حقيبة أعدت لرحلة طويلة غير مخطط لها. تاريخ رحلتها ، رقم بوابتها ، رقم مقعدها ، كلها ارقام رتبها القدر لها في رحلة لم تحسب حسابها يوماً ولم تخطط لها . فيا ترى ؟ هل ستفتح لها الأبواب أم ستغلقها ؟ وهل ستعود منها رابحة أم مهزومة ؟

وفي المطار كانت الإذاعة الداخلية تنادى على رقم رحلتها المتجهة الى بيروت . جمعت أشياءها وقامت مسرعة. وهي بين السماء والأرض و كما اعتادت الذاكرة دوماً في نصب شباكها لها لتبدأ في محاسبة نفسها على كل ما تركته خلفها ومضت .

أخرجت رسالة ديدو التي وجدتها في صندوق بريدها وهي في طريقها للمطار هذا الصباح، لم تكن تملك متسع من وقت لقراءتها لذا وضعتها في حقيبة يديها حتى يتسنى لها قراءتها وهي بالطائرة ، كانت رسالة مطولة ومفصلة تصف لها فيها مشهد الخروج الثاني لليهود من مصر :

"لم يعد هناك الكثير من اليهود القليل منهم حتى إن عددهم لا يتعدى الثلاثمائة شخص ولم تعد للجمعيات الخيرية التي تقدم الإعانات أي وجود كما أغلق المستشفى الإسرائيلي وتحول لمستشفى ناصر العسكري . فقط كل ما تبقى دار العجزة لليهود بمصر الجديدة و عنبر اليهود في السرايا الصفراء. أما عن الأصدقاء والأقرباء لم يعد أحد منهم في الجوار لقد ذهب الجميع وللمرة الأولى في حياتي أعد مائدة العيد ولا يشاركني فيها أحد . استقلوا جميعهم البواخر لتقلهم لشتى أنحاء العالم بعدما باعوا كل أملاكهم للخروج بل عودة . الأموال والمجوهرات كانت تندس بين حشو قطن الوسائد أو في حواشي الملابس، وضعت كاتيا خاتمها الأماس المرصع بفضوص الباجيت داخل برطمان المرية، بينما دست كريمة الجنيهات الذهبية داخل فرو معطفها، ولم ينس الرئيس السابق لطائفة القاهرة حمل " السيفر" اللازم لبناء معبد جديد في الجهة الأخرى من العالم ولكن على نهج الطقوس المصرية . تصورى أن راشيل قد أصطحبت معها وابوار الجاز البريموس وكنكة القهوة في حقائبها حتى يتسنى لها أن تتذوق قهوة كنتك التي تشربها في مصر . أعتقد أن كل شيء قد تم حمله على عجلة السفر سيفجر يوماً بحر من الذكريات ، لقد تم خروج اليهود من مصر إيفا وليس هناك أمل في العودة مجدداً ولكني واثقة من أن هؤلاء اليهود سيصرون على أتمائم لمصر في كل بلدان العالم التي ذهبوا لها سيجملوا معهم طقوسهم ولغتهم والأمم وأحزانهم وستورث للأجيال القادمة حتى وإن لم تطأ أقدام هذه الأجيال مصر ابداً ، وربما يكتب احدهم يوماً " مذكرات يهودي مصري ولكن ولد في فرنسا "

هل كانت تبكي ، وهي تكتب تلك الكلمات وإلا لماذا كانت بعض الأحرف محمية بفعل سائل ما ؟

" أنا باقية إيفا لن أغادر منزلي ولن أسمح لهم بأن يوقعوا لي على استمارة الخروج بل عودة لأني لن أغادر ابداً سأظل هنا وقد أوصيت جارتى عند رحيلي أن تقوم بدفني مع أبي وأمي في مقابر اليهود بالبساتين وقد تركت لها المفتاح ورقم المقبرة . اليوم هو موعد الزيارة الشهرية للسرايا الصفراء لقد أستيقظت باكراً لصنع المرية التي تحبينها ، أتمني لو أنك هنا لتتذوقها . سأتركك الآن وسأحمل معي الرسالة حتى أقوم بوضعها في صندوق البريد وأنا في طريقى للمشفى أتمني أن لا أنسى ذلك . لقد أصبح النسيان هو جليسي الوحيد ، أحترسي لنفسيك إيفلين "

أغمضت أيضا عينيها وتخيلتها وهي في طريقها للمشفى تعقد الإيشارب الحريري حول رأسها وترتدي معطفها الصوفي وتنشبت باليد العاجية لحقيبتها التي غزلت من خيوط الكافاه ، تسير ببطء منحنية الظهر قليلاً وتلفح الرياح الباردة وجهها بقوة .بينما تحترس من عدم الغوط في برك المياه الصغيرة التي تصنعها الأمطار التي لا تتوقف عن الهطول في مثل هذا الوقت من العام ، ويبد مرتعشة وعيون ضعيفة النظر تحاول أن تتحسس مكان ثقب الصندوق لتلقى فيه برسالتها إليها ...

تمت بحمد الله

القاهرة في 2013-2-12

رشا عدلى محمد

كاتبة وباحثة في تاريخ الفن

حاصلة على دراسات حرة في تاريخ الفن التشكيلي من معهد ليوناردو دافنشي للفنون

دبلوما عليا في تاريخ الفن اكاىمية لايم للفنون الجميلة

عضوة في الرابطة العالمية لمؤرخى الفن التشكيلي

صدرت لها رواية صخب الصمت 2010

كتاب القاهرة المدينة الذكريات 2012

رواية الحياة ليست دائماً وردية 2013

للتواصل مع المؤلفة

Rasha-adly@hotmail.com

<https://www.facebook.com/gallery.art.n.history/>

العنوان
الوشم
(رواية)

تأليف
رشا عدلي

إشراف عام
داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي، 8-4893-14-977-978

رقم الإيداع، 9726 / 2014

الطبعة الأولى، مايو 2014

تليضون، 33466434 - 02 33472864

فاكس، 02 33462576

خدمة العملاء، 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة